

علاء الأسواني

عمارة يعقوبيان

مكتبة مدبولي

.. المسافة بين ممر بهار حيث يسكن زكى بك
الدسوقي ومكتبه فى عمارة يعقوبيان لا تتعدى مائة متر
لكنه يقطعها كل صباح فى ساعة ، إذ يكون عليه أن يحيى
أصدقاءه فى الشارع: أصحاب محلات الملابس والأحذية
والعاملين فيها من الجنسين ، الجرمونات والعاملين فى
السينما ورواد محل البن البرازيلي ، حتى البوابين وماسحي
الأحذية والمتسولين وعساكر المرور يعرفهم زكى بك
بالاسم ويتبادل معهم التحيات والأخبار، زكى بك من أقدم
سكان شارع سليمان باشا، جاء إليه فى أواخر الأربعينات
بعد عودته من بعثته فى فرنسا ولم يفارقه بعد ذلك أبدا وهو
يشكل بالنسبة لسكان الشارع شخصية فلكلورية محبوبة
عندما يظهر عليهم ببذلته الكاملة صيف شتاء التى تخفى
باتساعها جسده الضئيل الضامر ومنديله المكوي بعناية

المتكلى دائما من جيب السترة بنفس لون رابطة العنق وذلك السيجار الشهير الذى كان أيام العز كوبيبا فاخرا فصار الآن من النوع المحلى الرديء المكتوم ذي الرائحة الفظيعة، وجهه المتغضن العجوز ونظارته الطيبة السمكة وأسنانه الصناعية اللامعة وشعره الأسود المصبوغ بخصلاته القليلة المصففة من اليسار إلى أقصى يمين الرأس بهدف تغطية الصلعة الفسيحة الجرداء ، باختصار يبدو زكى الدسوقى أسطوريا على نحو ما ، مما يجعل حضوره مشوقا وغير حقيقى تماما (كأنه قد يختفى في أي لحظة أو كأنه ممثل يؤدي دورا ومن المفهوم أنه بعدما يفرغ سوف ينزع عنه ملابس التمثيل ويرتدى ثيابه الأصلية) فإذا أضفنا إلى ذلك روحه المرححة ونكاته الفاحشة المنهمرة وقدرته المدهشة على مخاطبة أي شخص يراه و كأنه صديق قديم أدركنا عندئذ سر الحفاوة التي يلقاه بها كل إنسان في الشارع والحق أنه ما أن يظهر زكى بك في أول الشارع ، في نحو العاشرة صباحا ، حتى تتعالى تحيات الصباح من كل صوب و كثيرا ما يندفع ناحيته بعض مريديه من الشبان العاملين في المحلات ليسألوه مداعبين عن بعض المسائل الجنسية التي غمضت عليهم...عندئذ يستعين زكى بك بدائرة معارفه الجنسية الجبارة ويشرح للشباب (باستفاضة وتلذذ وصوت مسموع للجميع) أدق

الأسرار الجنسية بل انه أحيانا ما يطلب ورقة وقلم
(يتم إحضارهما في لمح البصر) ليرسم بوضوح للشباب
بعض أوضاع الجماع الطريفة التي جربها بنفسه أيام
شبابه...

• • •

بقيت معلومات مهمة عن زكى الدسوقي ..
• انه الابن الأصغر لعبد العال باشا الدسوقي ، القطب
الوفدي المعروف ، الذى تولى الوزارة أكثر من مرة
وكان من كبار الأثرياء قبل الثورة إذ كان يملك وأسرته
ما يزيد عن خمسة آلاف فدان من أجود الأقطان الزراعية
.. وقد تعلم زكى بك الهندسة في جامعة باريس في فرنسا
وكان متوقعا له بطبيعة الحال أن يلعب دورا سياسيا بارزا
في مصر بواسطة نفوذ أبيه وثروته لكن الثورة قامت
فجأة فتغير الحال : تم القبض على عبد العال باشا وتقديمه
لمحكمة الثورة ولم تثبت عليه تهمة الفساد السياسي وان
ظل رهن الاعتقال فترة وانتزعت معظم أملاكه ليوزعها
الإصلاح الزراعي على الفلاحين . ولم يلبث الباشا أن
مات متأثرا بما جرى وترك نكبة الأب وقعها على الابن
فلم يلبث مكتبه الهندسي الذي افتتحه فى عمارة يعقوبيان

أن بقاء بالفشل وتحول مع الأيام الى مكان يقضى فيه زكى بك وقت فراغه اليومي حيث يقرأ الجرائد ويحتسى القهوة ويلقى أصدقاءه وعشيقاته أو يقضى فى شرفته الساعات يتأمل المارة والسيارات فى شارع سليمان باشا .. على أن الإخفاق الذى لقيه المهندس زكى الدسوقي فى حياته العملية لا يرجع فقط إلى قيام الثورة ، وإنما يرجع فى الأساس إلى فتور همته وتهافته على اللذة ، والحق أن حياته التى امتدت خمسة وستين عاما إلى الآن، بكل أحداثها ومفارقاتها السعيدة والمؤلمة على السواء تتمحور غالبا حول كلمة واحدة : .. المرأة .. انه واحد من هؤلاء الواقعيين تماما ونهائيا فى قبضة الأسر الأنثوي اللطيف ، والمرأة بالنسبة إليه ليست شهوة تشتعل حينها ويتم إشباعها فتخبو وإنما عالم كامل من الغواية التى تتجدد فى صور لانهاية لتتووعها الفتان : الصدور العامرة المكتنزة بحلماتها النافرة كحبات العنب اللذيذ ، المؤخرات الطرية اللدنة المترجرجة وكأنها تترقب اقتحامه المباغت العارم من الخلف ، الشفاه المطلية التى ترتشف القبل وتتأوه من اللذة ، والشعر بكافة تجلياته (الطويل المنسدل الهادئ أو الطويل الوحشي المبعثرة جدائله أو متوسط الطول العائلي المستقر أو ذلك القصير الاجرسون الذى يوحى بأنواع غلامية غير مألوفة من الجنس) والعيون ..

أه من نظرات العيون الصادقة أو الكاذبة المتوارية،
الفاجرة أو الخجلى ، حتى العائبة الغاضبة المستكبرة ما
أجملها .. إلى هذا الحد وأكثر أحب زكى بك النساء وقد
عرف منهن كل الأنواع بدءا من النبيلة كاملة ابنة خال
الملك السابق التي تعلم معها آداب المخادع الملكية
وطقوسها ؛ من شموع تضاء طوال الليل وكنوس النبيذ
الفرنسي الذي يزوج الرغبة ويزيل الرهبة والحمام
الساخن قبل اللقاء حيث يدهن الجسم بالكريمات والعطور
.. تعلم من النبيلة كاملة (ذات الشهوة العارمة) كيف يبدأ
ومتى يكف وكيف تطلب أكثر الأوضاع الجنسية مجونا
بكلمات فرنسية رقيقة للغاية ، كما ضاجع زكى بك نساء
من كل الطبقات .. راقصات شرقيات وأجنبيات وسيدات
مجتمع وزوجات لرجال أفاضل مرموقين وتلميذات جامعة
وثانوي بل وساقطات وفلاحات وخادمات بيوت ، كل
واحدة ولها مذاقها ، وكثيرا ما يقارن ضاحكا بين مخدع
النبيلة كاملة المحكوم بالبروتوكول وتلك المتسولة التي
التقطها ذات ليلة وهو سكران في سيارته البويك
واصطحبها إلى شقته في ممر بهلر وعندما دخل بها إلى
الحمام ليغسل جسدها بنفسه اكتشف أنها لفقرها قد صنعت
ملابسها الداخلية من أكياس الأسمنت الفارغة ، ولازال
يذكر بمزيج من الحنان والأسى ارتباك المرأة وهي تخلع

لباسها المكتوب عليه بحروف كبيرة " أسمنت بورتلاند طره " ويذكر أيضا أنها كانت من أجمل من عرفهن وأكثرهن حرارة في الحب .. كل هذه التجارب الحافلة المتنوعة جعلت من زكى السوقى خبيرا حقيقيا بالمرأة ، وله في " علم المرأة " - كما يسميه - نظريات غريبة وطريفة ، قد تقبلها أو ترفضها لكنها حتما تستحق التأمل : فهو يرى مثلا أن المرأة فائقة الجمال تكون عادة عاشقة باردة في الفراش أما النساء متوسطات الجمال أو حتى اللميمات قليلا فهن دائما أكثر حرارة لأنهن يحتجن فعلا إلى الحب و يبذلن كل ما في وسعهن لارضاء عشاقهن .. ويعتقد زكى بك أن نطق المرأة لحرف " السين " بالذات يدل على مدى حرارتها في الحب فإذا نطقت المرأة كلمة " سوسو " أو كلمة " بسبوسة " مثلا بطريقة متهدجة مثيرة يفهم حينئذ أنها من الموهوبات في الفراش والعكس صحيح ويؤمن زكى بك، أيضا ، أن كل امرأة على وجه الأرض يتكون حولها مجتأثيري ما ، تتردد فيه باستمرار ذبذبات غير مرئية أو مسموعة لكنها محسوسة على نحر غامض ويستطيع من يدرب نفسه على قراءة هذه الذبذبات أن يدرك مدى الشبع الجنسي لهذه المرأة ، فمهما كان وقار المرأة وتحشمها يكون بمقدور زكى بك أن يشعر بجوعها الجنسي من تهدج صوتها أو

ضحكتها العصبية المبالغ فيها أو حتى من الحرارة
المنبعثة من يدها إذا صافحها ، أما النساء اللاتي تتملكنهن
الشهوة الشيطانية التي لا تترتوى أبدا ، " نساء القدر " كما
يسميهن زكي بك بالفرنسية ، هؤلاء النساء الغامضات
اللاتي لا يشعرن بوجودهن الحقيقي إلا على فراش الحب
واللاتي لا يعلنن بالجنس لذة أخرى في الحياة ، هذه
الكائنات الشقية المسيرة من فرط ظماها للذة إلى مصيرها
المروع المحتوم ، هذا النوع من النساء يؤكد زكي
الدسوقي أن شكلهن جميعا واحد وإن تغيرت الوجوه ، وهو
يدعو المشككين في هذه الحقيقة إلى مطالعة الصور التي
تنشرها الجرائد للنساء المحكوم عليهن بالإعدام لاشتراكهن
مع العشيق في قتل الزوج ، وسوف نكتشف - بقليل من
التأمل - أن لهن جميعا سحنة واحدة فالشفاه غالبا مكتنزة
حسية منفرجة غير مضمومة والملامح غليظة شهوانية
والنظرات لامعة فارغة كنظرة حيوان جائع ..

اليوم الأحد : تغلق المحلات في سليمان باشا أبوابها
وتمتلئ البارات ودور السينما بالرواد ويبدو الشارع المظلم
الخالي بمحلاته المغلقة والعمارات ذات الطراز الأوروبي

العتيق وكأنه جزء من فيلم غربي رومانسي حزين و من أول النهار ينقل الشاذلي البواب العجوز مقعده من جوار المصعد إلى أمام عمارة يعقوبيان على الرصيف ليراقب الداخلين والخارجين من العمارة في يوم العطلة .. وقد وصل زكى الدسوقي إلى مكتبه قبيل الظهر ومنذ الوهلة الأولى أدرك الفراش أبسخرون أبعاد الموقف ، بعد عشرين عاما من العمل مع زكى بك صار أبسخرون يفهم أحواله بنظرة واحدة وهو يدرك معنى أن يأتى سيده إلى المكتب وقد أفرط فى أناقته ، تسبقه رائحة العطر الفاخر الذى يحتفظ به للمناسبات ، معنى أن يبدو متوترا مشدودا يقف ويجلس ويمشى بعصبية ولا يستقر على حال و يدارى لهفته بالانقباض والفظاظة .. كان هذا يعنى دائما أن البك ينتظر لقاءه الأول مع عشيقته الجديدة .. من هنا لم يغضب أبسخرون عندما أخذ البك يعنفه بلا مسبب لكنه هز رأسه بطريقة من يفهم الأمر وانتهى بسرعة من كنس الصالة ثم قبض على عكازيه الخشبيين وأخذ يضرب بهما بلاط الردهة الطويلة بقوة وسرعة حتى وصل الى الحجرة الكبيرة حيث يجلس البك .. وقال بصوت تعلم بالخبرة كيف يجعله محايدا تماما:-

- .. سيادتك عندك اجتماع ؟ .. أجهز "الحاجات"

لسيادتك ؟ ..

تطلع البك ناحيته وتامله لوهلة وكأنه يقرر فى نفسه اللهجة الملائمة الرد عليه .. نظر الى جلبابه الكستور المقلم المنهريء فى أكثر من موضع ، الى عكازيه وموقع ساقه المبتورة ووجهه العجوز بنقته النابتة الشيباء وعينيه الضيقتين الماكرتين وتلك الابتسامة المتوسلة المذعورة التي لا تفارقه ..

- " جهز حاجات الاجتماع بسرعة ..

هكذا قال البك باقتضاب وهو يدخل الى الشرفة .. كان " الاجتماع " يعنى فى قاموسهما المشترك اختلاء البك بامرأة فى المكتب ، أما " الحاجات " فترمز الى طقوس معينة يهينها أبسخرون لسيده قبيل الغرام : وتبدأ بحقنة " التراى بى " المستورد التي يحقنه بها فى عضلة الإلية والتي تؤلمه كل مرة حتى يتأوه بصوت عال ويصب لعناته على أبسخرون الحمار ذى اليد الغاشمة الثقيلة ، ويعقب ذلك فنجان قهوة سادة من البن المحوج بجوزة الطيب يرتشفه البك على مهل وهو يستحلب تحت لسانه قطعة صغيرة من الأفيون و تنتهى الطقوس بطبق كبير من السلطة يتوسط المائدة بجوار زجاجة ويسكى ماركة " بلاك ليبل " وكاسين فارغين وأنية معدنية " شمبانيزا " ممثلة الى حافتها بمكعبات الثلج .. شرع أبسخرون فى تجهيز الحاجات بهمة بينما جلس زكى بك فى الشرفة العظلة على شارع سليمان

باشا وأشعل سيجارا وأخذ يراقب المارة ، كانت
مشاعره تنراوح بين اللهفة المتوثبة إلى اللقاء الجميل
وهواجس القلق من أن تخلف محبوبته "رباب" الموعد
فيضيع عليه مجهود شهر كامل أنفقه في مطارقتها ، كان
متيما بها منذ رآها لأول مرة في بار "كايرو" بميدان
التوفيقية حيث تعمل مضيعة ، سحرته تماما وظل يتردد على
البار يوميا حتى يراها وقال في وصفها لصديق عجوز :
.. إنها تمثل الجمال الشعبي بكل سوقيته وإثارته ، وكأنها قد
خرجت لتوها من إحدى لوحات محمود سعيد " ثم استطرد
زكى بك موضحا لصديقه : " هل تذكر تلك الخادمة في
بينكم التي كانت تداعب أحلامك الجنسية وأنت مراهق ؟
والتي كانت أقصى أمانيك أن تلتصق بمؤخرتها الطرية ثم
تقبض بيديك على صدرها الكبير البض وهي تغسل
الصحون أمام الحوض في المطبخ؟! .. فتأود هي بطريقة
تزيد من التصاقك بها وتهمس بتمنع مثير قبل أن تمنحك
نفسها : "سيدي .. عيب كده يا سيدي " .. لقد عثرت في
رباب على مثل هذا الكنز .."

.. لكن العثور على الكنز لا يعنى بالضرورة
امتلاكه ، ومن أجل المحبوبة رباب اضطر زكى بك الى
احتمال مضايقات كثيرة : كأن يقضى ليالى كاملة في مكان
قذر ضيق سيئ الإضاءة والتهوية مثل بار "كايرو" .. يكاد

يختنق من الزحام ودخان السجائر الكثيف ويوشك على
 الصمم من الصوت العالي لجهاز التسجيل الذى لا يتوقف
 لحظة عن بث الأغاني المنحطة البذينة ، ناهيك عن
 المشاحنات المقذعة والتشاجر بالأيدي بين رواد المحل وهم
 خليط من الحرفيين والمشبهين وشذاذ الأفاق ، وكنوس
 البراندي الرديء الحارق للمعدة الذى يضطر الى تجرعه
 كل ليلة ، والمغالطات الفاحشة فى فواتير الحساب التى
 يغض النظر عنها بل ويترك أيضا بقشيشا كبيرا للمحل
 وبقشيشا آخر أكبر يدسه فى فتحة صدر فستان رباب وعندما
 يلمس بأصابعه نهديها الممثلين الرجراجين يشعر فوراً بالدم
 الساخن يتدفق فى عروقه والرغبة العارمة تكاد تؤلمه من
 فرط قوتها وإلحاحها .. كل هذا تحمله زكى بك من أجل
 رباب وظل يدعوها المرة تلو المرة الى لقائه خارج المحل
 وهى تتمنع بدلال فيكرر دعوته ولا يفقد الأمل حتى وافقت
 بالأمس فقط على زيارته فى المكتب ومن فرط سعادته دس
 فى صدرها ورقة بخمسين جنيهها (ولم يندم) واقتربت هي
 منه حتى لفحت أنفاسها وجهه وعضت بأسنانها شفتها
 السفلي وهمست بصوت مثير قوض ما تبقى من أعصابه :
 - غدا .. أكافئك يا حبيبي على كل ما عملته من
 اجلى ..

* تحمل زكى بك حقنة التراى بى المولمة واستحلب الأفيون

وراح يرتشف على مهل الكأس الأولى من الويسكي ثم
أتبعها بكأس ثانية وثالثة ولم يلبث أن تخلص من التوتر
وغمره الانسراح وراح الخواطر تداعب رأسه برفق
وكانها أنغام لطيفة .. كان موعد رباب الساعة واحدة ولما
دقت ساعة الحائط نقتين كاد زكى بك أن يفقد الأمل
لكنه؛ فجأة ، سمع وقع ضربات عكاز أبسخرون على
بلاط الردهة ولم يلبث وجهه أن بان من فرجة الباب وقال
وهو يلبث بانفعال وكان الخبر يسعده حقاً :
- مدام رباب وصلت يا سعادة البك "



في عام ١٩٣٤ فكر المليونير هاجوب يعقوبيان ،
عميد الجالية الأرمنية في مصر آنذاك ، في إنشاء عمارة
سكنية تحمل اسمه فتخير لها أهم موقع في شارع سليمان
باشا وتعاقد لبنانها مع مكتب هندسي إيطالي شهير وضع لها
تصميماً جميلاً : عشرة أدوار شاهقة من الطراز الأوروبي
الكلاسيكي الفخم : الشرفات مزدانة بتمائيل لوجوه إغريقية
منحوتة على الحجر والأعمدة والدرجات والممرات كلها
بالرخام الطبيعي والمصعد ماركة شندلر على أحدث طراز
.. استمرت أعمال البناء عامين كاملين خرجت بعدهما تحفة

معمارية جاوزت كل توقع لدرجة جعلت صاحبها يطلب من المهندس الإيطالي أن ينقش على بابها من الداخل اسمه "يعقوبيان" بحروف لاتينية كبيرة تضاء ليلا بالنيون وكأنه يخلد اسمه ويؤكد ملكيته للمبنى البديع ، وقد سكن في عمارة يعقوبيان صفوة المجتمع في تلك الأيام ، وزراء وباشوات من كبار الإقطاعيين ورجال صناعة أجاناب واثنين من مليونيرات اليهود (أحدهما من عائلة موصيري المعروفة) وانقسم أسفل العمارة بالتساوي بين جراج متسع له أبواب متعددة من الخلف حيث تبيت سيارات السكان (ومعظمها من طرازات فخمة مثل الرولزرويس والبويك والشيغروليه) وفي الواجهة محل كبير على ثلاثة نواص خصصه يعقوبيان كمعرض للمنتجات الفضية من إنتاج مصانعه ، وظل هذا المعرض يعمل بنجاح على مدى أربعة عقود ثم تدهورت حالته شيئا فشيئا حتى اشتراه مؤخرًا الحاج محمد عزام وافتتحه كمحل لبيع الملابس.. وفوق سطح العمارة الفسيح خصصت حجرتان بمنافعهما لإقامة البواب وأسرته ، وفي الناحية الأخرى من السطح تم بناء خمسين غرفة صغيرة بعدد شقق العمارة ، لا تتجاوز مساحة الغرفة مترين ، جدرانها و أبوابها جميعا من الحديد الصلب وتغلق بأقفال تسلم مفاتيحها لأصحاب الشقق. وكانت للغرف الحديدية أغراض متعددة آنذاك مثل تخزين المواد الغذائية ومبيت

الكلاب (إذا كانت كبيرة الحجم أو شرسة) وأيضا
غسيل الثياب الذى كانت تقوم به آنذاك غسالات
متخصصات (قبل انتشار الغسالة الكهربائية) يغسلن فى
الغرفة وينثرن الغسيل على الحبال الطويلة الممتدة بعرض
السطح .. ولم تستعمل الغرف الحديدية قط فى مبيت الخدم
ربما لأن سكان العمارة فى ذلك الوقت من الأرستقراطيين
والأجانب لم يتصوروا إمكانية نوم أى إنسان فى غرفة
ضيقة بهذا الشكل كما أنهم فى شققهم الفاخرة الفسيحة (التي
تضم أحيانا ثمانى أو عشر حجرات على مستويين يصل
بينهما سلم داخلي) كانوا يخصصون حجرة للخدم .. وفى
عام ١٩٥٢ قامت الثورة فتغير كل شيء .. بدأت حجرة
اليهود والأجانب خارج مصر وكانت كل شقة تخلو بهجرة
أصحابها يستولي عليها أحد ضباط القوات المسلحة ،
أصحاب النفوذ فى ذلك العهد، حتى جاءت الستينيات
فصارت نصف شقق العمارة يسكنها ضباط من رتب
مختلفة من أول ملازمين ونقباء حديثي الزواج وصولا إلى
اللواءات الذين كانوا ينتقلون بأسرهم الكبيرة إلى العمارة بل
إن اللواء الذكوررى (مدير مكتب الرئيس محمد نجيب فى
وقت ما) استطاع أن يحصل على شقتين كبيرتين
متجاورتين فى الدور العاشر خصص واحدة لسكنه وأسرته
و الأخرى كمكتب خاص يلتقى فيه بأصحاب الحاجات بعد

الظهر .. وقد بدأت زوجات الضباط فى استعمال الغرف الحديدية بطريقة مختلفة فصارت لأول مرة أماكن مبيت للسفرجية والطباخين والشغالات الصغيرات المطلوبات من قراهن لخدمة أسر الضباط ، وكانت بعض زوجات الضباط من أصول شعبية فلم يجدن غضاضة فى تربية الدواجن (أرانب و بط ودجاج) فى الغرف الحديدية وشهدت سجلات حي غرب القاهرة شكاوى كثيرة تقدم بها السكان القدامى وذلك لمنع تربية الدواجن فوق السطح لكنها كانت تحفظ دائما بفضل نفوذ الضباط حتى شكا السكان إلى اللواء الذكرورى فاستطاع بمكانته عند الضباط أن يمنع تلك الظاهرة غير الصحية .. ثم جاء الانفتاح فى السبعينيات وبدأ الأثرياء فى الخروج من وسط البلد إلى المهندسين ومدينة نصر وباع بعضهم شققهم فى عمارة يعقوبيان وخصصها البعض الآخر كمكاتب وعيادات لأبنانهم حديثي التخرج أو قاموا بتأجيرها مفروشة للسياح العرب .. وكانت النتيجة أن انقطعت الصلة شينا فشيئا بين الغرف الحديدية وشقق العمارة وتنازل السفرجية والخدم القدامى مقابل المال عن غرفهم الحديدية لسكان فقراء جدد قادمين من الأرياف أو يعملون فى مكان ما فى وسط البلد ويحتاجون إلى سكن قريب ورخيص .. وساعد على سهولة التنازل موت وكيل العمارة الأرمني المسمى " كريكور " الذى كان يدير أملاك

المليونير هاجوب يعقوبيان بمنتهى الأمانة والدقة ويرسل
 الربيع في ديسمبر من كل عام إلى سويسرا حيث هاجر ورثة
 يعقوبيان بعد الثورة ، وقد خلف كريكور في وكالة يعقوبيان
 الأستاذ فكري عبد الشهيد المحامي الذي يفعل أي شيء
 مقابل المال فكان يأخذ نسبة كبيرة من المتنازل عن الغرفة
 الحديدية ونسبة أيضا من مستأجرها الجديد حتى يحرر له
 عقد إيجار بالغرفة .. وانتهى الأمر بنشأة مجتمع جديد فوق
 السطح مستقل تماما عن بقية العمارة ، استأجر بعض
 القادمين غرفتين متجاورتين وصنعوا منهما سكنا صغيرا
 بمنافعه (دورة مياه وحمام) بينما تعاون البعض الآخر
 (الأكثر فقرا) ليصنعوا حماما مشتركا لكل ثلاث أو أربع
 غرف وصار مجتمع السطح لا يختلف عن أي مجتمع شعبي
 آخر في مصر : فالأطفال يركضون في أنحاء السطح حفاة
 وأشباه عراة والنسوة يقضين النهار في إعداد الطبخ ويعقدن
 جلسات النسيمة في الشمس ويتشاجرن كثيرا ويتبادلن أثناء
 المشاجرات أشنع الشتائم والاتهامات الماسة بالشرف
 وسرعان ما يتصالحن بعد ذلك ويتصافين تماما كأن شيئا لم
 يكن بل ويطبعن قبلات حارة منعمة على خدود بعضهن
 البعض وقد يبكين أيضا من فرط التأثر والمحبة أما الرجال
 فلا يهتمون كثيرا لمشاجرات النسوة ويعتبرونها مجرد دليل
 آخر على نقص عقلمن الذي تحدث عنه الرسول (صلى الله

عليه وسلم) والرجال جميعا فوق السطح يقضون اليوم
فى كفاح شاق مرير من أجل لقمة العيش ويعودون آخر
النهار منهكين يسعون إلى تحقيق متعهم الصغيرة الثلاث :
الطعام الساخن الشهى و بضعة أحجار من المعسل
والحشيش ان تيسر ، يذخونها على الجوزة فرادى أو
يسهرون لتدخينها معا على السطح فى ليالى الصيف لما
المتعثة الثالثة فهي " الجنس " الذى يحتفى به أهل السطح
كثيرا ولا يجدون غضاضة فى الحديث الصريح عنه ما دام
حلالا ، وثمة تناقض هنا : فالرجل من سكان السطح الذى
يستحي كعادة الشعبين من ذكر اسم زوجته أمام الرجال
فيشير إليها بأم فلان أو يتحدث عنها بصفاتها العيال كأن
يقول مثلا " العيال طبخوا ملوخية " فيفهم الحاضرون أنه
يتحدث عن زوجته .. نفس هذا الرجل لا يخرج فى مجلس
الرجال من ذكر أدق تفاصيل علاقته الخاصة مع زوجته
حتى يكاد الرجال فوق السطح يعرفون كل شئ عن
علاقات بعضهم البعض الجنسية .. أما النساء فهن جميعا
وبغض النظر عن درجة تدينهن والتزامهن الأخلاقي ،
يحبين الجنس جدا ويتهايمن عن تفاصيل الفرائش ثم يطلقن
ضحكات رانقة أو حتى خليعة إذا كن وحدهن .. وهن لا
يحبين الجنس لمجرد إطفاء الشهوة وانما لأن الجنس
وحرص رجالهن عليه يشعرهن بأنهن برغم كل الضنك

الذى يعانينه لازلن نساء جميلات ومرغوبات من رجالهن . وفي تلك اللحظة عندما يكون الأولاد نائمين بعد أن تعشوا وحمدوا ربهم وثمة طعام فى البيت يكفى أسبوعا ويزيد وثمة نقود قليلة مدخرة للطوارئ والحجرة التى يعيشون فيها جميعا نظيفة ومرتبّة ويجنى الرجل ليلة الخميس رائق المزاج من تأثير الحشيش ويطلب زوجته أولا يكون واجبها حينئذ أن تلبى نداءه بعد أن تستحم وتتزين وتتعطر ؟! أولا تعطىها هذه الساعات القصيرة من السعادة دليلا على أن حياتها البائسة مرفقة على نحو ما يرغب كل شيء ؟!.. ويحتاج الأمر إلى رسام بارع لكي ينقل إلينا تعبيرات وجه امرأة فوق السطح ، صباح الجمعة ، عندما ينزل زوجها لأداء الصلاة وتغسل هي من آثار الحب ثم تخرج إلى السطح لتتشر ملاءات الفراش المغسولة ، تبدو في تلك اللحظة بشعرها المبلل وبشرتها المتوردة ونظراتها الصافية وكأنها وردة ارتوت بندى الصباح فاكتملت وأينعت.



كان ظلام الليل ينسحب إيثانا بصباح جديد ، وثمة ضوء صغير شاحب فوق السطح ينبعث من نافذة حجرة الشاذلي بواب العمارة حيث كان ابنه الشاب طه قد قضى

ليلته ساهرا من فرط القلق ، أدى صلاة الفجر وركعتي
السنة ثم جلس بجلبابه الأبيض على السرير يقرأ في كتاب
الدعاء المستجاب ويردد بصوت هامس ضارع في سكون
الحجرة :

" اللهم أني أسألك خير هذا اليوم وأعوذ بك من شره
وشر ما فيه . اللهم احرسني بعينك التي لا تنام واغفر لي
بقدرتك فلا أهلك و أنت رجائي . ربى يا ذا الجلال والإكرام
لك وجهت وجهي فأقبل إلى بوجهك الكريم واستقبلني
بمحض عفوك وكرمك وأنت ضاحك إلي وراض عني
برحمتك . "

ظل طه يقرأ الأدعية حتى سطع نور الصباح في
الحجرة وشينا فشيننا دبت الحركة في الغرف الحديدية :
أصوات وصياح وضحكات وسعال وأبواب تغلق وتفتح و
روائح ماء ساخن وشاي وقهوة وفحم ومعدل .. بالنسبة
لسكان السطح كانت بداية ليوم جديد أما طه الشاذلي فكان
يدرك أن مصيره سوف يتحدد اليوم إلى الأبد فبعد ساعات
قليلة يتقدم إلى كشف الهيئة في كلية الشرطة ، الحاجز
الأخير في سباق الأمل الطويل ، كان يحلم منذ الطفولة بأن
يكون ضابط شرطة ومن أجل تحقيق الحلم بذل كل ما لديه
.. انكب على الاستذكار في الثانوية العامة حتى حصل على
مجموع ٨٩ ٪ أدبي بدون دروس خصوصية (باستثناء

بعض مجموعات التقوية في المدرسة التي كان أبوه يوفر
 ثمنها بالكاد . وانضم في العطلة الصيفية إلى مركز شباب
 عابدين (بمصاريف عشرة جنيهات شهريا) وصبر على
 تعريفات كمال الأجسام الشاقة حتى يكتسب القوام الرياضي
 الذي يؤهله لاختبارات اللياقة في كلية الشرطة ومن أجل
 تحقيق الحلم تودد طه إلى ضبط الشرطة في المنطقة حتى
 صاروا جميعا أصدقاءه سواء الضباط العاملين في قسم
 قصر النيل أو في نقطة كوتسيكا التابعة له وعن طريقهم
 عرف طه كل التفاصيل الخاصة باختبارات القبول للشرطة
 وعرف أيضا موضوع العشرين ألف جنيه التي يدفعها
 الأثرياء رتبة حتى يضمنوا قبول أولادهم في الكلية (وكم
 تمنى لو يملك هذا المبلغ) .. ومن أجل تحقيق الحلم، أيضا
 ، تحمل طه الشاذلي رذالة سكان العمارة وغطرستهم ، كان
 يساعد أباه منذ الصغر في الخدمة ولما ظهر ذكاؤه وتفوقه
 في الدراسة تقبل السكان الأمر بطرق مختلفة : بعضهم كان
 يشجعه على الاستذكار ويجزل له الغطاء ويتبأ له بالمستقبل
 الباهر أما الآخرون (وهم كثيرون) فكانت فكرة " ابن
 البواب المتفوق " تزعجهم على نحو ما ، وحاولوا إقناع أباه
 بإلحاقه بالتعليم الصناعي بعد الإعدادية .. حتى يتعلم
 صنعة فينفك وينفع نفسه هكذا قالوا لعم شاذلي العجوز
 وهم يتظاهرون بالإشفاق عليه وعندما التحق طه بالثانوي

العام واستمر في التفوق كانوا يسألون عليه أيام
الامتحانات ويكلفونه بأعمال شاقة تستغرق وقتا طويلا
ويغدقون عليه البقيش لاغرانه وفي نفوسهم رغبة دفينة
خبيثة لتعطيله عن الاستذكار وكان طه يقبل تلك الأعمال
لحاجته للنقد لكنه ظل يتفانى في الاستذكار حتى أنه كثيرا
ما كان يقضى يوما أو يومين بلا نوم حتى ظهرت نتيجة
الثانوية العامة وحصل على مجموع أكبر من أولاد الكثيرين
في العمارة ، عندئذ ، بدأ المتآمرون يتكلمون علانية ، فكان
الواحد منهم يلتقي بالآخر أمام المصعد فيسأله متهمًا إن
كان قد هنا البواب على تفوق ابنه ثم يضيف ساخرًا إن ابن
البواب سيلتحق بكلية الشرطة قريبًا ويتخرج ضابطًا بنجمتين
على كتفه عندئذ يعلن الآخر بصراحة امتعاضه من هذا
الموضوع فيثني أولا على أخلاق طه واجتهاده ثم يستترك
بجدية (وكان ما يعنيه هو العبداء وليس الشخص) إن
مناصب الشرطة والقضاء والمناصب الحساسة عموما ينبغي
أن تقتصر على أولاد الناس لأن أولاد البوابين والكوانين
وأمثالهم لو أخذوا أية سلطة سوف يستعملونها في تعويض
مركبات النقص والعقد النفسية التي أصابتهم في نشأتهم
الأولى ثم ينهي حديثه بلعن عبد الناصر الذي استحدث
مجانبة التعليم أو يستشهد بحديث رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) "... لاتعلموا أولاد السفلة" ..

هؤلاء السكان ، أنفسهم ، أخذوا يتحرشون بطله بعد ظهور النتيجة ويوبخونه على أهون سبب كان يغسل السيارة وينسى إرجاع الدواسات إلى مكانها أو يتأخر بضع دقائق في مشوار بعيد أو يشتري عشرة طلبات من السوق وينسى طلبا واحدا ، كانوا يتعمدون إهائته بوضوح كامل حتى يدفعوه إلى الرد عليهم بأنه لا يقبل هذه الإهانات لأنه متعلم ، عندئذ تحين فرصتهم الذهبية لكي يعلنوا له الحقيقة : انه هنا مجرد بواب لا أكثر ولا أقل ، وإذا كانت شغلته لاتعجبه فليتركها لمن يحتاجها .. لكن طه لم يمنحهم هذه الفرصة أبدا ، كان يقابل ثورتهم بصمت واطراقة وشبه ابتسامة وكان وجهه الأسمر الوسيم عندئذ يعطى الانطباع بأنه لا يوافق على ما يوجه إليه وأنه بمقدوره تماما أن يرد الإهانة إلى صاحبها لكن احترام الكبير يمنعه من الرد .. كان هذا واحدا من أوضاع كثيرة ، بمثابة وسائل دفاعية ، يستعملها طه في المواقف الصعبة لكي يعبر عما في نفسه ويتفادى المشاكل في أن واحد ، أوضاع يبدأ بتمثيلها وسرعان ما يؤديها بصدق وكأنها حقيقة فكان مثلا لا يحب الجلوس على دكة البواب حتى لا يضطر للوقوف احتراماً لأي ساكن وإذا جلس على الدكة ولمح الساكن قادمًا تشاغل بشيء يمنع عنه واجب الوقوف وتعود أن يحدث السكان بقدر من الاحترام محدد بدقة ، أن يعاملهم كموظف مع

رئيسه وليس كخادم مع سيده ، أما أولاد السكان المقاربين له في السن فكان يتصرف معهم بندية كاملة فيناديهم بأسمائهم المجردة ويحادثهم ويعاينهم كأصدقاء حميمين ويستعير منهم كتباً مدرسية قد لا يكون بحاجة إليها لكي يذكرهم بأنه ، برغم وضعه كبواب ، زميل لهم في الدراسة .. كانت هذه ابتدئات الحياة اليومية : الفقر والعمل المضني وعجرفة السكان وتلك الورقة بخمسة جنيهات المطوية دائما التي يمنحها له أبوه يوم السبت والتي يحتال باللف طريقة حتى تكفيه طوال الأسبوع ، منظر يد أحد السكان الدافئة الناعمة تمتد بكسل وتفضل من نافذة السيارة لتمنحه البقسيش ولا بد حينئذ من أن يرفع يده بتعظيم سلام ويشكر المحسن إليه بحرارة وصوت مسموع ، تلك النظرة الوقحة الناطقة بالتسفي أو المتسامحة المتعاطفة المتوارية خجلا من " الموضوع " التي يلمحها في عيون زملائه في المدرسة عندما يزورونه ويكتشفون أنه يسكن في حجرة البواب " فوق السطح " .. ذلك السؤال الكريه المحرج الذي يوجهه إليه الغرباء عن العمارة " انت البواب ؟! " .. تتأقل السكان المتعمد وهم يداخلون إلى العمارة حتى يهرع ويحمل عنهم ما يحملونه (مهما يكن خفيفا وتافها) .. هكذا يمضي النهار بمضايقاته وعندما يدخل إلى فراشه آخر الليل ، يكون دائما طاهرا متوضئا بعد أن يصلى العشاء والشفع والوتر ،

ويظل محمقا في ظلام الحجرة لفترة طويلة وشينا
فشينا يخلق عاليا فيرى نفسه بعين الخيال ضابط شرطة
يتهاذى معترًا ببذلته الرسمية الجميلة وعلى كتفه تلمع النجوم
النحاسية وتتدلى من حزامه الطينجة الميري المهيبة ويتخيل
نفسه وقد تزوج من حبيبته بثينة السيد وانتقلا إلى شقة لانقة
في حي راق بعيدا عن ضوضاء السطح وقذارته ، كان لديه
إيمان راسخ بأن الله سيحقق أحلامه جميعا أولا لأنه يتقى
الله قدر جهده فيحافظ على الفرائض ويتجنب الكبائر وقد
بشر الله عباده المتقين في الآية الكريمة " ولو أن أهل القرى
أمنوا واتقوا لفتحننا عليهم بركات من السماء والأرض " .
وثانيا لأنه يحسن الظن بالله وقد أكد عز وجل في حديثه
القدسي : " أنا عند ظن عبدي بيى ابن خيرا فخير وإن شرا
فشر " وها قد صدق الله وعده ووفقه في الثانوية العامة وقد
نجح والحمد لله في كل اختبارات كلية الشرطة ولم يبق
أمامه سوى كشف الهيئة وسوف يجتازه اليوم بإذن الله .

نهض طه وصلى ركعتي الضحى وركعتين لقضاء
الحاجة ثم اغتسل وحلق ذقنه وبدأ يرتدى ملابسه ، كان قد
اشترى من أجل كشف الهيئة بدلة جديدة لونها رمادي
وقميصا أبيض ناصعا ورابطة عنق زرقاء جميلة وعندما
ألقي نظرة أخيرة على نفسه في المرآة كان يبدو أنيقا جدا
وقبل أمه مودعا فوضعت يدها على رأسه وتمتمت بالرقية

ثم أخذت تدعو له بحرارة خفق لها قلبه وقى مدخل
العمارة وجد أباه جالسا وقد ربع ساقيه على الدكة كعادته
ونفض العجوز ببطء وتأمل طه قليلا ثم وضع يده على كتفه
وابتسم فاهتز شاربهُ الأبيض وظهر فمه خاليا من الأسنان
وقال في زهو : "مبروك مقدما يا حضرة الضابط" .. كانت
الساعة جاوزت العاشرة وشارع سليمان باشا قد ازدحم
بالسيارات والمارة ومعظم المحلات فتحت أبوابها وفكر طه
في أن أمامه ساعة كاملة حتى موعد الامتحان وقرر أن
يستقل تاكسيا خوفا من إفساد البتلة في زحام المواصلات
وتمنى لو يقضى الوقت المتبقي مع بثينة وكانت الطريقة
المتفق عليها بينهما أن يمر أمام محل شفن للملابس حيث
تعمل وعندما تراه تستأذن من الأستاذ طلال صاحب المحل
بحجة إحضار أي شئ من المخزن ثم تلحق به في مكانهما
المفضل عند الحديقة الجديدة في ميدان التوفيقية .. فعل طه
المتفق عليه وظل جالسا هناك ما يقرب من ربع ساعة حتى
ظهرت بثينة، وشعر بقلبه يخفق لمراها.. كان يحب
طريقتهما في المشي ، تسير بخطوات ضيقة بطينة وهي
مطرقة فتبدو وكأنها خجلي أو نادمة لسبب ما أو كأنها
تسير بحذر بالغ على سطح هش لنلا تكسره بخطواتها..
لاحظ أنها ترتدى الفستان الأحمر الضيق الذي يبرز تفاصيل
جسدها ويظهر من فتحته الواسعة صدرها المكتنز فسر

بالغضب وتذكر أنه تساجر معها من قبل حتى لا ترتدى
هذا الفستان لكنه كظم غيظه ولم يرد أن يفسد المناسبة
وابتسمت فبانت أسنانها الصغيرة المنتظمة الناصعة
والنغارتان الرانعتان اللتان تحيطان بفمها وشفتيها المطليتين
بلون داكن . جلست بجواره على سور الحديقة الرخامي
الواطن ثم استدارت ناحيته وتطلعت إليه بعينيها العسليتين
الواسعتين كالمندهشة وقالت: " كل هذه الأناقة ؟! فأجابها
بصوت هامس مضطرب :

- أنا ذاهب الآن إلى كشف الهيئة وأحببت أن أراك
- ربنا معك ..

هكذا قالت بحنان صادق مخفق قلبه بشدة وتمنى في
تلك اللحظة لو يضمها إلى صدره .
- أنت حائف ؟!

- لقد فرضت أمري لله عز وجل وكل ما يفعله
ربنا سأقبله بنفس راضية إن شاء الله .. هكذا قال بسرعة
وكانه جهاز الرد سلفا أو كأنه يتكلم ليقنع نفسه ثم صمت
لحظة و استطرد برقة وهو ينظر إلى عينيها :
- ادعى لي ..

- يارب يوفئك ياطه ..

هكذا هتفت بحرارة ثم استطردت وكأنها أحست
بانها أفرطت في إظهار مشاعرها :

- لا بد أن انصرف الآن لأن الأستاذ طلال

ينتظرني

كانت تتسحب ، حاول أن يستبقها لكنها مدت يدها مصافحة وهي تتحاشى النظر إلى عينيه وقالت بلهجة عادية رسمية : " بالتوفيق إن شاء الله " وفكر طه بعد ذلك وهو جالس في التاكسي أن بثينة قد تغيرت ناحيته و أن هذه حقيقة لا جدوى من تجاهلها ، انه يعرفها جيدا وتكفيه نظرة واحدة لكي ينفذ إلى أعماقها وهو يحفظ عن ظهر قلب كل أحوالها : وجهها المشرق بالسعادة أو الحزين ، ابتسامتها الحائرة ووجهها المتضرج إذا خجلت ، نظراتها المتتمرة وملامحها المرعبة من الغضب (الجميلة مع ذلك) .. حتى وقد استيقظت لتوها من النوم كان يحب أن ينظر إليها وأثار النعاس على وجهها تجعلها أشبه بطفلة وديعة مستسلمة .. كان يحبها و يحتفظ في ذاكرته بصورتها وهي طفلة صغيرة تلعب معه فوق السطح ويركض وراءها ويتعمد أن يلتصق بها فتدغدغه رائحة الصابون المنبعث من شعرها ، صورتها وهي تلميذة في مدرسة التجارة الثانوية ترثدي القميص الأبيض والجينة الزرقاء والجورب الأبيض المدرسي القصير على الحذاء الأسود وتمشي وهي تحتضن حقيبتها وكأنها تخفى بها صدرها الناضج ، تلك الصور الجميلة وهما يتنزهان معا في القناطر الخيرية وحديقة الحيوان وذلك

اليوم عندما تكاشفا بالحب وتعاهدا على الزواج وتعلقها به بعد ذلك وسؤالها عن تفاصيل حياته وكأنها زوجته الصغيرة القائمة بشنونه ، كانا قد اتفقا على كل شيء في المستقبل حتى عدد الأطفال التي ستجبهم منه وأسمائهم وشكل الشقة التي سوف يتزوجان فيها لكنها فجأة تغيرت ، قل اهتمامها به وصارت تتحدث عن " مشروعاتهما " بعدم اكتراث وسخرية ، تتساجر معه كثيرا وتشرب من لقائه بحجج مختلفة ، حدث ذلك عقب وفاة أبيها .. لماذا تغيرت ؟! هل كان حبهما مجرد مرافقة فلما كبرت تجاوزته أم أنها صارت تحب شخصا آخر ، كان هذا الخاطر يوخزه حتى يدميه كالشوكه وأخذ يتخيل الأستاذ طلال السوري (صاحب المحل الذي تعمل فيه) وقد أخذ نراعتها تحت إبطه وهو يرتدى بدلة العريس .. شعر طه بهم ثقيل يحتم على قلبه ثم انتبه من تفكيره عندما توقف الناكسي أمام مبنى كلية الشرطة الذي بدا له في تلك اللحظة مهيبا وتاريخيا وكأنه قلعة القدر حيث يتحدد مصيره وعاودته الرهبة من الامتحان فأخذ يهمس بتلاوة آية الكرسي وهو يدنو من البوابة.

• • •

المعلومات المتوفرة عن أبسخرون في شبابه

قليلة للغاية :

.. فنحن لا نعرف ماذا كان يصنع قبل سن الأربعين ولا الظروف التي بتت فيها ساقه اليمنى .. كل ما نعرفه يبدأ في ذلك اليومى الشتوى الممطر ، منذ عشرين عاما ، عندما وصل أبسخرون إلى عمارة يعقوبيان في السيارة الشيفروليه السوداء لمدام سناء فانوس وهى أرملة قبطية من أصل صعيدى ، ثرية ولها ولدان تفرغت لتربيتهما بعد وفاة زوجها لكنها برغم حذبها على ولديها كانت تستجيب لنزوات جسدها من وقت لآخر وقد تعرف إليها زكى الدسوقي في نادى السيارات ورافقها لفترة وبقدر استمتاعها بالعلاقة ظل ضميرها الدينى يوزقها وكثيرا ما يجعلها تتخبط في بكاء موزم وهى مستلقية في أحضان زكى بعد انقضاء اللذة وراحت تهدي من إحساسها بالذنب بالإكثار من عمل الخير عن طريق الكنيسة ومن هنا .. ما أن مات "برعى" الفرائش القديم لمكتب زكى حتى ألحت عليه في توظيف أبسخرون (الذي كان اسمه موضوعا على قائمة المساعدة في الكنيسة) وهامو أبسخرون ، يقف مطرقا منكشأ كالفار فى أول لقاء مع زكى بك الذي أصيب بخيبة أمل من مظهره الرث وساقه المبتورة وعكازيه اللذين يطبعانه بسمت الشحاذين فقال لصديقتة سناء ساخرا بالفرنسية:

- لكتني يا عزيزتي أدير مكتباً وليس
جمعية خيرية

وظلت هي تستعطفه وتتدلّل عليه حتى قبل على
مضض في النهاية استخدام أبسخرون وفي ذهنه أن
يرضيها بضعة أيام ثم يطرده بعد ذلك لكن هيهات.. فقد
أثبت أبسخرون من اليوم الأول كفاءة نادرة: قدرة فذة على
العمل الشاق المتصل حتى أنه كان يطلب كل يوم إلى البك
إضافة أعمال جديدة إلى قائمة مهامه وذكاء حاد ولباقة
وكياسة تجعله دائماً يسدّد التصرف في مكثه الصحيح وقدرة
على الكتمان المطلق فهو لا يرى ولا يسمع ما يحدث أمامه
ولو كان جريمة قتل.. وبفضل هذه المزايا العظيمة لم تمض
بضعة أشهر حتى كان زكى بك لا يستغنى عن أبسخرون
ساعة واحدة حتى أنه صنع جرساً جديداً في مطبخ الشقة
يستدعيه به عندما يريدّه وأجزل له المرتب وسمح له
بالمبيت في المكتب (وهذه لم يفعلها مع أحد قبله) وقد فهم
أبسخرون طبع البك من اليوم الأول وعرف أن سيّده مدلل
ولاه وصاحب نزوات وأحوال وقلما يخلو رأسه من أثر
المكيفات وهذا النوع من الرجال (طبقاً لتجربة أبسخرون
العريضة في الحياة) سريع الغضب حاد الطباع لكنه نادراً
ما يؤذى وأقصى ما يناله المرء منهم تعنيف وتوبيخ وقد ألى
أبسخرون على نفسه ألا يجادل سيّده أو يراجعه فيما يريد

أبدا بل وأن يبادره دائما بالاعتذار والتوسل حتى يكسب وده وهو لا يخاطبه أبدا إلا بلفظ "سيادتك" يضعه في أية جملة ينطق بها فإذا سأله البك مثلا : "كم الساعة الآن ؟!.." ستكون إجابة أبسخرون : "..سيادتك .. الساعة خامسة ..!!" .. والحق أن تكيف أبسخرون مع عمله في المكتب يبدو كظاهرة بيولوجية على نحو ما ، ففي وسط الظلمة الهادئة التي تعم الشقة في ساعات النهار وتلك الرائحة العطنة العتيقة الناتجة عن اختلاط رائحة الأثاث القديم بالرطوبة برائحة الفنيك المركز الذي يأمر البك باستعماله في تنظيف الحمام ، في ذلك "الوسط" ، عندما يبرز أبسخرون من أحد أركان الشقة بعكازيه وجلبابه المتسخ دائما ووجهه العجوز البانس وابتناسمته المنزلفة ، يبدو حينئذ وكأنه كان ينشط في مجاله الطبيعي (كالمسك في الماء أو الحشرات في البالوعة) بل انه عندما يخرج من عمارة يعقوبيان لسبب ما و يمشي في الشارع المشمس وسط المارة وضجيج السيارات يبدو شكله عندئذ غير مألوف واستثنائي (وكانه وطواط في وضوح النهار) ولا يستعيد تناسقه إلا إذا عاد إلي المكتب حيث قضى عقدين من الزمان كامنا في الظلمة والرطوبة .. على أننا لا يجب أن ننخدع فنعتبر أبسخرون مجرد خادم مطيع فالحق أنه أكثر من ذلك بكثير وخلف مظهره الضعيف الخانع تكمن إرادة

قوية وأهداف محددة يقاتل ببسالة وعناد من أجل تحقيقها وهو إلى تربية بناته الثلاث وتعليمهن قد أخذ على عاتقه العناية بأخيه الأصغر ملاك وعياله أيضا من هنا نفهم ما يفعله كل مساء عندما ينفرد بنفسه في حجرته الصغيرة ويخرج من جيب الجلباب مكسب النهار، كل الفروش والأوراق المالية الصغيرة المطوية المبللة بالعرق، سواء التي حصل عليها كقبضيش مباشر أو تلك التي نجح في اختلاسها من مشتريات المكتب .. (وتعد طريقة أسخرون في السمسة نموذجاً للتحايل البارع الدقيق فهو لا يبالغ في أسعار ما يشتريه كما يفعل الهواة لأن الأسعار معروفة أو قابلة للمعرفة في أية لحظة لكنه، مثلاً، يختلس من البن والشاي والسكر قدرًا صغيراً يومياً يستحيل ملاحظته ثم يعيد تغليف التموين المسروق في باكاوات جديدة ويعيد بيعها لزكّي بك مع تقديم فوائير حقيقية يحصل عليها باتفاق خاص مع السني البقال في شارع معروف) ..

.. في المساء قبل أن يأوي إلى فراشه، يعد أسخرون نقوده مرتين بعناية ثم يخرج القلم الكوبية الصغير الذي يضعه دائماً خلف أذنه ويكتب رصيد مكسبه وي طرح منه جزء الادخار (الذي سيضعه في دفتر القوفير يوم الأحد ولن يمسه بعد ذلك أبداً) ثم يسدد في دهنه من باقي الرزق احتياجات أسرته الكبيرة وسواء تبقى له شيء بعد ذلك أو لم

يَتَّبِقُ فَإِنَّ أَيْسَخْرُونَ ، الْمَسِيحِي الْمُؤْمِن ، لَا يُمْكِنُ أَنْ
يَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَلَّ صَلَاةَ الشُّكْرِ لِلرَّبِّ وَفِي سَكُونِ اللَّيْلِ يَتَرَدَّدُ
صَوْتُهُ وَهُوَ يَهْمِسُ بِوَرَعٍ صَادِقٍ أَمَامَ تُمَثَالِ يَسُوعَ
المَصْلُوبِ المَعْلُوقِ عَلَى حَائِطِ المَطْبَخِ : " ... لِأَنَّكَ يَا سَيِّدِي
أَطْعَمْتَنِي وَأَطْعَمْتَ أَوْلَادِي فَأَنَا أَحْمَدُكَ تَمَجِّدُ اسْمَكَ فِي
السَّمَاوَاتِ .. آمِينَ "

• • •

كَلِمَةٌ ، لَا بُدَّ مِنْهَا ، عَنْ مَلَكَ
تَخْتَلِفُ أَصَابِعُ اليَدِ فِي الشَّكْلِ لَكِنَّهَا تَتَحَرَّكُ كُلُّهَا
بِتَنَاسُقٍ لَتُؤَدِيَ مَهْمَةً مَا .. وَفِي المَلْعَبِ ، يَرْمِلُ لَاعِبُ
الْوَسْطِ الكُرَةَ بِمُنْتَهَى الدَّقَّةِ لَتَسْقُطَ أَمَامَ قَدَمِ المَهَاجِمِ فَيَسْجُلَ
مِنْهَا الِهْدَفَ .. هَكَذَا تَمْضِي عِلَاقَةُ أَيْسَخْرُونَ بِأَخِيهِ مَلَكَ فِي
تَقَاغُمٍ رَانِعٍ .. تَعْلَمُ مَلَكَ التَّفْصِيلِ فِي وَرْشِ القَمَصَانِ مِنْذُ
الصِّغْرِ فَلَمْ يَتْرَكَ عَلَيْهِ الخِدْمَةَ فِي البَيْوتِ طَابَعِ الذَّلْ مِثْلَ
أَخِيهِ ، وَالحَقُّ أَنَّهُ بِقَامَتِهِ القَصِيرَةِ وَبَدَلَتِهِ الشَّعْبِيَّةِ الدَاكِنَةِ
وَكُرْمِهِ الضَّخْمِ وَوَجْهِهِ المَكْتَنَزِ المَفْتَقَرِ إِلَى الوَسَامَةِ يَتْرَكَ
فِي النَفْسِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ انْطِبَاعًا غَيْرَ مَرِيحٍ لَكِنَّهُ يَسْرِعُ فَيُبَادِرُ
أَيَّ شَخْصٍ يَلْقَاهُ بِابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ وَيَصَافِحُهُ بِحَرَارَةٍ وَيُحَدِّثُهُ
بِحَمِيمِيَّةٍ وَيَمْتَدِّحُهُ وَيَحْتَرِّمُهُ وَيُؤَافِقُهُ عَلَى أَرَانِهِ جَمِيعًا

(مادامت لاتمس مصالحه الحيوية) ثم يدعو بالحداح إلى
 مسجارة كلوباترا (من علبته المجددة التي يخرجها من
 جيبه بحرص ويتأكد في كل مرة من سلامتها وكأنها
 جوهرة) .. على أن هذا اللطف البالغ له جانب آخر فإذا لزم
 الأمر يتحول ملك ، فوراً ، بكل سهولة ، إلى اللبذاء الكاملة
 الجديرة بشخص مثله تلقى معظم تربيته الأساسية في
 الشارع .. ولأنه يجمع بين النقيضين : الشراسة والجبن ..
 الرغبة العنيفة في إيذاء الخصوم والخوف البالغ من
 العواقب، فقد تعود في معاركه أن يهجم بأقصى ما يسمح به
 الموقف فإذا لم يجد مقاومة أمعن في العدوان بلا أدنى رحمة
 وكأنه لا يعرف الخوف وإذا لقي مقاومة جديّة من خصمه
 انسحب فوراً لا يلوى على شيء .. كل هذه المهارات العالية
 لملك تضاف إلى حكمة أسخرون ودهانه فيعمل الاثنان معاً
 بتناسق تام ويأتیان بالعجب العجائب والحق يقال .. وقد أراد
 الأخوان الحصول على حجرة فوق السطح فخططا ودبرا
 للأمر شهوراً طويلة حتى حانت اليوم ساعة التنفيذ وما أن
 دخلت رباب عند زكي بك حتى وقف أسخرون على عتبة
 الباب وانحنى وقال بابتسامة خفيفة مازحة : * سيادتك ..
 أستأذن في مشوار بسرعة ؟! .. * وقبل أن يكمل الجملة أشار
 له اليك (المنهمك مع عتيقته) أن يذهب فأغلق الباب برفق
 وبدا وهو يضرب بعكازه الخشبي بلاط الردهة وكأنه يغير

وجبهه ، اختفت الابتسامة الذليلة المتوسلة وظهر بدلا منها تعبير جاد قلق .. اتجه أبسخرون إلى المطبخ الصغير بجوار مدخل الشقة وتطلع حوله في حذر ثم شب لأعلى مستندا إلى العكاز حتى استطاع أن ينتزع برفق صورة العذراء المعلقة على الحائط وكان وراءها كوة دس يده فيها وأخرج بضغ رزم من الأوراق المالية الكبيرة قام بإخفائها بحرص في صديريته وجيوبه ثم خرج من الشقة بعدما أغلق وراءه الباب برفق واحكام .. وعندما وصل إلى مدخل العمارة استدار إلى اليمين بعكازه واقترب من حجرة البواب وسرعان ما ظهر أخوه ملاك الذي كان ينتظره ، تفاهم الأخوان بنظرة واحدة وبعد دقائق كانا يذرعان شارع سليمان باشا في طريقهما إلى نادى السيارات لمقابلة فكرى عبد الشهيد المحامى وكيل عمارة يعقوبيان . كانا قد أعدا لهذا اللقاء وتحدثا عنه على مدى شهر بحيث لم يعد لديهما ما يقولانه فمضيا صامتين إلا أن أبسخرون أخذ يتمتم بالأدعية للعذراء ويسوع المخلص حتى يوفقيهما في المهمة أما ملاك فكان يكدح ذهنه لاختيار العبارات المؤثرة التي يبدأ بها الحديث مع فكرى بك ، كان قد قصى الأسابيع الأخيرة في جمع المعلومات عنه فعرف أنه يصنع أي شئ مقابل المال وأنه يحب الخمر والنسوان فذهب للقاءه في مكتبه بشارع قصر النيل وأهداه زجاجة ويسكي من نوع

الأول بار " الفاخر قبل أن يفتحه في موضوع الغرفة الحديدية في مدخل السطح التي خلت بموت عطيه بانع الجران الذي عاش ومات وحيدا فالت حجرة إلى صاحب العمارة وكان ملاك يحلم بهذه الحجرة ليفتحها كمحل قصان بعد ما تجاوز الثلاثين وهو صبي ينتقل من محل إلى محل حسب الظروف .. ولما فاتحه في الموضوع طلب فكرى بك مهلة ليفكر وبعد إلحاح من ملاك وأخيه وافق على إعطائهما الحجرة مقابل مبلغ ستة آلاف جنيه لا ينقصون جنيتها واحدا وحدد لهما موعدا في نادي السيارات حيث تعود أن يتناول غداءه كل أحد .. وصل الأخوان إلى النادي وأحس أسخرون برهبة من فخامة المكان وراح يتطلع إلى الرخام الطبيعي الذي يغطي الجدران والأرضية وذلك البساط الأحمر اللوثير الممتد إلى حيث المصعد وكأنما شعر به ملاك فضغط على ذراعه مشجعا ثم تقدم وصافح بواب النادي بحرارة وسأله عن فكرى عبد الشهيد وكان ملاك ، تحسبا لهذا اليوم ، قد تعرف إلى عمال نادي السيارات خلال الأسبوعين الماضيين واكتسب ودهم بأحاديث لطيفة مجاملة وبعض الجلابيب البيضاء قدمها لهم هدايا ، من هنا تسابق السفرجية والعمال إلى الترحيب بالأخوين وقادوهما إلى المطعم في الدور الثاني حيث كان فكرى بك يتناول الغداء مع صديقة له بيضاء وبديعة ، ثم

يكن يليق بالطبع أن يقتحم الأخوان على البك جلسته
فيما إليه من أخبره بوجودهما وانتظراه في حجرة جانبية
منعزلة ولم تمض دقائق حتى ظهر فكرى عبد الشهيد بجسده
البدين وصلعته الفسيحة ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة
كالأجانب وبدا لهما فوراً أنه قد أسرف في الشراب من
احمرار عينيه وثقل خفيف في النطق وبعد التحيات
والمجاملات بدأ أبسخرون فاصلاً طويلاً في مديح البك
وطيبة قلبه وتمثله ليسوع المخلص في كل تصرفاته ، ظل
يحكي (وأخوه ملاك ينصت متظاهراً بالانبهار) كيف أن
البك يعفى كثيراً من موكلية من أتعاب القضايا إذا تأكد له
أنهم مظلومين وفقراء يعجزون عن الدفع ..

- " تعرف يا ملاك ماذا يقول فكرى بك للموكل
الفقير إذا حاول أن يدفع مالا ؟ " .. هكذا سأل أبسخرون
وسرعان ما أجاب نفسه : " يقول له .. اذهب واسجد شكراً
للسيد المسيح لأنه دفع لي أتعاب قضيتك بالكامل .. ! " ...
مصمم ملاك شفته وعقد يديه على بطنه البارز وأطرو
وقد بدا عليه التأثر البالغ وقال : " هكذا يكون المسيحي
الحقيقي " لكن فكرى بك برغم سكره كان منبهاً لمسار
الحديث ولم يسترح كثيراً للمعنى الكامن في كلامهما فقال
بلهجة جادة ليحسم الأمر : هل أحضرتما المال كما اتفقنا ؟!
.. صاح أبسخرون " طبعاً يا سعادة البك وأضاف وهو

يناوله ورقتين " هاهو العقد كما اتفقنا سيادتك والرب
 يبارك " ثم دس يده في صديريته ليخرج النقود ، كان قد
 أحضر الستة آلاف المتفق عليها لكنه وزعها في أنحاء ثيابه
 ليحتفظ لنفسه بهامش للمناورة وقد بدأ بإخراج أربعة آلاف
 جنيه ومد يده بهم إلى البك الذي صاح غاضبا : ما هذا ..
 أين الباقي ؟! " .. وهنا اندفع الأخوان في نفس واحد ،
 وكأنهما ينشدان مقطوعة ، أخذتا يتوسلان معا : أبسخرون
 بصوته اللاهث المحشرج المبحوح وملاك بصوته العالي
 الرفيع الحاد وتداخلت كلماتهما بحيث لم تعد مفهومة لكنهما
 في المجمل ، كانا يستدران عطف البك بالحديث عن فقرهما
 وأنهما والمسيح الحي قد استدانا المبلغ ولا يستطيعان
 بالأمانة أن يدفعا أكثر من ذلك على أن فكرى بك لم يلبس
 لحظة بل ازداد غضبه وقال : " دا لعب عيال .. ما ينفعنش
 الكلام دا " واستدار ليعود إلى المطعم لكن أبسخرون الذي
 كان يتوقع هذه الحركة ألقى بنفسه ناحية البك بقوة لدرجة
 أنه ترنح وكاد يقع ثم بحركة خاطفة أخرج من جيب الجلباب
 رزمة إضافية بألف جنيه ودمسها مع الرزم الأخرى في جيب
 البك الذي برغم غضبه لم يبد مقاومة جدية وترك المال
 يندس في جيبه ، وكان لابد لأبسخرون عندئذ من أن يبدأ
 فاصلا آخر من الاستعطاف حاول أثناءه تقبيل يد البك أكثر
 من مرة ثم أنهى توسله الحار بحركة خاصة كان يدخرها

للضرورة إذ مال بجذعه للوراء فجاء ثم جذب بيديه
 الاثنين جلبابه القذر المهترء فبانت سافه المقطوعة
 المتصلة بالجهاز التعويضي ذي اللون الداكن الكيب وصرخ
 بصوت مبجوح منقطع يبعث على الشفقة : يا سعادة البك
 ربنا يخلي لك أولادك .. أنا عاجز يابك ورجلي مقطوعة ..
 عاجز وفي رقبتى كوم لحم وملاك يبصر ف على أربعة
 عيال وأمهم .. لو بتحب السيد المسيح يابك ماترجعنى
 مكسور خاطر .. كانت هذه فوق ما يحتمل فكرى بك
 وبعد قليل كان الثلاثة جالسين يوقعون العقد : فكرى عبد
 الشهيد المغناظ من تعرضه لابتزاز عاطفى كما أسماه بعد
 ذلك وهو يحكى ما حدث لصديقه وملاك الذي كان يفكر
 في الخطوات الأولى التي سينفذها في حجرته الجديدة فوق
 السطح أما أبسخرون ، فقد احتفظ على وجهه بأخر تعبير
 مزئى : نظرة منكسرة حزينة وكأنه قد غلب على أمره
 وتكلف فوق طاقته بكثير ، لكنه فى داخله كان سعيدا من
 أجل توقيع عقد الحجرة وأيضا لأنه استطاع بمهارته أن ينقذ
 رزمة بالف جنيه كان يستشعر دفاها اللذيذ فى جيب جلبابه
 الأسير ..

. . .

ظلت وسط البلد - لمانة عام على الأقل - المركز
 التجارى والاجتماعى للقاهرة حيث تقع اكبر البنوك

والشركات الأجنبية والمحال التجارية وعيادات ومكاتب مشاهير الأطباء والمحامين ودور السينما والمطاعم الفاخرة ولقد شيدت النخبة القديمة في مصر وسط البلد لتكون الحي الأوروبي للقاهرة حتى أنك في كل العواصم الأوروبية ستجد شوارع تشبهها .. نفس الطراز المعماري والمسحة التاريخية العريقة ، وظلت وسط البلد حتى مطلع الستينيات محتفظة بطابعها الأوروبي الخالص والمخضرمون لاشك يذكرون تلك الأنافة.. فلم يكن من اللائق أبدا أن يتجول أبناء البلد بجلايبهم في وسط البلد ويستحيل قبولهم بهيئتهم الشعبية تلك في مطاعم مثل جروبي والأمريكيين والأونيون أو حتى سينما مترو وسان جيمس وراديو وغيرها من الأماكن التي كان ارتيادها يقتضي ارتداء البذل الكاملة للرجال وفساتين السهرة للنساء وكانت المحلات جميعا تغلق أبوابها يوم الأحد وفي الأعياد المسيحية الكاثوليكية مثل الكريسماس ورأس السنة كانت وسط البلد تزدهن عن آخرها وكانها في عاصمة غربية فتتألق الواجهات الزجاجية بتهاني العيد المكتوبة بالفرنسية والإنجليزية وأشجار السابان SAPINS والدمى التي تمثل بابا نويل وتزدحم المطاعم والبارات بالأجانب والأرستقراطيين الذين يحتفلون بالشراب والغناء والرقص وحفلات وسط البلد دائما بالبارات الصغيرة حيث يستطيع الناس في أوقات الراحة والعطلات أن يتناولوا بضغ كنوس

وأطباق شهية من المزة بسعر معقول ، وكانت بعض
 البارات في الثلاثينيات والأربعينيات تقدم مع الشراب
 عروضاً صغيرة مسلية لعازف يوناني أو إيطالي أو فرقة
 من راقصات أجنبيات يهوديات ، وحتى نهاية الستينيات كان
 في شارع سليمان باشا وحده ما يقرب من عشرة بارات
 صغيرة ثم جاءت السبعينيات فبدأت وسط البلد تفقد أهميتها
 شيئاً فشيئاً وانتقل قلب القاهرة إلى حيث تعيش النخبة الجديدة
 في المهندسين ومدينة نصر ، واجتاحت المجتمع المصري
 موجة كاسحة من التدين فلم يعد من المقبول اجتماعياً أن
 تشرب الخمر واستجابت الحكومات المصرية المتعاقبة إلى
 الضغط الديني (ولعلها زادت سياسياً على التيار الإسلامي
 المعارض لها) فقصرت بيع الخمر على الفنادق والمطاعم
 الكبرى وامتنع عن إصدار تراخيص لبارات جديدة وفي
 حالة موت صاحب البار (الأجنبي غالباً) تقوم الحكومة
 بإلغاء ترخيص البار وتشرط على الورثة تغيير النشاط ..
 كل هذا بالإضافة للحملات البوليسية الدائمة على البارات
 حيث يقوم الضباط بتفتيش رواد البار والإطلاع على
 بطاقاتهم واصطحابهم أحياناً إلى القسم بغرض التحري عنهم
 .. وهكذا ، بحلول الثمانينيات ، لم يبق في وسط البلد كلها
 سوى بضعة بارات صغيرة متناثرة استطاع أصحابها
 الصمود في وجه المد الديني والاضطهاد الحكومي وتم ذلك

بطريقتين : التخفي والرشوة .. فلم يعد أى بار في وسط
البلاد يعلن عن وجوده بل صارت كلمة بار في اللافعات
تستبدل بكلمة مطعم أو كافى شرب وتعهد أصحاب البارات
ومستودعات الخمر أن يطلوا زجاج محلاتهم بلون داكن لا
يظهر ما يجرى بالداخل أو يضعوا في واجهاتها مناديل
ورقية أو لية بضاعة أخرى لاتتم عن نشاطهم الحقيقي ولم
يعد مسموحا لأي زبون بأن يشرب الخمر على الرصيف
أمام البار أو حتى أمام نافذة مفتوحة تطل على الشارع
واتخذت احتياطات مشددة بعدما تم إحراق عدة محلات
للخمر على أيدي شبان متعين للتيار الإسلامي ومن ناحية
أخرى تعين على أصحاب البارات القليلة الباقية أن يدفعوا
رشاوى كبيرة منتظمة لضباط المباحث التابعين لهم
وللمستولين في المحافظة حتى يسمح لهم هؤلاء بالاستمرار
، وبما أن بيع الخمر المحلية الرخيصة لا يحقق لهم من
الدخل ما يكفي لدفع الرشوة فقد وجد أصحاب البارات
لأنفسهم مضطرين إلى إيجاد " طريقة أخرى " لزيادة الدخل
فاتجه بعضهم إلى تسهيل الدعارة عن طريق استعمال
الساقطات في تقديم الخمر (كما حدث في بار كايرو في
التوفيقية وبار ميدو وبار بومسي كات في عماد الدين) واتجه
البعض الآخر إلى تصنيع الخمر في معامل بدائية بدلا من
شرائها من أجل مضاعفة الأرباح ، كما حدث في بار

هالجيان في شارع الانتكخانة وبار جامايكا في شارع شريف وقد أدت هذه الخمر المصنعة ، الرديئة : إلى حوادث اليمّة أشهرها ما حدث لفنان تشكيلي شاب فقد بصره اثر تناوله لبراندي فاسد في بار هالجيان وأمرت النيابة العامة حينئذ بإغلاق البار لكن صاحبه استطاع بعد ذلك أن يعيد فتحه بالطرق المعروفة.. وهكذا، لم تعد البارات الصغيرة المتبقية في وسط البلد أماكن رخيصة ونظيفة للترفيه كما كانت في السابق بل ، نارت أوكارا سينة الإضاءة والتهوية يرتادها زبائن من الرعاع والمشبهين في أغلب الأحوال ..مع وجود استثناءات نادرة لهذه القاعدة مثل بار مكسيم في العمر ما بين شرعي قصر النيل وسليمان باشا وبار شينو الذي يقع تحت عمارة يعقوبيان

• • •

شينو chez nous كلمة فرنسية معناها " في بيتنا " ينخفض المكان عن مستوى الشارع ببضع درجات ، الإضاءة خافتة ظليلة حتى أثناء النهار بفضل الستائر السمكة والبار الكبير إلى اليسار والموائد المترامية على شكل " بنشات " من الخشب الطبيعي المطلي بلون غامق ، الفوانيس العتيقة على طراز فيينا والأعمال الفنية المنحوتة

من الخشب والبرونز المعلقة إلى الحائط والكتابة اللاتينية على المفارش الورقية وأكواب البيرة الضخمة ، كل ذلك يعطى البار شكل البب pub الإنجليزي وفي الصيف ما أن تذهب إلى بار شينو تاركاً وراءك شارع سليمان باشا بضوضائه وحره وزحامه وتجلس لتحتسى الجعة المثلجة وسط السكون والتكليف القوى والإضاءة الخافتة المريحة .. حتى تشعر فوراً وكأنك " اختبأت " من الحياة اليومية بمعنى ما ، هذا الإحساس بالخصوصية أكثر ما يميز بار شينو الذي اشتهر أساساً كمكان للقاء الشواذ جنسياً (وقد قدم بهذه الصفة على أكثر من دليل سياحي غربي) .. صاحب البار اسمه عزيز وشهرته الإنجليزي (ولقب بذلك لأنه يشبه الإنجليزي ببشرته البيضاء وشعره الأصفر وعينه الزرقاوين) وهو مصاب بالشذوذ ويقولون انه رافق الخواجه اليوناني العجوز الذي كان يملك البار فأحبه ووهبه المحل قبل وفاته ، ويشيعون أيضاً انه ينظم حفلات ماجنة يقدم فيها الشواذ إلى السياح العرب وأن دعارة الشواذ تدر عليه أرباحاً طائلة يدفع منها رشاوى جعلته في مأمن تام من المضايقات الأمنية ، وهو يتمتع بحضور قوى ولباقة وتحت إشرافه ورعايته يلتقي الشواذ في بار شينو فيعقدون الصداقات ويتحررون من الضغوط الاجتماعية التي تمنعهم من الإعلان عن ميولهم ... وأماكن الشواذ مثل غرز

الحشيش وأوكار القمار ينتمي روادها إلى مستويات
 اجتماعية وأعمار متفاوتة فتجد بينهم الحرفيين والمهنيين
 والشباب والمسنين وقد وجد الشذوذ بينهم جميعا .. كما أن
 الشواذ ، مثل الهجامين والنشالين وكل الطوائف الخارجة
 على القانون أو العرف ، يصطنعون لأنفسهم لغة خاصة
 تمكنهم من التفاهم وسط الناس بطريقة لا يفهمها سواهم ،
 فالشاذ السلبي يسمونه " كوديانا " ويطلقون عليه اسما مؤنثا
 يعرف به وسطهم مثل سعاد وانجي وفاطمة الخ .. والشاذ
 الإيجابي يسمونه " برغل " وإذا كان رجلا جاهلا وبسيطا
 يسمونه " برغل ناشف " والممارسة الشاذة يسمونها " وصلة " .
 وهم يتعرفون إلى بعضهم البعض ويتبادلون حوارا سريا
 بواسطة حركات الأيدي فإذا ضغط أحدهم على يد الآخر
 وداعب بإصبعه معصمه أثناء المصافحة فمعنى ذلك أنه
 يشبهه وإذا قرب الشاذ بين إصبعي اليدين وحركهما أثناء
 الحديث فمعنى ذلك دعوة محدثه إلى " وصلة " وإذا أشار إلى
 قلبه بإصبع واحد فهو يقصد أن رفيقه قد ملك عليه قلبه
 وهكذا .. وبقدر ما يحرص عزيز الإنجليزي على راحة
 زبائن شيفو وانبساطهم إلا أنه في نفس الوقت لا يسمح
 بالحركات الخارجة بينهم ، ومع تقدم الليل وإسراف الرواد
 في الشراب تعلو أصواتهم وتحدث وتتداخل إذ تتملكهم دائما
 الرغبة في الحكى (كما يحدث في البارات جميعا) لكن

المكاري في شينو تستبد بهم الشهوة مع النشوة ويتبادلون
كلمات الغزل والنكات القبيحة وقد يمد أحدهم أصابعه
للداعب بها جسد صديقه وهنا يتدخل الإنجليزي فوراً
ويستعمل كل الطرق لفرض النظام بدءاً من الهمس المهذب
وحتى التهديد بطرد الزبون المشاغب من البار وكثيراً ما
ينفعل الإنجليزي حتى يتضرج وجهه ويعنف الشاذ الذي
هاجت شهوته قائلاً:

- اسمع .. ماأمت قاعد عندي احترم نفسك وإذا
كان صاحبك عاجبك قم روح معه إنما إياك تمد يدك عليه
في البار ..

وصرامة الإنجليزي هنا لا ترجع بطبيعة الحال إلى
حرصه على للفضيلة لكنها حسابات الربح والخسارة ،
فضباط المباحث كثيراً ما يزورون البار .. صحيح أنهم
يكتفون بإلقاء نظرة سريعة من بعيد ولا يزعمون للرواد أبداً
(والفضل في ذلك للرشاوى الكبيرة التي يقبضونها) لكنهم
لو رأوا فعلاً فاضحاً في البار لأقاموا الدنيا وأقعدها إذ
تكون هذه فرصتهم لابتزاز الإنجليزي حتى يدفع أكثر ...

• • •

قَبِيلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ انْفَتَحَ بَابُ الْبَارِ وَظَهَرَ حَاتِمُ

رشيد ومعه شاب أسمر في العشرينات يرتدى ملابس بسيطة وشعره حليق على طريقة الجنود ، كان الحاضرون قد سكروا وعلا صياحهم وغناؤهم لكنهم ما أن دخل حاتم حتى هدا ضجيجهم وأخذوا يتأملونه بفضول وشيء من الرهبة ، كانوا يعرفون أنه "كوديانا" لكن حاجزا صارما طبيعيا كان يمنعهم من رفع الكلفة معه حتى أن أكثر الرواد وقاحة ومجونا لم يكن يملك إلا معاملته باحترام والأسباب كثيرة : فالأستاذ حاتم رشيد صحفي معروف ورئيس تحرير جريدة له كير LECAIRE التي تصدر باللغة الفرنسية في القاهرة وهو أرستقراطي عريق والدته فرنسية ووالده الدكتور حسن رشيد القانوني الشهير وعميد كلية الحقوق في الخمسينيات أضف إلى ذلك أن حاتم من الثوادر المحافظين (إن صح التعبير) : لا يبتذل نفسه ولا يضع مساحيق على وجهه أو يتأرد بطريقة مثيرة كما يفعل كوديانات كثيرون .. وهو في مظهره وسلوكه يقف دائما ببراعة ما بين الأناقة الفاعمة والتخنث .. فبدلته الليلة مثلا حمراء قانية بلون النبيذ وقد عقد حول رقبته النحيلة ايشاربا أصفر دس معظمه تحت قميص وردي من الحرير الطبيعي يتدلى طرفا ياقته العريضة على صدر السترة وبدا بأناقته وقده الرشيق وملامحه الفرنسية الدقيقة أشبه بنجم سينمائي متألق لولا التجاعيد التي تركتها على وجهه الحياة الصاخبة وذلك

الأربداد الغامض الكريمة البائس الذي يغلف دائماً
وجوه المشواذ ، وقد تقدم منه عزيز الإنجليزي مرحباً
فصافحه حاتم بود و مد يده برشاقة ناحية صديقه الشاب
قائلاً :

- عبد ربه صديقي .. مجند في الأمن المركزي
- يا أهلاً وسهلاً ..

هكذا قال عزيز مبتسماً وهو يتفحص جسد الشاب
القوى المقتول ثم قاد الضيفين إلى منضدة هادئة في آخر
البار وتلقى الطلبات : كأس من الجين تونيك لحاتم وزجاجة
بيرة مستوردة لعبد ربه مع بعض الميزات الساخنة .. شينا
فشينا انصرف الرواد عن الاهتمام بهما واستأنفوا الحديث
والضحك الصاخب وبدأ الصديقان وكانهما يخوضان نقاشاً
طويلاً ومضنياً ، يتكلم حاتم بصوت خفيض وهو ينظر إلى
صديقه محاولاً إقناعه لكن عبد ربه يستمع بغير تعاطف ثم
يرد بحدة فيصمت حاتم لحظة مطرقاً ويستأنف المحادثة ..
جری الحديث على هذا المنوال ما يقرب من نصف ساعة
شرب خلالها الرفيقان زجاجتين وثلاث كنوس وفي النهاية
عاد حاتم بظهره إلى مسند المقعد ووجه نظره عميقة إلى
عبده :

- دا رأيك النهائي ؟!

ورد عبده بصوت عال وكانت الخمر تؤثر فيه

- أيوه..

- يا عبده تعال معي الليلة والصباح نتفاهم

- لا..

- من فضلك يا عبده

- لا..

- طيب.. ممكن نتفاهم بهدوء ؟!.. بلاش طبعك

الخامس ده ..

هكذا همس حاتم بدلال وهو يلمس بأصابعه يد

صديقه الضخمة المبسوطة على المائدة وبدا هذا الإلحاح

خائفا لعبده فجذب يده وزفر قائلاً بضيق :

- قلت لك لا يمكن أبيت معك .. أنا تأخرت ثلاث

مرات الأسبوع الماضي من تحت رأسك .. الضابط

يحاولني على التأديب

- ولا يهمك .. أنا لقيت واسطة للضابط ...

- يوه ..

هكذا صرخ عبده في ضيق ودفع بيده كأس البيرة

فانقلب محدثاً دويًا رناناً ثم نهض من مكانه وهو يوجه نظرة

غاضبة إلى حاتم وأسرع إلى باب الخروج فأخرج حاتم

من حافظته بضع أوراق مالية وألقى بها على المنضدة ثم

هرع في اثر صديقه .. ولبضع لحظات ساد البار سكون ثم

انطلقت تعليقات السكارى

- برغل تايه يا ولاد الحلال

- ياميت ندامة على اللي حب ولاطالشي

- آه منك يا الزسي يا مخلصه فلوسي

ضح الحاضرون بالضحك واندفعوا يرددون أغنية
فاحشة بحماس وصوت مدوي حتى اضطر عزيز
الإنجليزي إلى التدخل لاعادة النظام .

• • •

مثل معظم المصريين القادمين من الريف كان محمد
السيد (مساعد الطباخ في نادى السيارات) يعانى من
بلهارسيا قديمة أدت به بعد ذلك إلى التهابات وفشل في الكبد
تسبب في موته ولما يبلغ الخمسين ، وتذكر ابنته الكبرى
بثينة ذلك اليوم من شهر رمضان بعدما تناولت الأسرة
الإفطار في شقتهم الصغيرة المكونة من غرفتين ودورة مياه
فوق سطح عمارة يعقوبيان ، قام أبوها ليؤدى صلاة المغرب
وفجأة سمعوا صوت شيء ثقيل يسقط على الأرض و تذكر
بثينة صرخة أمها بصوت ملئاع : " الحقوا ليوكم "
..هرعوا جميعا إليه .. بثينة وموسى وفاتن ومصطفى
الصغير ، كان الأب راقدًا على السرير في جلبابه الأبيض

وقد سكن جسده تماما واكتسى وجهه بلون لزررق
كاهي وعندما أحضروا طبيب الإسعاف (وكان شابا مرتبكا)
كشف عليه بسرعة ثم أعلن النيا الحزين فتصاعدت
صرخات البنات وراحت أمهن تلطم وجهها بقوة حتى
سقطت على الأرض ، كانت بثينة في ذلك الوقت تلميذة في
دبلوم التجارة وكانت لديها أحلامها للمستقبل التي لا تشك
لحظة في إمكانية تحقيقها : مستخرج وتزوج من حبيبها طه
المشاذلي بعد تخرجه في كلية الشرطة، سيسكنان ثقة فسيحة
لأنفة بعيدا عن السطح ويكتفيان بولد وبنت حتى يتمكنوا من
تربيتهما .. كانا متفقين على كل شيء لكن الأب مات فجأة
وانقضت فترة الحداد لترك الأسرة في العراء ، كان للمعاش
ضئيلا لا يكفي نفقات الدراسة والطعام والملابس وإيجار
المسكن وتغيرت الأم بسرعة ، لم تخلع السواد أبدا وهزل
جسدها وجف واكتسى وجهها بذلك الطابع الصارم الشانك
الرجولي الذي يعيز الأرامل الفقيرات وشيئا فشيئا صارت
ضيفة للصدر كثيرة التفاحن مع البنات حتى مصطفى
الصغير لم يسلم من ضربها وشتائمها وعقب كل مشاجرة
كانت الأم تستسلم لنوبة طويلة من البكاء ولم تعد تذكر
المرحوم بذلك العطف البالغ كما في الأيام الأولى
وانما صارت تتحدث عنه بنوع من المرارة وخيبة الأمل
وكانه قد خذلها بإرادته وتركها في هذه المحنة ثم بدأت

تختفي يومين أو ثلاثة في الأسبوع ، تخرج من الصباح
وتعود آخر النهار منهكة صامئة شاردة الذهن تحمل معها
أكياسا من الطعام المطبوخ المختلط (أرز وخضار وقطع
صغيرة من اللحم أو الفزاخ) تسخنه وتقدمه لهم ليأكلوه
ويوم أن نجحت بثينة وحصلت على الدبلوم انتظرت الأم
حتى هبط الليل ونام الجميع وخرجت معها إلى السطح ،
كانت ليلة صيفية حارة وثمة رجال يدخلون الجوزة
ويتسامرون وبعض النساء جالسات في الهواء الطلق هربا
من الحرارة في الغرف الحديدية الضيقة ، حيثهن الأم
وجذبت بثينة من يدها إلى ركن بعيد حيث وقفنا بجوار
السور وتذكر بثينة منظر السيارات والأضواء في شارع
سليمان باشا كما بدا تلك الليلة من فوق السطح ووجه أمها
العابس ونظراتها الصارمة المتفحصة وصوتها الأجرس
الغريب وهي تحدثها عن الهم الذي تركها المرحوم تكابده
وحدها وتخبرها بأنها تعمل في بيت ناس طيبين في الزمالة
وأنها تكتمت الأمر حتى لا يؤثر الأمر على زواج بثينة
وأخواتها في المستقبل (عندما يعلم الناس أن أمهم تعمل
خادمة) ثم طلبت الأم من بثينة أن تبحث لنفسها عن عمل
من الغد .. لم ترد بثينة وتأملت أمها قليلا وهي تشعر نحرها
بحنان جارف ثم مالت ناحيتها واحتضنتها وخطر لها وهي
تقبلها أن وجهها صار جافا خشنا وأن رائحة جديدة وغريبة

تتبعث من جسدها ، رائحة العرق الممتزج بالتراب التي
تفوح من أجساد الخدم ..

منذ اليوم التالي بذلت بثينة ما في وسعها لتعثر على
عمل وتنقلت خلال عام واحد بين أعمال عديدة : سكرتيرة
في مكتب محام ومساعدة كوافير حريمي وممرضة مبتدئة
في عيادة أسنان وتركت كل هذه الأعمال لنفس السبب بعد
أن تكررت نفس الحكاية :.. الترحاب الحار من صاحب
العمل ، ذلك الاهتمام البالغ المضطرم ثم الملاحظات والهدايا
والمنح المالية الصغيرة والتلميحات بالمزيد يقابل ذلك من
ناحيتهما الرفض المغلف باللفظ (حتى لا تخسر الوظيفة)
لكن صاحب العمل يستمر حتى يصل الأمر إلى مداه ، ذلك
المشهد الأخير الذي تكرهه وتخشاه والذي يحدث دائما :
عندما يصير الرجل الكبير على أن يقبلها عنوة في المكتب
الخالي أو يلتصق بها أو يشرع في فتح سرواله ليضعها أمام
الأمر الواقع فتدفعه بعيدا وتهدهد بالصراخ والفضيحة ،
عندئذ ينقلب ويكشف عن وجهه المنتقم فيطردها بعدما يسخر
منها باعتبارها "خضرة الشريفة" أو ربما يتظاهر بأنه كان
يختبر أخلاقها ويؤكد أنه يحبها مثل ابنته ثم يتحين الفرصة
(بعد زوال خطر الفضيحة) ويطردها بعد ذلك بأي سبب
آخر .. خلال هذا العام تعلمت بثينة أشياء كثيرة : عرفت
مثلا أنها تملك جسدا جميلا ومثيرا وأن عينيها العسليتين

الواسعتين ومشتفتيها المكتنزتين وصدرها العامر
ومؤخرتها المستديرة الرجراجة وردفيها الطريين ، كل هذه
مقومات مهمة في التعامل مع الناس وتأكد لها أن الرجال
جميعا مهما كان مظهرهم وقورا ومقامهم كبيرا ضعفاء
للغاية أمام امرأة جميلة ودفعها ذلك إلى عمل اختبارات
شريرة ومسلية فكانت إذا قابلت شيئا مسنا محترما يحلو لها
أن تختبره فترقق صوتها وتتاود وتبرز صدرها المكتنز ثم
تستمع فورا بمشهد الرجل الوقور وقد لان وتهدج وغامت
عيناه من الرغبة .. وكان تليف الرجال عليها يملؤها بلذة
أقرب إلى التنسفي والشماتة ، كما تأكد لها خلال هذا العام أن
أمرها تغيرت تماما فعندما تركت بثينة العمل بسبب تحرشات
الرجال استقبلت الأم الخير بصمت أقرب إلى الامتناع
وعندما تكرر الأمر قالت لبثينة مرة وهي تهض لتغادر
للحجرة : " اخوتك في حاجة إلى كل قرش من عملك والبنت
الشاطرة تحافظ على نفسها وشغلها .. " وأصابته هذه الجملة
بثينة بالحزن والحيرة وتساءلت في نفسها كيف أحافظ على
نفسي أمام صاحب شغل يفتح سرواله؟! " وظلت على
حيرتها أسابيع طويلة حتى ظهرت فيفي ابنة صابر الكواء
جارتهم في السطح التي عرفت بأن بثينة تبحث عن عمل
فجاءت تعرض عليها وظيفة بانعة في محل ثمن للملابس
وعندما أخبرتها بثينة بمشاكلتها مع أصحاب الشغل السابقين

شبهت فيفي وضربت صدرها وصاحت في وجهها مستكرة : "أنت عبيطة يا بت؟! ..أكدت لها فيفي أن أكثر من ٩٠% من أصحاب العمل يفعلون ذلك مع البنات العاملات لديهم وأن البنت التي ترفض تطرد وتأتى بدلا منها مائة بنت تقبل ولما همت بثينة بالاعتراض سألتها فيفي ساخرة : "حضرتك خريجة جامعة أمريكية إدارة أعمال؟! ..الشحاذون في الشارع معهم دبلوم تجارة مثلك !".

..أكدت لها فيفي أن مسابقة صاحب العمل "في حدود" تعتبر شطارة وأن الدنيا شئ وما تراه في الأفلام المصرية شئ آخر وأكدت أنها تعرف بنات كثيرات عملن سنوات في محل شنن وكن يستجبن لما يطلبه الأستاذ طلال صاحب المحل "في حدود" وقد صرن الآن زوجات سعيدات عندهن أولاد وبيوت وأزواج محترمون يحبوهم جدا..... "ولماذا نذهب بعيدا ؟ "هكذا سألت فيفي وضربت مثلا بنفسها فهي تعمل في المحل من عامين ومرتبها مائة جنيه لكنها تكسب ثلاثة أضعاف هذا المبلغ من "شطارتها" بخلاف الهدايا ومع ذلك لا زالت محافظة على نفسها وبنت بنوت والذي يتكلم عن سمعتها تضع أصابعها في عينيه وألف رجل يمتنى الزواج منها خصوصا وهي الآن تكسب وتعمل جمعيات وتذكر حتى تستطيع تجهيز نفسها .

في اليوم التالي ، ذهبت بثينة مع فيفي إلى الأستاذ

طلال في المحل فوجدته رجلاً جاوز الأربعين أبيض
 الوجه أزرق العينين أصلع وبدن وله أنف أفطس وشارب
 أسود ضخمة يتكلى على جانبي فمه . لم يكن طلال وسيما
 بالمرّة وعرفت بثينة أنه الابن الوحيد على بنات الحاج شهن
 السوري الذي جاء من سوريا أيام الوحدة واستقر في مصر
 وافتتح هذا المحل ثم تقدم به النعمر فعيد بتجارته إلى ابنه
 الوحيد ، وعرفت أيضاً أنه متزوج وأن زوجته مصرية
 جميلة أنجبت له ولدين وبرغم ذلك فإن نهمه للنساء
 لا ينتهي ، صافح طلال بثينة (واعتصر يدها) ولم يرفع
 عينه عن صدرها وجسدها وهو يحدثها وبعد دقائق تسلمت
 عملها الجديد ولم تمض بضعة أسابيع حتى علمتها فيفي ما
 يجب عليها عمله : كيف تعتني بمظهرها وتطلى أظافر يديها
 وقدميها وتفتح صدرها قليلاً وتضيّق خصر الفساتين لتحدد
 مؤخرتها وردفيها .. كان عليها في الصباح أن تفتح المحل
 وتمسحه مع زميلاتهن ثم تصلح هدامها وتقف على باب
 المحل (وهذه طريقة معروفة لاجتذاب الزبائن في محلات
 الملابس جميعاً) وعندما يجئ زبون يكون عليها أن تلاطفه
 وتلبى طلباته وتقنعه بشراء أكبر قدر من البضائع (ولها
 نصف في المائة من قيمة المبيعات) ويجب عليها طبعاً أن
 تتغاضى عن معاكسات الزبائن مهما كانت رذيلة . كان هذا
 بخصوص العمل أما "الموضوع الآخر" فقد بدأه الأستاذ

طلال في اليوم الثالث لمجئها . كانت ساعة العصر
والمحل خال من الزبائن وطلب منها طلال أن تصحبها إلى
المخزن لكي يشرح لها أنواع البضاعة ، تبعته بثينة صامتة
ولمحت ظل ضحكة ساخرة على وجهه فيفي وبقية البنات ،
كان المخزن عبارة عن شقة كبيرة في الدور الأرضي
بالعمارة المجاورة لمحل الأمريكيين في شارع سليمان باشا ،
ادخلها طلال وأغلق الباب من الداخل وتلفتت حولها : كان
المكان رطبا سيئ الإضاءة والتهوية ومتكدسا بصناديق
البضاعة المترصة حتى السقف وكانت تترك ما هي مقدمة
عليه وقد استعدت في طريقها إلى المخزن فراحت تستعيد
في ذهنها كلمات أمها " اخوتك في حاجة لكل قرش والبنات
الشاطرة تحافظ على نفسها وعملها معا " .. وحين اقترب
منها الأستاذ طلال انتابتها مشاعر قوية ومتضاربة : العزم
على أن تحسن استخدام الفرصة المتاحة والخوف الذي كان
برغم كل شيء يعتصرها ويجعلها تلهث وتشعر بما يشبه
الغثيان وكان هناك أيضا فضول خفي يلح على ذهنها لكي
تعرف كيف يتصرف الأستاذ طلال معها : هل يغازلها
ويقول لها أحبك مثلا أم يحاول تقبيلها مباشرة ؟! وجاءتها
الإجابة سريعا فقد انقض عليها طلال من الخلف ، احتضنها
بقوة ألمتها وأخذ يلتصق بها ويعبث في جسدها بغير أن
ينطق بكلمة واحدة ، كان عنيفا ومتعجلا للذة وانقضى الأمر

في نحو دقيقتين وتلوث ثوبها فهمس لها وهو يلهث :
 "الحمام في آخر الطريقة يمين " .. وفكرت وهي تغسل ثوبها
 بالماء أن الموضوع أبسط مما كانت تظن ، ثم أتت
 بالتصاق أحدهم بجسدها في الأتوبيس (الذي يحدث لها
 كثيرا) واسترجعت نصيحة فيفي لها عما يجب فعله بعد
 اللقاء فعادت إلى طلال وقالت بصوت حاولت قدر الإمكان
 أن يكون ناعما ومغريا : " أنا محتاجة عشرين جنيها من
 حضرتك " تأملها طلال للحظة ثم دس يده في جيبه بسرعة
 وكأنه كان يتوقع طلبها وقال بلهجة عادية وهو يناولها ورقة
 مالية مطوية

- " لا .. كفاية عشرة جنيه .. تعالى ورائي على
 المحل أول ما ينشف فستانك " .. ثم خرج وأغلق الباب
 وراءه.



المرّة الواحدة بعشرة جنيهات والأستاذ طلال يطلبها
 مرتين في الأسبوع وأحيانا ثلاثا وفيفي علمتها كيف تبدى
 إعجابها بفستان في المحل بين الحين والحين وتلح على
 طلال حتى يهديه إليها .. صارت تكسب وترتدي ثيابا جميلة
 ورضيت أمها واطمأنت للنقود التي تأخذها منها وتدسها في

صدرها ثم تدعو لها بحرارة ، وأمام الدعاء تستبد ببثينة
رغبة خبيثة غامضة تجعلها تلمح للآم بوضوح عن علاقتها
بطلال وتتجاهل الأم الرسالة فتنعن بثينة في التلميح حتى
يصير تجاهل الأم مكشوفاً وهشاً للغاية عندئذ تحص بثينة
براحة وكأنها تنزع عن أمها قناع البراءة المزيف وتؤكد
اشتراكها معها في الجريمة .. ومع الأيام بدأت لقاءاتها مع
طلال في المخزن تترك في نفسها أثراً لم تكن تتخيلها ، لم
تعد قادرة على أداء صلاة الصبح (الفريضة الوحيدة التي
تؤدّيها) لأنها في داخلها تخجل من مواجهة "ربنا" وتشعر
بأنها نجسة مهما توضأت وأخذت تتنابها كوابيس فتذهب من
النوم مفزوعة وتظل أياماً منقبضة وحزينة ويوم ذهبت مع
أمها لزيارة الحسين ، ما أن دخلت إلى المقام واحتواها
البخور والأنوار وأحست بذلك الحضور الخفي الراسخ الذي
يملا القلب حتى انفجرت في نوبة مفاجئة طويلة من
البكاء ..

لكنها ، من ناحية أخرى ، لم يعد بإمكانها التراجع
ولم تعد تحتمل شعورها بالإثم فبدأت تقاومه بصرامة .
أخذت تتذكر وجه أمها وهي تخبرها بأنها تخدم في البيوت
وتستعيد كلمات فيفي عن الدنيا وكيف تسير وكثيراً ما كانت
تأمل زبونات المحل من السيدات الثريات الأنبيات وتتساءل
بشغف خبيث : ترى كم مرة أسلمت هذه المرأة جسدها حتى

تَحصل على هذا المال ؟! .. هذه المقاومة العنيفة للشعور بالذنب أورثتها مرارة وقسوة فلم تعد تنق بالناس أو تلتبس لهم الأعذار وكثيرا ما تفكر (وتستغفر بعد ذلك) أن الله أراد لها السقوط ولوانه أراد غير ذلك لخلقها ثرية أو أجل وفاة أبيها بضعة أعوام (وما أسهل عليه أن يفعل) ثم شينا فشيننا تمتد نغمتها إلى حبيبها طه نفسه ، يتسلل إليها شعور غريب بأنها أقوى منه بكثير ، إنها ناضجة فهمت الدنيا وهو مجرد شاب حالم وساذج ، صارت تضيق بتنازله بالمستقبل وتحتد عليه وتسخر منه قائلة : " أنت فاكرك نفسك عبد الحليم حافظ .. الشاب الفقير المجتهد الذي سيحقق كل آماله بالكفاح " .. لم يكن طه يدرك سبب هذه المرارة ثم بدأ تهكمها عليه يستغزه فيشاجران وعندما طلب منها مرة أن تترك العمل عند طلال لأنه سيئ السمعة نظرت إليه بتحد وقالت : " امرك يا سيدي .. اعطني المائتين وخمسين جنيه الذين اكسبهم من طلال ولك على ألا اكشف وجهي على أحد غيرك " .. وحدث فيها لحظة وكأنه لا يفهم ثم اندلع غضبه ودفعها في كتفها فصرخت وشتمته ثم ألقت إليه بدبلة فضية كان قد اشتراها لها ، كانت في قرارة نفسها تنزق لتمزيق علاقتها به لكي تتحرر من ذلك الشعور الأليم بالإثم الذي يعذبها عندما تراه وفي نفس الوقت لم يكن بمقدورها أن تهجره تماما ، كانت تحبه وكان بينهما تاريخ طويل حافل

باللحظات الجميلة ، وما ان تراه حزينا أو قلقا حتى تنسى
 كل شئ وتغمره بحنان صادق جارف وكأنها أمه ومهما
 امتدت المشاجرات بينهما تصفح عنه وتعود إليه ولا يخلو
 امرها من لحظات صفاء نادرة ورائعة ولكن ما أسرع ما
 يعود الكدر ، ولقد قضت النهار بأكمله تلوم نفسها على
 فسوتها معه هذا الصباح ، كان يحتاج إلى كلمة تشجيع منها
 وهو مقدم على امتحان تعرف أنه انتظره أعواما طويلة ، ما
 أقساها حقا ، ما ضررها لو أنها شجعت بكلمة وابتسامة ، لو
 أنها قضيت معه بعض الوقت .. ووجدت نفسها بعد انتهاء
 العمل تسعى إلى لقائه فذهبت إلى في ميدان التوفيقية
 وجلست تنتظره على سور الحديقة حيث تعودا أن يلتقيا كل
 مساء ، كان الليل قد هبط والميدان مزدحم بالمارة والباعة
 وتعرضت وهي جالسة وحدها لمعاكسات كثيرة لكنها ظلت
 تنتظره ما يقرب من نصف ساعة فلم يأت وفكرت أنه لاشك
 غاضب منها لأنها صدته في الصباح فقامت وصعدت إلى
 حجريته فوق السطح ، كان باب الحجرة مفتوحا وأم طه
 تجلس وحيدة وقد بدا القلق على وجهها العجوز ، احتضنتها
 وقبلتها ثم أجلستها بجوارها على الأريكة وقالت :
 - أنا خائفة جدا يا بثينة .. طه خرج إلى الامتحان
 من الصبح ولمه ما عاد .. ربنا يسر يابنتي

لولا سنه المتقدمة وأيام الشقاء التي تركت أثرها على سحنته لبدا الحاج محمد عزام كنجم سينماني أو ملك متوج بشموخه وهذونه الراسخ ، بأناقته وثرانه ، بوجهه المتورد من وفرة الصحة وبشرته المصقولة اللامعة بفضل مهارة الخبراء في مركز لاجيبيته للتجميل بالمهندسين حيث يذهب مرة كل أسبوع ، له أكثر من مائة بدلة من أفخر الأنواع يرتدى كل يوم واحدة مع رابطة عنق زاهية وحذاء مستورد أنيق .. وكل يوم ساعة الضحى ، تنهادى في شارع سليمان باشا سيارته المرسيديس الحمراء قادمة من ناحية الأمريكين .. يجلس في مقعدها الخلفي مستغرقا في التسبيح على السبحة الكهرمان الصغيرة التي لا تفارق يده ، يبدأ يومه بتفقد أملاكه : محلين كبيرين للملابس أحدهما أمام الأمريكين والآخر أسفل عمارة يعقوبيان حيث يقع مكتبه ومعرضين لبيع السيارات وعدة محلات لقطع الغيار في شارع معروف بخلاف عقارات كثيرة مملوكة له في وسط البلد وعمارات أخرى عديدة تحت الإنشاء سوف ترتفع قريبا شاهقة عملاقة تحمل اسم عزام للمقاولات ، تنهادى السيارة وتقف أمام كل محل فيجتمع حولها العاملون يحيون الحاج بحرارة ويرد هو التحية بإشارة من يده (خافته وهينة لدرجة أنك قد لا تلاحظها) وفي الحال يدنو من نافذة السيارة رئيس العمال أو أقدم العاملين وينحني ناحية الحاج ويعرض

عليه أحوال العمل أو يستشير في أمر ما، عندئذ ،
 ينصت الحاج عزام بعناية وهو مطرق ويقطب ما بين
 حاجبيه الكثيفين ويضم شفتيه ويتطلع بعيدا بعينه الثعلبيتين
 الرماديتين الضيقتين المحتقنتين دائما قليلا من أثر الحشيش
 وكأنه يرقب شيئا في الأفق ثم يتكلم أخيرا ، صوته أجش
 ونبرته حاسمة وكلماته قليلة نادرة ، لا يطيق الثثرة أو
 اللجاجة ويفسر بعض الناس حبه للصمت بأنه ينفذ (وهو
 المتدين الملتزم) الحديث الشريف " .. إذا تكلم أحدكم قليل
 خيرا أو ليصمت .. " كما أنه بثروته الطائلة ونفوذه الهائل ،
 لا يحتاج في الواقع إلى كلام كثير لأن كلمته غالبا فاصلة
 وواجبة التنفيذ ، أضف إلى هذا تجربته العريضة في الحياة
 التي تجعله يدرك الأميأء بنظرة واحدة فالشيخ المليونير
 الذي جاوز الستين بدأ من ثلاثين عاما مجرد " نفر " سريح
 نزع من محافظة سوهاج إلى القاهرة بحثا عن الرزق ،
 والمسنون في شارع سليمان باشا يذكرونه وهو جالس على
 الأرض في ممر الأمريكيين بالجباب والصديري والعمامة
 وأمامه صندوق خشبي صغير حيث بدأ بتلميع الأحذية
 وعمل فترة كفراش في مكتبة بابيك ثم اختفى بعد ذلك أكثر
 من عشرين عاما وظهر فجأة وقد حقق الثروة .. يقول
 الحاج عزام انه كان يعمل في الخليج لكن الناس في الشارع
 لا يصدقون ذلك ويشيعون أنه حوكم وسجن لاتجاره في

المخدرات ويؤكد بعضهم أنه لا زال يعمل في
المخدرات حتى الآن ويدللون على ذلك بثرائه الفاحش
المتزايد الذي لا يتناسب بحال مع حجم مبيعات محلته
وأرباح شركاته مما يدل على أن نشاطه التجاري مجرد
واجهة لغسيل الأموال .. وبغض النظر عن صحة
الشائعات فقد صار الحاج عزام كبير سليمان باشا بلا منازع
والناس يلجئون إليه لقضاء حاجاتهم وتسوية خلافاتهم وقد
ترسخ نفوذه مؤخرا بانضمامه إلى الحزب القومي ثم النحاق
ابنه الأصغر حمدي بسلك القضاء وكيلا للنائب العام وللحاج
عزام نزوع جارف إلى شراء العقارات والمحلات في وسط
البلد بالذات ، وكأنه يؤكد وضعه الجديد في المنطقة التي
شهدته يوما فقيرا معدما ..

.. منذ ما يقرب من عامين ..

استيقظ الحاج عزام ليؤدي صلاة الفجر كعادته
فوجد ملابسه الداخلية مبتلة ، انزعج وتبادر إلى ذهنه أن
مرضا ألم به لكنه لما دخل إلى الحمام ليغتسل تأكد أنه ابتل
من الشهوة وتذكر صورة مشوشة بعيدة لامرأة عارية رآها
في الحلم ، أدهشته هذه الظاهرة الغريبة على شيخ مثله
جاوز الستين ثم نسيها خلال اليوم المزدهم بالعمل لكنها
عاودته بعد ذلك مرارا حتى صار يستحم يوميا قبل صلاة
الفجر ليتطهر من الجنابة ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد

ضبط نفسه مرارا وهو يختلس النظر الى اجساد
العاملات لديه في المحل واحست بعضهن غريزيا بشهوته
فصرن يتعمدن التثني والتحدث بميوعة امامه لاغرانه حتى
اضطر الى نهرهن اكثر من مرة ..

هذه الشهوة المفاجئة العارمة أزعجت الحاج عزام
كثيرا اولا لأنها لاتناسب سنه وثانيا لأنه عاش مستقيما
طوال حياته وهو يؤمن بأن استقامته وبعده عما يغضب الله
السبب الرئيسي في كل التوفيق الذي أحرزه : فهو لم يشرب
الخمير قط (أما الحشيش الذي يدخنه فقد أكد فقهاء كثيرون
أنه مكروه فقط وليس نجسا أو محرما كما أنه لا يذهب
بالعقل ولا يدفع الإنسان إلى ارتكاب فاحشة أو جريمة كما
تفعل الخمور ، بل على العكس فان الحشيش يجعل المرء
أذا أعصابا وأكثر اتزانا وأحد ذهنا) .. لم يزن للحاج في
حياته قط و عصم نفسه كعادة الصعايدة بالزواج المبكر ولقد
راى في حياته الممتدة رجالا أثرياء يستسلمون لشهواتهم
فيضيعون ثروات طائلة .. أسر الحاج بمشكلة شهوته إلى
بعض أصدقائه المسنين فأكدوا له أن ما يحدث ظاهرة
طارئة لاتلبث بعد ذلك أن تختفي إلى الأبد

- " دى حلوة روح " ..

هكذا قال له ضاحكا صديقه الحاج كامل تاجر
الأسمنت .. لكن الشهوة استمرت مع الأيام واشتدت حتى

صارت عبئا ثقيلا على أعصابه بل وتسببت في أكثر من مشادة مع الحاجة صالحة زوجته التي تصغره ببضعة أعوام والتي فاجأها عنفوانه الطارئ ثم أزعجها لأنها لم تقدر على إشباعه وقالت له موبخة أكثر من مرة إن أولادهما رجال وأن عليهما كزوجين كبيرين أن يتحليا بالوقار اللائق ، ولم يبق أمام الحاج إلا أن يعرض الأمر على الشيخ السمان ، الفقيه الشهير ورئيس الجمعية الخيرية الإسلامية ، الذي يعتبره عزام إمامه ومرشده في كافة أمور الدنيا والدين حتى أنه لا يبيت في أي موضوع يهمه في عمله وحياته بغير الرجوع إليه وهو يضع تحت تصرفه عشرات الألوف من الجنيهات لينفقها بمعرفته في وجوه الخير بخلاف الهدايا القيمة التي يمنحها له كل ما تمت صفقة طيبة بفضل دعواته وبركاته .. بعد صلاة الجمعة والدرس الديني الأسبوعي الذي يلقيه الشيخ السمان في مسجد السلام بمدينة نصر ، طلب الحاج عزام الانفراد به وحكى له عن مشكلته فانصت الشيخ ثم صمت قليلا وقال بحماس أقرب للغضب :
 - سبحان الله يا حاج ، ولماذا تضيق الأمر على نفسك وقد وسع الله عليك يا أخي ؟! .. لماذا تفتح الباب للشيطان حتى تقع في الخطيئة ؟! .. يجب أن تعصم نفسك كما أمرك الله ، لقد أحل الله لك الزواج بأكثر من امرأة على أن تعدل .. فتوكل على الله وسارع إلى الحلال قبل أن

تسقط في الحرام

- أنا رجل كبير ، أخاف لو تزوجت من كلام

الناس

... لولا معرفتي بصلاحك وتقواك لأسأت بك الظن .. أيهما
أجدر بالمخافة يا رجل .. كلام الناس أم غضب الرحمن عز
وجل ..؟! هل تحرم ما أحل الله ؟! .. أنت رجل مقدر
وصحتك جيدة وتجد في نفسك شهوة للنساء .. تزوج واعدل
بين زوجاتك .. إن الله يحب أن تستحل رخصه تردد الحاج
عزام طويلا (أو تظاهر بذلك) وما زال الشيخ السمان به
حتى أقنعه بل وتولى - مشكورا - إقناع أولاده الثلاثة
فوزي وقدي وحمد (وكيل النيابة) وقد استقبل الأخيران
رغبة أبيهما في الزواج بدهشة لكنهما تقبلا الأمر على أية
حال أما فوزي الابن الأكبر وساعد أبيه الأيمن في العمل
فقد بان عليه الاستنكار وإن لم يعلن اعتراضه ثم قال في
النهاية على مضض : " ..إن كان لابد للحاج أن يتزوج فعلينا
أن نحسن الاختيار حتى لا يقع في امرأة بنت حرام تنغص
عليه حياته .."

استقر المبدأ ، إذن ، وبدأ البحث عن زوجة مناسبة
وأوصى الحاج عزام معارفه النقاء ليبحثوا له عن بنت
الحلال وخلال بضعة أشهر ، رأى مرشحات كثيرات لكنه
كان بخبرته العريضة يرفض من يجد في سلوكها ما يعيب ،

فهذه بارعة الجمال لكنها مكشوفة الوجه وقحة لا يأمنها على عرضه وهذه صغيرة مدللة سوف ترهقه بطلباتها وهذه طماعة تحب المال .. وهكذا رفض الحاج المرشحات جميعا حتى النكسى بسعاد جابر ، البائعة في محلات هانو بالإسكندرية ، كانت مطلقة ولها ولد واحد وما أن رآها الحاج حتى خلبت لبه : امرأة بيضاء وممتلئة وجميلة ومحبة : الشعر أسود ناعم مسترسل تطل خصلاته من تحت الحجاب والعينان سوداوان واسعتان ساحرتان ولشفتان مكتنزتان شهيتان ، نظيفة وعنايتها بتفاصيل جسدها فائقة كعادة السكندريات ، أطافر اليدين والقدمين مقلمة ومنظفة أطرافها بعناية وإن كانت غير مطلية (حتى لا يمنع الطلاء ماء الوضوء) ويدها طريتان بضتان مدهونتان بالكريم ، حتى كعباها في منتهى النظافة ناعمان متماسكان خاليان من أي تسقق يشوبهما احمرار لطيف من أثر الدعك بالحجر .. تركت سعاد أثرا رقيقا مشوقا في قلب الحاج وأعجبه خصوصا ذلك الانكسار الذي تركه عليها الفقر والحياة الصعبة وفكر في أن تاريخها غير معيب بالمرّة: تزوجت من نقاش أنجبها الولد ثم تركها وسافر إلى العراق وانتطعت أخباره وحكمت لها المحكمة بالطلاق خوفا عليها من الفتنة ، وقد بعث الحاج سرا من يسأل عنها في عملها وسكنها فأشاد الناس جميعا بأخلاقها ثم أدى صلاة الاستخارة فظهرت له

سعاد جابر في المنام بهيئة رائعة (لكنها بدت في الحلم
محتشمة وليست عارية مبتذلة كالنسوة اللاتى يحتلم عليهن
عادة) .. من هنا ، توكل الحاج عزام على الله وزار أسرة
سعاد في سيدي بشر وجلس مع الرئيس حميدو أخيها الأكبر
(الذي يعمل قهوجيا في المنشية) واتفقا على كل شيء وكان
الحاج عزام كعادته في عقد الصفقات واضحا صريحا
وكلمته واحدة وقد تزوج من سعاد جابر على الشروط
الآتية:

- ١- أن تأتي سعاد لتعيش معه في القاهرة وتترك
ابنها الصغير تامر عند أمها في الإسكندرية على أن تذهب
لزيارته كلما تيسر ذلك .
 - ٢- أن يشتري شبكة بعشرة آلاف جنيه ويدفع مهرا
مبلغ عشرين ألف جنيه على ألا يزيد مؤخر الصداق على
خمس ألف جنيه .
 - ٣- أن يظل الزواج سرا وأن يكون معلوما تماما
أنه في حالة معرفة الحاجة صالحة زوجته الأولى بأمر
زواجه الجديد سيكون مضطرا إلى تطليق سعاد فورا .
 - ٤- أنه يتزوج على سنة الله ورسوله لكنه لا يرغب
في الإنجاب إطلاقا ..
- .. وهذا الشرط الأخير أصر الحاج عزام عليه
وأفهم حميدو بمنتهى الوضوح أنه لاسنه ولاظروفه تسمح له

بأن يكون أبا لطفل الآن وأنه إذا حملت سعاد سوف
يعتبر هذا الأمر فسحا فوريا للاتفاق بينهما ..

• • •

- مالك .. ١١٢

كانا في الفراش ، سعاد بقميص نومها الأزرق الذي
يكشف عن صدرها العامر الزجاج وفخذيها ونراعيها
ببياضهم المشرق والحاج عزام ممدد بجوارها على ظهره
بجلبابه الأبيض ، كانت هذه ساعتها ، كل يوم بعد أن
يؤدي الحاج صلاة العصر في مكتبه ، يصعد إليها في الشقة
الفخمة التي اشتراها من أجلها في الدور السابع من العمارة ،
يتناول الغداء ثم ينام معها إلى ما قبل العشاء ويتركها إلى
اليوم التالي .. كان هذا النظام الوحيد الذي يسمح له برؤيتها
بغير أن تضطرب حياته مع أسرته ، لكنه اليوم على غير
عادته ، مرهق وقلق .. كان يفكر في أمر ما شغله طوال
النهار وقد تعب من التفكير وشعر بصداغ وغثيان من أثر
بضعة سجانر ملفوفة دخنها بعد الأكل وتمنى في نفسه لو
تتركه سعاد لينام قليلا لكنها مدت يديها وأمسكت برأسه بين
كفيها الطريين اللذين تنبعث منهما رائحة معطرة حلوة
ونظرت إليه مليا بعينيها الواسعتين وهمت

- مالك يا حبيبي !؟
- ابتسم الحاج وتمتم :
- مشاكل الشغل كثيرة ..
- الحمد لله على الصحة أهم حاجة
- الحمد لله
- والله العظيم الدنيا كلها ما تستأهل ثانية واحدة من

لهم

- عندك حق ..
- .. احك لي عما يضايقك يا حاج ..
- وأنت ناقصة مشاكل !؟ ..
- اخص عليك .. هو انا عندي أهم منك !؟ ..
- ابتسم الحاج ونظر إليها بامتنان ثم اقترب وطبع قبلة على خدها ورجع برأسه قليلا وقال بصوت جاد :
- بإذن الله .. أنا ناوي أرشح نفسي لمجلس الشعب
- ..

- مجلس الشعب !؟ ..
- أيوه
- ارتبكت قليلا لأنها لم تكن تتوقع ولم تلبث أن استجمعت نفسها وتهلل وجهها بابتسامة سعيدة وقالت بمرح:
- يا ألف نهار أبيض يا حاج .. ازغرد والا اعمل
- ايه !؟ ..

- ربنا يسهل بس وانجح

- بإذن الله ..

- عارفة يا سعاد لو دخلت المجلس .. أعمل شغل

بملايين

- طبعا تدخل .. هم يلاقوا أحسن منك !؟

ثم مدت شفتيها وكأنها تناغي طفلا صغيرا وتكلمه

بضمير المؤنث :

- بس أنا أخاف عليكى يا حلوة انتى لما تطلعي في

التليفزيون ويشوفوكى كده زي القمر يقوموا يخطفوكى

منى ..

انفجر الجاج ضاحكا واقتربت منه حتى شعر

بحرارة جسدها الفاتر ومدت يدها إليه في مداعبة طويلة

خبيرة متأنية أنت ثمرتها أخيرا وأطلقت ضحكة خليعة وهى

تراد وقد سرت إليه الحماسة ومن فرط تعجله وهو يخلع

الجلباب انحسر رأسه في فتحته ..

• • •

كانك تشاهد فيلما سينمائيا ، تستغرق فيه وتتفعل

وفي النهاية تضاء الأنوار وتعود إلى الواقع ، تغادر السينما

ويلفحك الهواء البارد في الشارع المزدهم بالسيارات والمارة

و يأخذ كل شيء حجمه الطبيعي وتذكر كل ما حدث
على أنه مجرد فيلم .. تمثيل في تمثيل ..
هكذا يسترجع طه الشاذلي أحداث ذلك اليوم : كشف
الهيئة ، الممر الطويل المفروش بالبساط الأحمر الوثير ،
الحجرة الكبيرة الممتدة ذات السقف الشاهق ، المكتب الكبير
المرتفع عن أرض الحجرة لدرجة بدا فيها أشبه بمنصة
المحاكمة والمقعد الجلدي الراطي الذي جلس عليه واللواءات
الثلاثة ، بأجسادهم الضخمة المترهلة وبملهم البيضاء
وأزرارهم النحاسية اللامعة والرتب والنياشين المتألثة على
صدورهم وأكتافهم واللواء الرئيس يرحب به بابتسامة
منضبطة مرسومة بدقة ثم يومئ إلى عضو اليمين الذي يسند
ذراعيه أمامه على المكتب ويتقدم برأسه الأصلع إلى الأمام
ويبدأ في إلقاء الأسئلة عليه بينما يتفحصه الآخران وكأنهما
يزنان كل كلمة ينطقها ويرقبان كل تعبير يرسم على وجهه
.. جاءت الأسئلة كما توقعها وكان أصدقاؤه الضباط قد
أكدوا له أن أسئلة كشف الهيئة دائما مكررة ومعروفة وأن
الاختبار كله مجرد إجراء شكلي إما لاستبعاد العناصر
المتطرفة بناء على تقارير الأمن أو لتأكيد قبول المحظوظين
من أصحاب الوسائط ، كان طه قد استذكر عن ظهر قلب
الأسئلة المتوقعة وإجاباتها " النموذجية " وأخذ يجيب أمام
اللجنة بثبات وهدوء .. قال انه حاصل على مجموع كبير

يؤمله للالتحاق بكلليات جيدة لكنه يفضل كلية الشرطة لكي يخدم وطنه من موقعه كضابط شرطة كما أكد أن وظيفة الشرطة ليست فقط أمنية كما يظن الكثيرون ، لكنها أيضا اجتماعية وإنسانية وأعطى أمثلة على هذا المعنى ثم تكلم عن الأمن الوقائي من حيث التعريف والوسائل وبدأ الرضا واضحا على وجوه الممتحنين حتى أن اللواء الرئيس هز رأسه مرتين مؤمنا على إجابة طه ثم تكلم لأول مرة فسأل طه ماذا يفعل إذا ذهب إلى القبض على أحد المجرمين فوجده أحد أصدقائه من أيام الطفولة ؟!.. كان السؤال متوقعا لطله وقد أعد إجابته لكنه تظاهر بالتفكير قليلا ليضعف من التأثير على الممتحنين ثم قال :

- يافندم سيادتك الواجب لا يعرف أصحاب أو أقارب ، رجل الشرطة مثل الجندي في المعركة عليه أن يؤدي واجبه بغض النظر عن أى اعتبار آخر .. في سبيل الله والوطن ..

ابتسم اللواء الرئيس وهز رأسه في !..جواب صريح وساد صمت ما قبل النهاية وتوقع طه أن يصدر الأمر بالانصراف لكن اللواء الرئيس حذق فجأة في الأوراق وكأنه اكتشف شيئا حتى أنه رفع الورقة قليلا ليتأكد مما قرأه ثم سأل طه وهو يتحاشى النظر إلى عينيه :

- .. انت والدك مهنته إيه ياطه !؟

- موظف يافندم .. (هكذا كتب في استمارة
الانتحاق ودفع مائة جنيه رشوة لشيخ الحارة ليوقع عليها)
تفحص اللواء الأوراق من جديد و سأل :
- موظف .. أم حارس عقار ؟

.....
سكت طه لحظة ثم قال بصوت خافت :

- والذي حارس عقار يافندم
ابتسم اللواء الرئيس وبنان عليه الحرج ثم انحنى
على الأوراق وسجل شيئا بعناية ورفع رأسه بنفس الابتسامة
وقال :

- شكرا يا بنى .. انصرف

• • •

تهتبت الأم وقالت : "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير
لكم" ..

وصاحت بثينة بحدة : "وايه يعنى ضابط بوليس؟...
الضباط أكثر من الهم على القلب .. يا فرحتي بالبدلة
الميري وأنت بتقبض ملايم .."

كان طه قد قضى النهار متجولا في الشوارع حتى
هدد التعب فعاد إلى السطح وجلس مطرقا على الأريكة

بنفس بدلة الصباح التي فقدت الآن رونقها وتهدلت
وبدت رخيصة وبائسة وحاولت الأم أن تخفف عنه
- يا ابني أنت معقد الدنيا زيادة عن اللزوم ..
قدامك كليات حلوة كثيرة غير الشرطة ..

ظل طه مطرقا وصامتا وبدا الأمر أكبر من كلمات
الأم فلم تلبث أن انصرفت إلى المطبخ وتركته مع بثينة
التي انتقلت إلى جواره على الأريكة واقتربت منه وهمست
بحنان :

- " والنبي ما ترعل نفسك يا طه .. "

وحرك صوتها مشاعره فصاح بمرارة :

- " أنا زعلان على تعبتي .. لو كانوا من الأول

اشترطوا مهنة معينة للأب كنت عرفت .. كانوا قالوا ممنوع
أولاد البوابين .. وبعدين الكلام ده ضد القانون .. أنا سألت
محامي وقال لي لو رفعت عليهم قضية أكسبها ..

- ولا قضية ولا يحزنون .. عاوز رأيي؟! .. انت

تدخل بمجموعك ده أحسن كاتبة في الجامعة ، تتخرج بتفوق
وتطلع على بلد عربي نجيب قرشين وترجع هنا تعيش
ملك ..

ونظر إليها طه مليا ثم أطرق من جديد فاستطردت

قائلة :

- بص ياطه .. أنا صحيح أصغر منك بسنة لكني

اشتغلت والشغل علمني . البلد دي مش بلدنا ياطه .
دي بلد اللي معه فلوس . لو كان معك عشرين ألف جنيه
وبفعتهم رشوة حد كان سالك عن شغلة أبوك ..؟! اعمل
فلوس ياطه تكسب كل حاجة أما لو فضلت فقير حتدهس
دهس ..

- لايمكن اسكت لهم .. لازم أقدم شكوى

وضحكت بثينة بمرارة

- تستكي مين ولمين ..؟! .. اسمع كلامي بلا أفكار
خاينة .. أنت تجتهد وتأخذ شهادتك وماترجعش هنا إلا وانت
غني .. ولو ما رجعتش أبدا يكون احسن
- يعني رايك أسافر بلد عربي ؟
- طبعا ..

- وأنت تسافري معايا ؟

وفاجأها السؤال فتمتمت وهي تتحاشى النظر إلى عينيه :
" بإذن الله " لكنه قال بحزن :

- انت تغيرت ناحيتي يا بثينة .. أنا عارف .
ولمحت بثينة في الأفق مشاجرة جديدة فقالت وهي
تنهض :

- انت مرهق دلوقت .. قم نام والصبح نتكلم .
وانصرفت لكنه لم ينم .. ظل ساهرا يفكر واستعاد
مائة مرة وجه اللواء رئيس اللجنة وهو يسأله بتأن وكأنه

يتلذذ بإهانتته : " والدك حارس عقار يابنى ؟ ...
حارس عقار .. يالها من كلمة غريبة لم ترد في ذهنه
ولانوقعها أبدا .. كلمة هي حياته كلها .. عاشها سنوات
طويلة وعاني من وطأتها وقاومها باستماتة وحاول أن
يتخلص منها ، اجتهد لكي ينفذ من ثقب كلية الشرطة إلى
الحياة اللائقة المحترمة لكن الكلمة .. "حارس العقار " ..
كانت تنتظره في نهاية السباق الشاق لتفسد كل شيء في
اللحظة الأخيرة .. لماذا لم يخبروه من البداية ؟ لماذا تركه
اللواء للنهاية وأبدى إعجابه بإجابته على الأسئلة ثم سدد إليه
طعناته الأخيرة .. قم من أمامي يابن البواب .. عاوز تدخل
الشرطة يابن البواب؟ .. ابن البواب يبقى ضابط ؟! .. والله
عال ."

أخذ طه بجوب الحجرة وقد عزم على أن يفعل شيئا
.. قال لنفسه لايمكن أن يهينوه بهذه الطريقة ويسكت ..
لايمكن أن يضيع نعبه في لحظة .. وشينا فسينا أخذ يتخيل
مشاهد ثأرية خرافية : يرى نفسه مثلاً وهو يلقي على
اللواءات أعضاء اللجنة كلمة مؤثرة عن تكافؤ الفرص
والحق والعدل الذي أمرنا به الله ورسوله (صلى الله عليه
وسلم) ويظل يوبخهم حتى يذوبوا حرجاً من فعلتهم
ويعتذروا إليه ويعلنوا قبوله في الكلية .. وفي مشهد آخر
يرى نفسه ممسكاً بياقة اللواء الرئيس وهو يصيح في وجهه:

انت مالك أبويا يشتغل ايه ؟ .. يا يا ضلالي يا مرتشي...!!
ثم يسدد إلى وجهه عدة لكمات عنيفة يسقط إثرها على
الأرض غارقاً في نمانه .. كان من عادته أن يتخيل مشاهد
كبهذه عندما يتعرض إلى مواقف صعبة لا يقدر عليها لكن
المشاهد النارية على قوتها لم تشف غليله هذه المرة وظل
الشعور بالإهانة يسحقه سحقاً حتى طرأت له فكرة و ألحت
عليه فجلس إلى مكتبه الصغير وأخرج ورقة وقلماً وكتب
بخط كبير في رأس الصفحة : " بسم الله الرحمن الرحيم
.. شكوى مقدمة إلى سيادة رئيس الجمهورية .. " .. توقف
لحظة وعاد برأسه إلى الخلف وأحس براحة من فخامة
الألفاظ وخطورتها ثم انهمك في الكتابة .

تركت هذه المساحة فارغة لأنني لم أجد ما أكتبه فيها ..

فالكلمات تصلح لوصف الأحزان أو الأفراح العادية
أما لحظات السعادة الكبرى مثل التي عاشها زكي النسوقي
مع حبيبته رباب فإن القلم يعجز فعلا عن وصفها ؛ وبرغم
الحدث الأليم ، سيظل زكي بك يتذكر رباب الجميلة بوجهها
الخمري الساحر وعينيها الواسعتين السوداوين وشفتيها
المكتنزتين القرمزيتين وقد فكت شعرها فانسدل على ظهرها
وجلس أمامه ترتشف الويسكي وتداعبه بصوتها المثير ثم
تسأذن إلى الحمام وتعود وقد ارتدت قميص نوم قصيرا
ومفتوحا يكشف عن مفاتيها ، تلك الابتسامة اللعوب وهي
تسأله " .. أين سننام ؟! .. " واللذة العارمة التي منحها له
جسدها الطري الدافئ .. كل تفاصيل الحب الرائعة يتذكرها
زكي بك وفجأة ، تتشوش الصورة في رأسه وتضطرب
بشدة ثم تنقطع وتترك وراءها فراغا معتما وشعورا مؤلما
بالصداع والغثيان ، آخر ما يذكره أنه سمع صوتا خافتا
كالفحيح أعقبته رائحة نفاذة أثارت أغشية أنفه وأخذت رباب
في تلك اللحظة تتفحصه بنظرة غامضة وكأنها تترقب شيئا
ما وبعد ذلك لا يذكر زكي بك أى شئ .. استيقظ بصعوبة
ومطارق الصداع الجبارة تدق رأسه فوجد أبسخرون واقفا
بجواره وقد بدت عليه علامات الجزع وأخذ يهمس بإلحاح:

- سيادتك تعبان .. أنادى الدكتور ١٩٠٠!

بصعوبة .. هز زكى رأسه الثقيلة وهو يبذل مجهودا خارقا ليستجمع ذهنه المشتت وفكر أنه نام طويلا وأراد أن يعرف الوقت فنظر إلى ساعة يده الذهبية لكنه لم يجدها ، كما أنه لم يجد محفظته على المنضدة بجواره حيث تركها وهنا تأكد أنه تعرض لحادث سطو وشيئا شينا بدا في حصر الخسائر :

بالإضافة للساعة الذهبية وخمسمائة جنيه كانوا في المحفظة فقد زكى بك طاقم أقلام ذهبية ماركة " كروس " (بعلبته لم يستعمل) ونظارة شمسية ماركة بيرسول .. أما الطامة الكبرى فكانت سرقة الخاتم الماسي الخاص بأخته الكبرى دولت الدسوقي

- أنا انسرقت يا أبسخرون .. رباب سرقنتي !!..

هكذا رد زكى بك وقد جلس عاريا على حافة الأريكة التي كانت مهدا للحب منذ قليل وبدا في تلك اللحظة، بملابسه الداخلية وجسده الضئيل وفمه الخالي المنطبق (وكان قد خلع طقم أسنانه ليتمكن من تقبيل المحبوبة) .. أشبه بممثل هزلي بانس يستريح بين فقرتين .. وضع رأسه بين يديه وهو يشعر بتعاسة بالغة وأخذ أبسخرون المنفعل بالحدث الجلل والمتوتر ككلب محبوس يضرب الأرض بعكازه ويذرع الحجرة في كل اتجاه ثم انحنى على سيده

وقال بصوت لاهث :

- سيادتك .. نبليغ البوليس على بنت الحرام
دى؟!..

وفكر زكى قليلا ثم هز رأسه علامة النفي وظل
صامتا فاقرب منه أبسخرون أكثر وهمس :
- سيادتك .. هي سفتك حاجة والارشت على وش
سيادتك حاجة ؟!

كان زكى الدسوقي يحتاج إلى هذا السؤال لينفث
غضبه فتأر وانهاه بالثبات على أبسخرون المسكين ، لكنه
على أية حال ، في النهاية ، استعان به لينهض ويرتدى ثيابه
وقد عزم على الانصراف.. كان الليل قد انتصف والمحلات
في شارع سليمان باشا أغلقت أبوابها وأخذ زكى يجرجر
قدميه وهو يترنج من الصداق والإعياء وشينا فشيئا تراكم
في نفسه غيظ بالغ .. تفكر الجهد والمال الذي بذله من أجل
رباب وتلك الأشياء الثمينة التي سرقها منه .. كيف يحدث
كل ذلك معه ؟!.. الوجيه زكى الدسوقي ، فائن النساء
وعشيق الأميرات ، تخدعه امرأة مومن حقيرة وتسرقه
.. لعلها الآن مع عشيقها تهدى إليه النظارة البيرسول
والأقلام الذهبية ماركة كروم (التي لم تستعمل)
ويضحكان معا على المغفل العجوز الذي شرب المقلب و
زاد من حنقه أنه لا يستطيع إبلاغ البوليس خوفا من

الفضيحة التي سوف تصل أصدائها حتما إلى أخته
دولت ولا يستطيع أيضا أن يطارد رباب أو يشكوها في بار
كايرو حيث تعمل لأنه يعلم يقينا أن صاحب البار وكل
العاملين فيه من معتادى الإجرام وأرباب السوابق وربما
تكون السرقة قد تمت لحسابهم وهم في كل الأحوال لا يمكن
أن ينفقوا معه ضد رباب ومن الوارد جدا أن يضربوه كما
راحم بنفسه يفعلون من قبل مع الزبائن المشاغبيين .. لم يكن
أمامه إذن إلا أن ينسى الحادثة بمرمتها وكم كان ذلك عسيرا
ومؤلما بالإضافة إلى الهم الجاثم على قلبه من جراء سرقة
خاتم أخته دولت وأخذ يلوم نفسه : " عندما تسلم الخاتم من
بابازيان الصانع بعد إصلاحه لماذا استبقاه في المكتب ولم
يسارع بإرجاعه إلى دولت !!؟ .. ماذا يفعل الآن ؟! انه لا
يستطيع شراء خاتم جديد وحتى لو استطاع فان دولت تعرف
مجوهراتها مثل أولادها .. " كان يخاف من مواجهة
دولت أكثر من أى شئ آخر حتى أنه لما وصل إلى بيته في
ممر بهلر وقف أمام المدخل مترددا وخطرا له أن يذهب
ليبيت عند أحد أصدقائه وكاد أن يفعل .. لكن تأخر الوقت
وشعوره بالتعب دفعاه للصعود ، فصعد .

- كنت فين يا سعادة البك ..!؟

هكذا بادرته دولت بمجرد دخوله إلى الشقة ، كانت
تنتظره في الصالة على المقعد المواجه للباب وقد لفّت
خصلات شعرها المصبوغ باللون الكستنائي على " البوكل " وغطت
وجهها المجعد بمساحيق كثيفة ومن زاوية فمها
تتدلى سيجارة مشتعلة في مبسم ذهبي صغير وقد ارتدت
روبا منزليا أزرق غطى جسدها النحيل وبست قدميها في " باننوفل " على شكل ارتب أبيض وجلست تغزل قطعة من
الصوف بإبرتي تريكو ويدها تتحركان بطريقة آلية مربعة
بلا توقف ولا هوادة وكأنهما منفصلتان عن بقية جسدها
وكان بمقدورها دائما ، بحكم العادة ، أن تدخن وتغزل
التريكو وتتكلم في نفس الوقت

- مساء الخير

هكذا قال زكى بسرعة وحاول أن يمضى إلى
حجراته مباشرة لكن دولت بدأت الهجوم في الحال فصرخت
في وجهه :

- انت إيه ..!!؟ .. ساكن في فندق ..!!؟ .. يا أخي
خللى عندك دم ..! ثلاث ساعات وأنا في انتظارك من الباب
للشباك ..كنت حاتصل بالبوليس .. قلت جرى لك حاجة ..
حرام عليك ، أنا مريضة .. انت عاوز تموتني ؟! يارب
ارحمني .. يارب تأخذني وتريحني ..

كانت هذه بمثابة افتتاحية سريعة لمشجرة من
أربع حركات قد تمتد حتى الصباح وقال زكى وهو يجتاز
الردهة بسرعة:

- أنا أسف يا دولت .. أنا مرهق جدا .. أنام
والصبح أحكي لك ما جرى بإذن الله ..
لكن دولت فطنت إلى محاولته للهروب فألقت من يدها بإبر
التريكو واندفعت نحوه صارخة بأعلى صوتها :

- مرهق من إيه بسلامتك ..!!؟.. من النسوان اللي
داير تمشم عليها زي الكلب ؟! .. يا شيخ اتعظ .. ممكن
تموت في أى وقت .. لما تقابل ربنا نقول له إيه .. ؟! ..
ياالشيخ ..

مع هذه الصيحة الأخيرة ، دفعت دولت زكى في
ظهره بقوة فترنح قليلا لكنه استجمع قوته ومرتق إلى داخل
حجراته وبرغم مقاومة دولت العنيفة نجح في إغلاق الباب
عليه ودرس المفتاح في جيبه .. ظلت دولت تصيح وتهز
مقبض الباب لتفتحه لكن زكى أحس بأنه نجا وقال لنفسه
إنها لن تلبث أن ترهق وتنصرف ثم تمدد بملابسه على
السريр ، كان متعبا وحزينا وأخذ يتأمل أحداث النهار وتمتم
بالفرنسية : " ياله من يوم تعس " .. ثم فكر في دولت وسأل
نفسه : " كيف تحولت أخته الحبيبة إلى هذه العجوز الكريهة
الشرسة ؟! "

إنها تكبره بثلاثة أعوام فقط ، لازال يذكرها
وهي بنت رقيقة جميلة ترتدى زي مدرسة ' المير دو ديور'
بلونيه الأصفر والكحلي وتحفظ مقاطع من أشعار لافونتين
عن الحيوانات وفي أمسيات الصيف تعزف على البيانو في
صاله بيتهم القديم في الزمالك (الذي باعه الباشا بعد
الثورة).. كان عزفها رائعا لدرجة أن مدام شديد مدرسة
الموسيقى فأتحت الباشا في إمكانية تقديمها للمسابقة الدولية
للحواة في باريس لكن الباشا رفض ولم تلبث دولت أن
تزوجت من اليوزباشي طيار حسن شوكت وأنجبت ولدا
وبنتا (هاني ودينا) ثم قامت الثورة فأحيل شوكت إلى
التقاعد لعلاقته الوطيدة بالأسرة المالكة ولم يلبث أن مات
فجأة ولما يتجاوز الخامسة والأربعين ، وتزوجت دولت بعده
مرتين ولم تتجب ، زيجتان فاشلتان أورثتاها المرارة
والعصبية وإدمان التدخين ، ثم كبرت ابنتها وتزوجت
وهاجرت إلى كندا وعندما تخرج ابنها في كلية الطب
خاضت دولت معركة ضارية لكي تمنعه من الهجرة ، بكى
وصرخت وتوسلت إلى كل أقاربها ليقنعوه بالبقاء معها لكن
الطبيب الشاب (كمعظم أبناء جيله) كان كارها للأوضاع
في مصر لدرجة اليأس فصمم على الهجرة وعرض على
أمه أن يصطحبها فرفضت وبقيت وحدها ثم قامت بتأجير
شقتها في جاردن سيتي مفروشة وانتقلت للإقامة مع زكى

في وسط البلد .. ومنذ اليوم الأول لم يتوقف العجوزان
 عن التشاحن والعراك وكأنهما عدوان لدودان . كان زكى قد
 ألف الاستقلال والحرية وبات من الصعب أن يتقبل مشاركة
 أحد في حياته : أن يضطر للالتزام بمواعيد للنوم والطعام ،
 أن يخبر دولت مسبقا إذا أراد أن يسهر .. كان وجودها
 يمنعه من استضافة عشيقاته في البيت وزاد من معاناته
 تدخلها السافر في أدق شئونه ومحاولتها الدائمة للتسلط عليه،
 ومن ناحيتها ، كانت دولت تعاني من الوحدة والتعاسة
 ويحزنها أنها تنهى حياتها بلا مكاسب أو إنجازات بعدما
 فشلت في زواجها وتركها أولادها في الشيخوخة وكان
 يستفزها للغاية أن زكى لا يبدو أبدا كشيخ فان ينتظر
 الموت .. انه لازال يتعطر ويتغندر ويطارد النساء وما ان
 نراه وهو يصلح من هذامه ضاحكا مدندنا أمام المرأة أو
 تلاحظ أنه سعيد ومزاجه رائق حتى تشعر بالحق ولا تهدأ
 حتى تتحرم به وتسلقه بلسانها ، كانت تهاجم تصاييه
 ونزواته ليس بوازع من فضيلة وانما لأن تكالبه على الحياة
 بهذه الطريقة لا يلائم ما تشعر به من يأس ، كانت ثورتها
 عليه أشبه بغضب المعزين الحزائي على رجل يقهقه في
 السأم وكان بين العجوزين ، أيضا ، كل ما يصاحب
 الشيخوخة من ضجر وقلة صبر وتعت بالإضافة إلى ذلك
 التوتر الذي ينشأ دائما من اقتراب شخصين من بعضهما

أكثر من اللازم : .. أن يشغل أحدهما الحمام طويلا بينما يريد الآخر استعماله ، أن يرى أحدهما وجه الآخر المكفهر ساعة الاستيقاظ من النوم ، أن يحتاج أحدهما إلى الصمت وبصر الآخر على الحديث ، مجرد وجود شخص آخر لا يفارقك ليل نهار ويحملك فيك ويقتحمك ويراجعك فيما تقول ويجلس ليأكل معك فيستفزك انصرير الذي يصدر من ضروره أثناء المضغ ويزعجك حتى الرنين الذي يحدثه ارتطام ملعقته بالصحن ..

ظل زكى بك الدسوقي ممددا على السرير يسترجع الأحداث وشيئا فشيئا بدأ النعاس يغشاه لكن يومه السيئ لم ينته فلم يلبث وهو بين النوم واليقظة أن سمع صرير المفتاح الاحتياطي الذي عرفت دولت أين تجده ، فتحت الباب واقتربت منه وقد اتسعت عيناها من الحنق وقالت بصوت لاهث من الانفعال:

- " فين الخاتم يا زكى .. !!؟ "

• • •

.. وهكذا ترون سيادتكم يا سيادة الرئيس أنني ابنكم، طه محمد الشاذلي ، قد تعرضت إلى ظلم وإجحاف بحقي على يد سيادة اللواء رئيس لجنة الاختبار بكلية

الشرطة .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح :

"إنما أهللك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد .. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .." صدق رسول الله ..

سيادة الرئيس ..

لقد تعبنا واجتهدت حتى حصلت على مجموع ٨٩ أدبي واستطعت بفضل من الله أن أنجح في كل اختبارات الالتحاق بكلية الشرطة .. فهل من العدل يا سيادة الرئيس أن أحرم من الالتحاق بالشرطة لمجرد أن أبي رجل شريف وفقير ويعمل حارس عقار .. أليست حراسة العقارات عملاً شريفاً وكل عمل شريف محترم يا سيادة الرئيس ..؟! .. أرجوكم يا سيادة الرئيس أن تنظروا إلى هذه الشكوى بعين الأب الحنون الذي لا يرضيه أبداً أن يلحق الظلم بأحد أبنائه .. إن مستقبلي يا سيادة الرئيس ينتظر قراراً من سيادتكم وأنا بإذن الله تعالى واثق من إنصافي على أيديكم الكريمة ..

أدامكم الله ذخراً للإسلام والمسلمين

إبتكم المخلص

طه محمد الشانلي بطاقة شخصية رقم ١٩٥٧٨

قصر النيل

العنوان عمارة يعقوبيان ٣٤ شارع طلعت حرب القاهرة ..

• • •

وكانه قائد حربي مظفر يدخل في موكب النصر
إلى مدينة فتحها بعد قتال مرير .. ظهر ملاك خله سعيدا
مزهوا فوق سطح انعمارة ليتسلم حجرته الجديدة ، كان
يرتدى بدلته الشعبية الزرقاء التي يدخرها للمناسبات وقد
علق حول رقبتة مازورة طويلة كانت بالنسبة إليه (مثل
الرتبة العسكرية للضابط والسماعة الطبية للطبيب) علامة
تميزه المهني كاسطى قمصانجى وحضر معه ذلك الصباح
مجموعة عمال من أجل إعداد الحجرة : حداد وكهرباني
وسباك وبعض الصبيان الصغار المساعدين له ..

تمم الأسطى ملاك بصلاة الشكر للعزاء ويسوع
المخلص ثم مد يده ليفتح الحجرة لأول مرة ، كان الهواء
بالداخل عطنا لأنها ظلت مغلقة عاما كاملا منذ وفاة عطيه
بائع الجرائد (الذي وجد ملاك بعض متعلقاته فأمر
الصبيان بجمعها في صندوق كبير من الورق المقوى) ..
الآن .. يقف ملاك في منتصف الحجرة وقد فتح النافذة

فغمرت الشمس المكان ، يصدر إلى العمال تعليمات مفصلة ودقيقة عما يجب عمله ومن حين لآخر يتوقف أحد سكان السطح ويستطلع ما يحدث من باب الفضول ، بعضهم يتنرج قليلا ثم يمضى والبعض الآخر يهنيء ملاك على الحجرة الجديدة ويصافحه متمنيا التوفيق ، على أن سكان السطح ليسوا جميعا بهذه الرقة فبعد أقل من نصف ساعة انتشر الخبر في السطح ومرعان ما ظهر على باب الحجرة شخصان لا يبدو عليهما أدنى ترحيب بالوافد الجديد : الأستاذ حامد حواس وعلى السواق .. الأول موظف في الهيئة القومية للصرف الصحي ، غضب عليه رئيسه فنقله من المنصورة حيث يقيم إلى القاهرة فاستأجر حجرة على السطح يعيش فيها وحده ويسعى جاهدا منذ أكثر من عام لإلغاء نقله التعسفي والعودة إلى بلده والأستاذ حامد حواس واحد من كبار كتاب الشكاوي الرسمية ، يجد متعة حقيقية غامرة في انتقاء موضوع الشكوى وصياغتها ببلاغة ثم تحريرها بخط منسق سهل القراءة ومتابعتها بعد ذلك إلى النهاية مهما كلفه ذلك من مشقة لأنه يعتبر نفسه ، على نحو ما ، مسئولاً عن سلامة الأداء في كافة المرافق العامة في أية منطقة يسكنها أو حتى يمر بها وهو يجد دائما الوقت ليطوف يوميا بإدارة الحي والمحافظة وشرطة المرافق حيث يقدم شكاواه ويتابعها بالحاح وتركيز ضد باعة متجولين

يقفون في الشارع بعيدا جدا عن مكان سكنه ، لكنه يجد من واجبه أن يطارد هؤلاء المخالفين بالشكوى تلو الأخرى ، بلا كلل ولا ملل ، حتى تتحرك شرطة المرافق في النهاية فتقبض عليهم وتصادر بضائعهم .. عندئذ يرقب الأستاذ حامد المشهد عن بعد وهو يشعر براحة من أدى واجبه كاملا غير منقوص ، أما على السواق فهو مدمن للخمر تعدى الخمسين ولم يتزوج يعمل سائقا في الشركة القابضة للأدوية ويخرج من عمله كل يوم إلى بار عرابي في التوفيقية حيث يتناول غداءه ويظل يعيب الخمر حتى منتصف الليل وقد أثرت فيه وحدته والخمر الرديئة التي أدمنها فجعلته فظا شرسا يبحث عادة عن أية مشاجرة ليفرغ فيها طاقته العدوانية .. اقترب الأستاذ حامد حواس من ملاك وحياته ثم بدأ الكلام بطريقة مهذبة للغاية فقال :

- بالنسبة للحجرة دى يا أخ .. هل معك عقد من صاحب البيت يعطيك الحق في استغلالها كمكان تجارى..؟! -
 - طبعا معي عقد .. أجاب ملاك بحماسة ثم أخرج من حقيبته الجاذبية الصغيرة صورة للعقد الذي وقعه مع فكرى عبد الشهيد فالنقط حامد الورقة ووضع النظارة الطبية على عينيه وتفحصها بعناية ثم مد يده بها إلى ملاك قائلا بهدوء :

- انعقد بهذا الشكل باطل ..

- باطل !؟ هكذا ردد ملاك بجزع

- طبعاً باطل .. السطح بحكم القانون منفعة عامة

للسكان ولا يجوز تأجير المنفعة العامة لغرض تجارى ..
لم يفهم ملاك الكلام وأخذ يحملق بغیظ في الأستاذ
حامد الذي استطرد قائلاً بثقة :

الموضوع فيه أكثر من حكم لمحكمة النقض
والمسألة منتهية .. العقد باطل وأنت ليس من حقل استعمال
الحجرة

- طيب ما أنتم ساكنين كلكم فوق السطح .. اسمعنى

أنا !؟ ..

- إحنا شاغلين حجراتنا بقصد السكن ودا قانوني
إنما أنت تستغل الحجرة لغرض تجارى ودا غير قانوني
ولا يمكن أن نسمح به أبدا ..

- .. خلاص .. اشتك صاحب البيت لأنه أعطاني

العقد

- لا طبعاً .. القانون يمنعك أساساً من استعمال

الحجرة .. واحنا باعتبارنا سكان متضررين لابد نمنعك

- يعني إيه !؟

- يعني تأخذ بعضك وتمشى بالتي هي أحسن ..

هكذا قال على السواق بصوته الأجهش وهو ينظر

إلى ملاك متحدياً وأكمل وهو يضع يده على كتفه في تهديد

واضح :

- اسمع يا كابتن .. السطح هنا مكان عائلات محترمة .. لا يمكن على آخر الزمن تبجي تفتح فيه محل يقوم العمال والزبائن ببيعوا للحريم الداخلية والخارجة .. فاهم والا لا ..!؟..

ورد ملاك بسرعة وهو يستشعر خطورة الموقف :
- يا سعادة الباشا جميع العمال عندي مؤهلات عليا والحمد لله ، كلهم ذوق ومفهومية وبعدين سكان السطح والحريم على دماغي من فرق
- اسمع .. من غير كلام كثير .. لم حاجاتك وتوكل على الله

- الله ..!؟ جري ايه ؟! هي بلطجة ولا ايه ؟!

- أيوه بلطجة يا روح امك ..

هكذا قال على السواق وقد جذب ملاك من ياقته وصفعه إيذانا ببدء القتال .. كان يتشاجر بسهولة واقتدار وكأنه يتخذ اجراءا روتينيا بسيطا أو يمارس لعبة يهواها : بدأ بضربة رأس محكمة لملاك ثم لكتمتين في بطنه وثالثة قوية ذات طنين أصابت أنفه فسال خيط من الدم على وجهه وحاول ملاك أن يقاوم فسدد نكمة رمزية خائبة إلى وجهه غريمه طاشت ولم تصبه ثم أخذ يصرخ محتجا وهو يتلقى ضربات عنيفة وساد هرج ومرج وتسلل العمال هاربين

تجنبنا للمشاكل وتجمع الناس من كل صوب ليتفرجوا
وظهر أبسخرون فجأة في السطح وراح يصرخ ويولول
مستجدا واستمرت المشاجرة حتى نجح على السواق في
طرده ملاك خارج الحجرة وكان الأستاذ حامد حواس قد
سأل من البداية واستدعى شرطة النجدة من تليفون كشك
السجائر المواجه للعمارة فلم يلبث أن جاء ضابط شرطة
شاب وعدة جنود ومخبرين قاموا بالقبض على المشاجرين
جميعا : ملاك وصبيانه وأبسرخرون وعلى السواق أما حامد
حواس فقد اقترب من الضابط وحياء بلطف ثم قال :

- سيادتك يا باشا دارس قانون والأخ (مشيرا إلى
ملاك) عاوز يفتح محل تجارى في السطح والسطح منفعة
عامة لا يجوز استغلالها تجاريا ، وكما تعلم سيادتك طبقا
دي جريمة وتكييفها القانوني اغتصاب حيازة وعقوبتها
الحبس لمدة قد تصل إلى ثلاث سنوات

- انت محام !!؟

هكذا سأل الضابط الأستاذ حامد الذي رد بثقة :

- لا يا باشا أنا سيادتك حامد حواس ، نائب مدير
إدارة المتابعة في الهيئة القومية للصرف الصحي فرع
المنصورة .. كما إنني واحد من السكان المتضررين من
اغتصاب حقهم في المنفعة العامة للسطح .. كيف يقوم
المالك يا سعادة الباشا بتأجير السطح لغرض تجارى..!!؟

هذا اعتداء صارخ على المنفعة العامة للسكان ..
ممكن بعد كذا يقوم بتأجير الأسانسير أو مدخل العمارة !!..
هي البلد سايبة ولا ايه؟!

هكذا تساعل الأستاذ حامد بطريقة مسرحة وهو
ينظر محرضا إلى السكان المتجمعين الذين أثارته كلماته
فتململوا وهمهموا معترضين وبانت الحيرة على الضابط
الشاب ففكر قليلا ثم قال بقرع :

- طيب يا الله كلكم على القسم .. u



كان الدكتور حسن رشيد من أعلام القانون في
مصر والعالم العربي ، وهو مثل طه حسين وعلي بدوي
وزكي نجيب محمود وغيرهم ، واحد من متقفي الأربعينيات
الكبار الذين أتموا دراساتهم العليا في الغرب وعادوا إلى
بلادهم ليطبقوا ما تعلموه هناك بحذافيره في الجامعة
المصرية ، وبالنسبة لهؤلاء كان "النقد" و " الغرب " كلمتين
بمعنى واحد تقريبا ، بكل ما يعنى ذلك من سلوك إيجابي
وسلبى ، كان لديهم جميعا ذلك التقديس للقيم الغربية
العظيمة: الديمقراطية والحرية والعدل والعمل الجاد
والمساواة ، وكان لديهم ، أيضا ، ذلك التجاهل لتراث الأمة

والاحتقار لعاداتها وتقاليدها باعتبارها قيودا تشدنا إلى
التخلف وواجبنا أن نتخلص منها حتى تتحقق النهضة ..
.. تعرف الدكتور رشيد أثناء دراسته في باريس
إلى " جانيت " الفرنسية وأحبها ثم اصطحبها معه إلى مصر
وتزوجها وأنجبا ابنهما الوحيد " حاتم " وعاشت الأسرة حياة
غربية قلبا وقالبا فلا ينكر حاتم أبدا أنه رأى أباه الدكتور
رشيد يصلي أو يصوم ، كان الغليون لا يفارق فمه والنيبيذ
الفرنسي دائما على مائدته وأحدث الاسطوانات الصادرة في
باريس تتردد في أنحاء البيت والفرنسية لغة التخاطب الغالبة
في البيت ، وعلى طريقة الغربيين كان كل شئ في حياة
الأسرة يتم بناء على موعد وتخطيط ، حتى لقاء الأصدقاء
والأقارب وكتابة الخطابات الشخصية كان الدكتور رشيد
يخصص لها ساعات محددة كل أسبوع والحق أنه بالإضافة
إلى قدراته العقلية الفذة كان يملك طاقة مذهلة على العمل
المواصل واستطاع في عقدين اثنين أن يحقق طفرة حقيقية
في دراسة القانون المدني المصري ولمع نجمه مع الأيام
حتى تولى عمادة كلية الحقوق في جامعة القاهرة ثم اختارته
الجمعية القانونية الدولية في باريس كواحد من أبرز مائة
قانوني في العالم ، ولأنه كان غارقا دائما في أبحاثه
ومحاضراته ولأن عمل زوجته جانيت ك مترجمة في السفارة
الفرنسية كان يشغل كل وقتها فقد قضى ابنهما حاتم طفولة

حزينة ووحيدة حتى أنه ، على عكس الأطفال جميعا ،
كان يحب أيام المدرسة ويكره الأجازة الصيفية الطويلة التي
يقضيها وحيدا بلا أصدقاء يلعب معهم ، ومع الوحدة
المؤلمة كان هناك الشعور بالاغتراب والتشوش الذهني الذي
يعاني منه أبناء الزواج المختلط .. وكان حاتم الصغير يقضى
وقتا طويلا مع الخدم وكثيرا ما يبعث به أبواه (المشغولين
دائما) بصحبة أحد الخدم إلى نادى الجزيرة أو السينما ،
ومن بين خدم البيت الكثيرين أحب حاتم الصغير إدريس
السفرجى ، بقطانه الأبيض الفضفاض وحزامه العريض
الأحمر وطربوشه الطويل ، قامته الطويلة وجسده الممشوق
القوى ، وجهه الأسمر الوسيم وعينيه اللامعتين الذكيّتين
وابتسامته المشرقة التي تسطع فيها أسنانه الناصعة
المنتظمة ، تعود إدريس أن يجلس مع حاتم في حجرته
الكبيرة المطلّة على شارع سليمان باشا ، يلعب معه بلعبه
ويحكي له حكايات الحيوانات ويغنى له الأهازيج النوبية
الجميلة ويترجم له معانيها وكان صوت إدريس يتهدج
والدموع تلمع في عينيه عندما يحدثه عن أمه وأخوته وقريته
التي أخذوه منها وهو صغير ليعمل في البيوت ، وقد أحب
حاتم إدريس وتوطدت علاقتهما حتى صارا يقضيان معا
ساعات طويلة كل يوم وعندما بدأ إدريس يقبل حاتم في
وجهه ورقبته ويهمس له "أنت جميل .. أنا أحبك .." لم

يشعر حاتم بنفور أو خوف منه بل أثارت على نحو غامض تلك اللفحة الحارة التي تتركها أنفاس صديقه على جسده ، واستمرت بينهما القبلات حتى طلب منه إدريس يوما أن يخلع ثيابه ، كان حاتم حينئذ في التاسعة من عمره وشعر بالخجل والارتباك لكنه في النهاية أذعن لإلحاح صديقه الذي أثاره جسده الأبيض الناعم لدرجة أنه أثناء اللقاء كان يشهق من اللذة ويهمس بعبارات نوبية غير مفهومة ، وبرغم شهوة إدريس وعنفوانه فقد دخل إلى جسد حاتم برفق وحذر وطلب إليه أن يخبره إذا أحس بأدنى ألم ، ونجحت هذه الطريقة حتى أن حاتم وهو يسترجع الآن لقاءه الأول بإدريس يعاوده ذلك الإحساس الغريب الشانك الذي عرفه يومئذ لأول مرة لكنه لا يذكر أبدا أنه تآلم ، وبعد ما فرغ إدريس أدار حاتم ناحيته وقبّله بحرارة في شفتيه ثم نظر في عينيه وهمس:

- " لقد فعلت ذلك لأنني أحبك .. لو كنت تحبني إياك أن تخبر أحدا بما حدث .. لو قلت لهم سيضربونك ويطردونني وقد يحبسني أبوك في السجن أو يقتلني فلا تراني بعد ذلك أبدا " ..

وامتدت علاقة حاتم بإدريس سنوات حتى مات الدكتور رشيد فجأة بانفجار في المخ من فرط إجهاده في العمل ، واضطرت أرملة إلى الاستغناء عن خدم كثيرين

ضغطا للنفقات ، وغادر إدريس البيت وانقطعت أخباره ، وأثرت غيبته في نفسية حاتم لدرجة أنه حصل ذلك العام على مجموع ضئيل في الثانوية العامة وانغمس بعد ذلك في حياته الشاذة الصاخبة ومنذ عامين توفيت أمه فحرر بذلك من آخر قيد على لذاته وقد ورث دخلا ثابتا يكفل له حياة رغدة (بالإضافة إلى مرتبه المعقول من الجريدة) وقام بتجديد شقته الكبيرة في عمارة يعقوبيان ليخلصها من شكلها التقليدي فباتت أقرب لصومعة فنان بوهيمي منها إلى منزل أسرة مستقرة ، صار بمقدوره الآن أن يستضيف العشاق في فراشه لأيام وأحيانا لشهور ، وقد عرف حاتم رجالا كثيرين وفارقهم لأسباب مختلفة لكن شهوته الأثمة الدفينة ظلت دائما مرتبطة بإدريس السفرجي ، وكما يبحث الرجل في النساء عن صورة عشيقته الأولى التي عرف معها اللذة لأول مرة ، يفنئ حاتم في كل الرجال عن إدريس ، الذكر البدائي الفظ الذي لم تهذبه الحضارة بكل ما يمثل من صلابة وخشونة وعنفوان ، وهو لا ينقطع أبدا عن التفكير في إدريس وكثيرا ما يستعيد ، بحنين لاذع لذيق إحساسه وهو مستلق على بطنه فوق أرض الحجرة (وكأنه أرنب صغير مستسلم لمصيره) يتابع بعينيه الزخارف الفارسية المنقوشة على السجادة بينما يلتحم به جسد إدريس الساخن المفعم فيعتصره ويذيقه ، والغريب أن لقاءاتهما

الجنسية ، على كثرتها ، تمت دافعا على أرض
الحجرة و لم يصعدا أبدا إلى السرير ، ويرجع ذلك غالبا إلى
شعور إدريس بضالته كخادم لا يقوى نفسيا على استعمال
فراش سيده حتى وهو يضاجعه ..

.. وقد حدث ذات ليلة ، من شهور ، أن استبد
السكر بحاتم واجتاحته شهوة عارمة فنزل يتجول في وسط
البلد في الساعة العاشرة (وهذه ساعة تغيير ودية الحراسة
لجنود الشرطة التي يعرفها كل الشواذ في وسط البلد
ويسعون خلالها إلى التقاط عشاقهم من بين الجنود) أخذ
حاتم يتفقد العساكر البسطاء وهم يتأهبون للانصراف من
الوردية حتى رأى عبد ربه (الذي يشبه إدريس كثيرا)
فاصطحبه معه في السيارة ومنحه مالا وظل يداعبه حتى
تمكن من إغوانه ، وقد بذل عبد ربه بعد ذلك محاولات
عديدة وعنيفة للتخلص من علاقته بحاتم الذي كان يدرك ،
بخبرته الطويلة في الغرام الشاذ ، أن الشاذ (البرغل)
المتكدي مثل عبد ربه يمتلكه عادة شعور هائل بالإثم سرعان
ما يتحول إلى مرارة وكراهية موداء تجاه الشاذ (الكوديانا)
الذي يغويه ، ويعرف أيضا أن التجربة الشاذة مع تكرارها
وتشوق لذتها تتحول شيئا فشيئا إلى شهوة أصيلة عند الشاذ
البرغل مهما كرهها ونفر منها في البداية ، وهكذا ظلت
علاقة حاتم وعبد ربه تتراوح بين الوصل ومحاولات القطيعة

وبالأمس غادر عبده بار شينو هربا من حاتم لكنه لحق به وألح حتى اصطاحبه إلى الشقة وشربا معا قبل الحب زجاجة كاملة من النبيذ الفرنسي القوي ، وها هو حاتم في الصباح يستلقي مسترخيا في الحمام مستسلما لزخات الماء الساخن المندفعة من الدوش التي يحس بها على جسده وكأنها جيوش من النمل اللذيذ ، وهو يسترجع مبتسما ليلته الحارة مع عبده الذي ألهمت شهوته الخمر فاعتصر جسده في دفقات عديدة متلاحقة ، وقف حاتم يجفف نفسه أمام المرأة وينظف أجزاءه الحميمة بعناية ويرطبها بالكريم المعطر ، ثم تدثر بروب وردى من الكشمير وخرج من الحمام إلى حجرة النوم وأخذ يتأمل عبده وهو نائم : وجهه الأسمر الداكن وشفاه الغليظتان وأنفه الزنجي الأفطس والحاجبان الثقيلان اللذان ينحان وجهه طابعه الصارم ، انحنى عليه وقبله فاستيقظ وفتح عينيه ببطء .. صباح الخير .Bon jour..

هكذا هم حاتم برقة وهو يبتسم لعبده الذي نهض قليلا واستند إلى ظهر السرير فأنكشف صدره العريض الداكن تغطيه غابة من الشعر الكثيف ولاحقه حاتم بالقبلات لكنه أبعد وجهه بيده ثم أطرق وقال بمرارة وكأنه يولول :
- يا حاتم بك أنا رحت في داهية .. بكره الضابط يحولنى على التأديب ..

- يووه يا عبده .. نرجع نتكلم على الضابط
تاني .. قلت لك ولا يهمك .. أنا عرفت واسطة للضابط ..
لواء مهم جدا في الوزارة

- على بال ما تكلم الواسطة اكون أنا مرمى في
الليمان .. امرأتي وابني الصغير في البلد عايشين عالة يا
مسعادة بك .. نفسي أخلص تجنيد النهارده قبل بكره ولو
انحبست عيالي يضيعوا

رمقه حاتم بحنان وابنسم ثم نهض ببطء إلى حقيبة
يده الصغيرة وأخرج ورقة

بمائة جنيه دفعها إليه وقال :

- خذ .. ابعتهم لزوجتك وابنك .. ولك على أي
حاجة يطلبوها أعملها لك .. وبكره أقابل اللواء قريبي ونكلم
الضابط عليك .. بس وحياتي عندك ما تضايق نفسك يا
عبده أطرق عبده وهمس بكلمات شكر واقترب حاتم منه
حتى التصق جسداهما تماما وقال لنفسه بالفرنسية وهو يندنو
من شفتيه الغليظتين : " ياله من صباح جميل ."

• • •

المواطن طه محمد الشاذلي
عمارة يعقوبيان - ٢٤ شارع طلعت حرب - القاهرة

تحية طيبة ..

بالإشارة إلى شكاكم المقدمة إلى رئاسة الجمهورية
بشأن استبعادكم من اختبار القبول بكلية الشرطة .. نحيطكم
علما بأنه بعد مراجعة الموضوع مع السيد اللواء مدير كلية
الشرطة ، تبين لنا عدم صحة موضوع الشكوى ..
تمنياتنا بالتوفيق

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

اللواء حسن يازرعه

مدير إدارة شكاوى المواطنين برئاسة الجمهورية

• • •

اعتاد الجيران سماع أصوات الشجار بين زكى
الدسوقي وأخته دولت ، كان ذلك يحدث كثيرا ولم يعد مثيرا
للدهشة أو الفضول ، لكن المشاجرة هذه المرة كانت مختلفة ،
شيئا أقرب إلى انفجار مروع ، صرخات وشتائم قبيحة
واشتباكات بالأيدي تراءت أصواتها العالية إلى السكان

ففتَحُوا الأبواب وخرجوا مستَظْلَعِينَ وتَمَلَّصَ بعضهم
استعداداً إلى التَّدخُل .. صرختِ دولتُ بصوتِ غاضِبٍ:

- ضيَّعتِ الخائِمَ الأَكْمَاطُ يا وسخ ..!

- احترَمِي نَفْسَكَ يا دولتُ ..

- تَلَقَّيْكَ أَعْطَيْتَهُ لَوَاحِدَةَ مومِس من صَاحِبَاتِكَ ..

- أَقُولُكَ احترَمِي نَفْسَكَ ..

- أَنَا مُحترَمةٌ غَضِبَا عَنْكَ .. أَنْتِ اللَّيْ مَهزَأُ

وَمُسخرَةٌ .. أَطْلَعُ بِهِ بِرْتِي يَا بَنِي الكَلْبِ يا شَعَام ..

- دِي شَقَّتِي أَنَا

هَكَذَا صَاحَ زَكَّى بِكَ بِصَوْتٍ مِنْهُكَ

- لَا يَارُوحِي دَا بَيْتِ أَبُويَا الْبَاشَا الْمُحترَمِ اللَّي

نَجَسْتَهُ بوسَاخَتِكَ ثُمَّ تَتَابَعْتَ أَصَوَاتِ لَطَمَاتٍ وَعِرَاكٍ وَانْفَتَحَ

بَابُ الشَّقَةِ وَلَاحَظَتْ دَوْلَتُ تَدْفَعُ زَكَّى إِلَى الْخَارِجِ وَهِيَ

تَصِيحُ:

- أَخْرِجْ بِهِ .. مَشْ عَاوِزَهُ أَشُوفُ خَلَقَتَكَ تَانِي ..

فَاهَم .. بِهِ ..

وَتَقَدَّمَ زَكَّى بِكَ إِلَى الْخَارِجِ وَلَا حَظَّ تَجْمَعُ الْجِيرَانُ

فَالْتَفَتَ وَرَاءَهُ وَقَالَ :

- حَاضِرُ يَا دَوْلَتُ .. أَنَا خَارِجٌ ..

وَصَفَقَتْ دَوْلَتُ الْبَابَ بِقُوَّةٍ وَسَمِعَ صَوْتَ الْمَزَلَّاجِ

وَهِيَ تَغْلِقُهُ وَاقْتَرَبَ الْجِيرَانُ مِنْ زَكَّى بِكَ وَقَالُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي

يحدث لا يليق أبدا ومهما كانت الخلافات عيب على
ناس محترمين مثل زكى بك وأخته دولت أن يتشاجرا بهذه
الطريقة .. وأخذ زكى بك يهز رأسه مبتسما في حزن وهو
ينسحب من المكان ، وقبل أن يدخل إلى المصعد قال
للجيران بلهجة معتزة ودودة :
- آسف لإزعاجكم يا جماعة .. دا مجرد سوء تفاهم .. وان
شاء الله ينتهي على خير ..



القصص الكثيرة المتوالية عن كمال الفولي تؤكد أنه
نشأ في أسرة فقيرة للغاية من شبين الكوم محافظة المنوفية
وكان برغم الفقر في غاية الذكاء والطموح حتى حصل على
الثانوية العامة عام ١٩٥٥ بترتيب متقدم على مستوى القطر
وانخرط في العمل السياسي بمجرد التحاقه بكلية الحقوق ..
انضم كمال الفولي إلى كافة تنظيمات السلطة بالترتيب : هيئة
التحرير والاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي والتنظيم
الطليعي وبعد ذلك منبر الوسط وحزب مصر وأخيرا الحزب
القومي ، وخلال كل هذه التحولات كان دائما أشد
المتحمسين لمبادئ حزب الحكومة وأعلامهم صوتا ، في
العهد الناصري ألقى محاضرات وكتب مؤلفات في حتمية

التحول الاشتراكي وضرورته التاريخية ولما
انقضت الدولة إلى الرأسمالية صار من أشد أنصار
الخصخصة والاقتصاد الحر ومُن تحت قبة البرلمان حملة
ضارية شهيرة ضد القطاع العام والأفكار الشمولية عموماً ،
ولعله أحد السياسيين المصريين القلائل الذين استطاعوا
الاحتفاظ بمقعد في البرلمان لأكثر من ثلاثين عاماً متصلة ،
صحيح أن الانتخابات في مصر يجري دائماً تزويرها
لمصلحة الحزب الحاكم لكن الصحيح أيضاً أن الفولي يتمتع
بموهبة سياسية حقيقية كانت ستُمكنه حتماً في مجتمع
ديمقراطي من تولي أرفع مناصب الدولة لكن هذه الموهبة
الأصيلة نفسها ، كما يحدث لمواهب كثيرة في مصر ،
انحرفت وتشوّهت واختلطت بالكذب والنفاق والدسائس حتى
صار اسم كمال الفولي يستدعي إلى ذهن المصريين معنى
الفساد والنفاق وقد ترقى في المناصب الحزبية حتى تولى
أمانة التنظيم في الحزب القومي وصار المتحكم الأول في
الانتخابات في مصر كلها ، فهو يرشح ويستبعد من يشاء
من مرشحي الحزب و يشرف بنفسه على تزوير الانتخابات
من الإسكندرية إلى أسوان ويتقاضى رشاوى كبيرة من
المرشحين ليضمن تزوير الانتخابات لصالحهم وفي نفس
الوقت يغطي فساده بالأعيب كبيرة : تبادل منافع وتسهيلات
تدر الملايين على كبار السياسيين وتقارير أمن ووثائق سرية

تثبت انحرافات المسئولين يحتفظ بها الفولي ليستعملها في ابتزازهم أو القضاء عليهم إن لزم الأمر ، وفي كافة الاجتماعات السياسية سواء في مجلس الشعب أو الحزب القومي ، يسكت الجميع إذا تكلم الفولي ، بل إن نظره صارمة واحدة منه تكفي لاصابة أي مسئول بالهلع .. وله في هذا السياق حوادث شهيرة قام فيها بذبح مسئولين كبار على الملأ لأنهم تكلموا بغير ما يرضيه ، مثال ذلك الحملة الشعواء التي قادها من سنوات (لحساب مسئولين كبار) ضد الدكتور الغمراوي محافظ البنك المركزي والتي أدت إلى إقالته في النهاية ، ومثال أقرب : ما حدث في العام الماضي مع وزير الأوقاف ، الذي كان يتمتع بشعبية ما جعلته يتوهم أنه قوى ومؤثر فقام في اجتماع المكتب السياسي للحزب وهاجم الفساد السياسي بشدة وطالب بتطهير الحزب من المنحرفين والمتربحين من مناصبهم ، وقد أوما الفولي للوزير لكي ينهي كلمته لكنه استمر غير عابئ به ، عندئذ قاطعه الفولي مستهزئاً وهو يلتفت حوله إلى الحاضرين بطريقة مسرحية :

- الله .. خبر إيه يا معالي الوزير ؟!.. لما سيادتكم حريص على محاربة الفساد لهذه الدرجة .. ابدأ بنفسك يا أخي .. أنت اقترضت عشرة مليون جنيه من بنك التنمية وبقي لك خمس سنوات رافض التسديد .. على فكرة ،

المسؤولين في البنك ناويين يرفعوا قضية ويعملوا لك
فضيحة ..

عندئذ امتنع الوزير وجلس في صمت وسط تعليقات
الحاضرين وضحكاتهم ..



كل هذا يعرفه الحاج عزام جيدا ومن هنا ما أن قرر
ترشيح نفسه في انتخابات مجلس الشعب حتى طلب موعدا
من كمال الفولي الذي تلكأ بضعة أسابيع ثم حدد له أخيرا
موعدا في مكتب ابنه ياسر الفولي المحامي في شارع شهاب
بالمهندسين ، وبعد صلاة الجمعة ذهب الحاج عزام وابنه
فوزي إلى الموعد ، كان المكتب خاليا إلا من أفراد الحراسة
وكمال الفولي وولده ياسر ، وتعانق عزام والفولي وتبادلا
الدعوات والمجاملات والدعابات ، وبدا الاثنان أقرب إلى
رفيقين قديمين بينهما ود وتقهم وتقدير ، وبعد حديث طويل
متشعب جاء بمثابة تمهيد ، دخل عزام إلى الموضوع
فتحدث عن حبه للناس ورغبته في خدمتهم وقال أكثر من
حديث شريف عن ثواب من يسعى إلى قضاء حوائج
المسلمين ، وكان الفولي يهز رأسه مؤمنا على كلامه حتى
وصل عزام إلى النقطة الحاسمة فقال :

-.. ولذلك فقد استخرت الله وتوكلت عليه ونويت بأمر الله أن أرشح نفسي في الانتخابات القادمة عن دائرتي ، قصر النيل ، وأملّي أن يوافق الحزب القومي على ترشيحي وأنا تحت أمرك يا كمال بك في أية حاجة ..

تظاهر الفولي بالتفكير العميق برغم أنه كان يتوقع ما قاله عزام وكان الفولي يترك في نفس من يراه انطبعا متضاربا: ذكاه وسرعة بديهته وحضوره الطاعني من ناحية، ومن ناحية أخرى جسده البدين وكرشه المتدلي ورابطة عنقه المفكوكة دائما قليلا واللوان ثيابه البذينة غير المتناسقة وشعره المصبوغ بطريقة فجأة ووجهه المكتنز الغليظ ونظراته الوقحة الشرسة الكاذبة وطريقته السوقية في الحديث حين يمد ذراعيه أمامه ويحرك أصابع يديه ويهز كتفيه وبطنه وهو يتكلم وكأنه امرأة سوقية ، كل ذلك يجعل منظره فكاها على نحو ما (وكانه يؤدي فقرة لتسليّة المشاهدين) ويترك أيضا في النفس إحساسا مبتذلا كريها..

طلب الفولي من مساعديه ورقة وقلمًا ثم بدأ يرسم ومرّت لحظات وهو منهمك في الرسم حتّى ظن الحاج عزام أن في الأمر خطأ ما لكن الفولي لم يلبث أن انتهى من الرسم ثم أدار الورقة بيديه ناحية عزام الذي فوجئ بأن الرسم يمثل أرنبًا كبيرًا وظل صامتًا فترة ثم سأل بود :

- لا أفهم ما تقصده سعادتك

فرد الفولي بسرعة :

أنت عاوز تضمن النجاح في الانتخابات وتسال عن المطلوب وأنا رسمت لك المطلوب ..

أرنب بحاله ؟! مليون جنيه يا كمال بك ؟! .. دا

كثير جدا

كان عزام يتوقع المبلغ لكنه أثر المساومة لعل

وعسى .. وقال الفولي :

- اسمع يا حاج !!.. تصدق بالله .. ؟!

فردد الحاضرون جميعا " لا اله إلا الله "

- أنا بأخذ في دوانر أقل من قصر النيل مليون

ونصف و ٢ مليون وياسر ابني أهو قدامك يقولك .. لكن

والله العظيم أنا أحبك يا حاج ونفسي تبقى معنا في المجلس

.. وبعدين المبلغ دا لا أخذه وحدي .. أنا بوسطجى أخذ منك

وأوصل لغيرك وأنت سيد العارفين ..

وتظاهر الحاج عزام بالقلق قليلا ثم سأل :

- يعنى لو دفعت المبلغ يا كمال بك أضمن

الانتخابات بأمر الله ؟!

- عيب يا حاج .. انت بتكلم كمال الفولي .. خبرة

برلمانية ثلاثين سنة .. ولا مرشح فيك يا مصر يقدر ينجح

من غير رغبتنا بأمر الله

- أنا سامع عن ناس جامدين ناويين يرشحوا أنفسهم

في قصر النيل

- ولايهكم .. لو اتفقنا على بركة الله تتجح في
قصر النيل ولو نزل ضدك الجن الأزرق .. دي لعبتي يا
حاج

ثم ضحك الفولي وأرجع ظهره إلى الوراء ومسح
بكفه على بطنه الكبير وقال مزهوا :

- الناس الساذجة فاهمين إننا بنزور الانتخابات ..
أبدا .. كل الحكاية إننا دارسين نفسية الشعب المصري
كريس المصريين ربنا خلقهم في ظل حكومة .. لايمكن
لأي مصري يخالف حكومته .. فيه شعوب طبعها تتور
وتتمرد إنما المصري طول عمره يطايطي لأجل يأكل عيش
.. الكلام ده مكتوب في التاريخ ، للشعب المصري أسهل
شعب ينحكم في الدنيا .. أول ما تأخذ السلطة المصريين
يخضعوا لك ويتلوا لك وتعمل فيهم على مزاجك .. وأي
حزب في مصر لما يعمل انتخابات وهو في السلطة لازم
يكسبها لأن المصري لازم يزيد الحكومة .. ربنا خلقه
كده ..

تظاهر عزام بأنه محتار وغير مقتنع بكلام الفولي ثم سأل
عن نظام الدفع فقال ببساطة :

- .. صل على النبي يا حاج .. إذا كان المبلغ نقدي
أنا استلمه ولو كان بشيك تكتبه باسم ياسر الفولي المحامي

وتعمل معه عقد على أية قضية وكأنك موكله فيها ..
انت فاهم طبعاً دى إجراءات شكلية ..

صمت الحاج عزام لحظة ثم أخرج دفتر الشيكات
وقال وهو يفتح قلمه الذهبي:

- طيب .. على بركة الله .. أكتب شيك بالنصف
وبعد النجاح بإذن الله ادفع الباقي

- لا ياحلو عيب .. كده تزعلني .. الكلام دا عمله
مع التلامذة .. النظام عندي سلم واستلم .. ادفع المبلغ كله
وأنا أبارك لك على المجلس وأقرأ معك الفاتحة حالا ..

كانت هذه مساومة أخيرة من عزام ولما فشلت
استسلم وكتب الشيك بمبلغ مليون جنيه و فحصه بدقة كعادته
ومد يده به إلى الفولي الذي أخذه وناوله إلى ابنه ثم نهالت
أساريره وقال بلهجة مرحة :

- مبارك يا حاج .. يالله نقرأ الفاتحة ربنا يكرمنا
ويوفقنا والعقد جاهز مع ياسر ..

وأغمض الأربعة ، الفولي وعزام وولداهما ، أعينهم
وبسطوا أيديهم أمامهم في تضرع وجعلوا يرددون الفاتحة
بصوت هامس ..

• • •

دفع الحاج عزام ان مبلغ إلى الفولى وتخيّل أن الانتخابات قد حسمت لصالحه لكن ذلك لم يكن صحيحاً . فقد اشتعلت المنافسة في دائرة قصر النيل بين أكثر من رجل أعمال يريد كل منهم أن يفوز بمقعد العمال في مجلس الشعب ، وكان أقوى المنافسين للحاج عزام أبو حميدة صاحب سلسلة محلات "الرضا والنور" الشهيرة للملابس وكما يتناظر القطبان المتماثلان في الطبيعة فإن الكراهية الحادة بين الحاجين عزام وأبو حميدة ترجع أساساً إلى تشابههما في نواح كثيرة ، فقد نشأ أبو حميدة مثل عزام عاملاً بسيطاً في ميناء بور سعيد ثم تضخمت ثروته في أقل من عشرين عاماً ليصبح من أكبر المليونيرات في مصر ، وقد سمع الناس عن أبو حميدة لأول مرة من سنوات عندما افتتح سلسلة محلاته الكبرى في القاهرة والإسكندرية ثم غمر الصحف والتلفزيون بإعلانات يتعهد فيها بإعطاء أية سيدة عدة فساتين محتشمة جديدة وأحذية ملونة للرأس ، إذا قررت هذه السيدة الالتزام بالحجاب الشرعي وقامت بتسليم ملابسها القديمة المتبرجة لإدارة المحل تدليلاً على جدتها ، واندثرت الناس وقتها من هذه الدعوة الغريبة وازدادت دهشتهم عندما تسلمت محلات "الرضا والنور" فعلاً الملابس القديمة من عشرات السيدات وسلمتهن بدلاً منها ملابس إسلامية جديدة وغالية بدون مقابل ، ولم يمنع

الغرض النبيل للمشروع من اندساس بعض السيدات
 المحجبات أصلا اللاتي أردن الاستفادة من الملابس المجانية
 فكان يتظاهرن بأنهن لم يتحجبن بعد ويقمن إلي المحل
 ملابس متبرجة لا تخصصهن لئيسلمن ملابس جديدة بدلا منها
 وانتبهت محلات "الرضا والنور" إلى هذا التلاعب فنشرت
 إعلانا في كل مكان تحذر فيه هؤلاء المتلاعبات من عقوبة
 القانون لأن العقد الذي توقعه السيدة التي تتحجب في المحل
 ينص على شرط جزائي يوقع عليها إذا كانت كاذبة ..
 وبرغم هذه المخالفات فقد حقق المشروع نجاحا هائلا وساعد
 على تحجب آلاف المسلمات وظهرت في الصحف
 موضوعات تسجيلية (مدفوعة الأجر) عن المشروع صرح
 فيها الحاج أبوحميدة بأنه قد نذر مبلغا كبيرا لينفقه في الخير
 ابتغاء لوجه الله سبحانه وتعالى وأنه بعد استشارة العلماء
 وجد من أفضل الطرق التي يخدم بها الدعوة أن يساعد
 المسلمات على التحشم كخطوة أولى نحو الالتزام الكامل
 بشرع الله الحنيف وعندما مثل كم يكلفه توزيع آلاف
 الملابس المحتشمة الجديدة مجانا رفض أبو حميدة أن يذكر
 ما ينفقه وأكد أنه يحسب هذا المبلغ عند ربنا سبحانه
 وتعالى، ولاشك أن مشروع الحجاب قد قفز باسم أبوحميدة
 إلى عالم الشهرة وجعله من نجوم المجتمع في مصر لكن
 الشائعات لم تلبث أن ترددت بقوة بأن أبوحميدة من أكبر

تجار الهيروين وأن مشروعه الإسلامي واجهة لغسيل الأموال كما أن الرشاوى التي يدفعها لكبار المسئولين تمنع القبض عليه ، وقد بذل أبو حميدة جهدا كبيرا لكي يفوز بترشيح الحزب القومي عن دائرة قصر النيل وعندما أعلن الحزب ترشيح الحاج عزام غضب أبو حميدة بشدة وبذل مساعي ملحّة عند الكبار ولكن عبثا فقد كانت كلمة الفولي هي العليا بل إن مسئولوا كبيرا تربطه صداقة حميدة بأبو حميدة استمع إلى شكواه من الفولي ثم ابتسم وقال :

- اسمع يا أبو حميدة .. انت عارف أنني أحبك وأخاف على مصلحتك .. إياك أن تصعد خلافاك مع الفولي . إذا لم تدخل مجلس الشعب هذه المرة فأمامك مرات قادمة بإذن الله ولكن لا تخسر الفولي أبدا لأنه مسنود وواصل فوق ما تتصور ونابه أزرق ولو غضب يعمل لك مشاكل لا تتخيلها ..

لكن أبو حميدة لم يتراجع بل تقدم رسميا كمستقل وأغرق دائرة قصر النيل بمنات المصصقات الانتخابية التي تحمل صورته واسمه ورمزه الانتخابي (الكرسي) وأخذ يقيم كل ليلة مرادفات انتخابية كبيرة في وسط البلد حيث يحدث أنصاره ويخاطب فيهم مهاجما الحاج عزام وملمحا إلى ثروته الحرام وتكالبه على الشهوات (في إشارة لزواجه الجديد) وقد غضب عزام من هذا التعريض وذهب إلى

الفولي وقال له بعبارة صريحة :

" ما فائدة ترشيح الحزب إن لم يمنع شقيمتي على
العلا كل ليلة ؟! " وهز الفولي رأسه ووعد خيرا ثم أدلى
بتصريح في اليوم التالي أبرزته كل الجرائد في صفحاتها
الأولى قال فيه : " إن الحزب القومي له مرشح واحد في كل
دائرة والواجب الحزبي يفرض على أعضاء الحزب جميعا
الوقوف بكل قوتهم خلف مرشحي الحزب .. كما أن أي
عضو يرشح نفسه ضد مرشح الحزب سوف يحاكم حزبيا
 ويفصل بعد انقضاء الانتخابات " ..

وكان التصريح ينطبق بوضوح على أبو حميدة الذي
لم يؤثر فيه التهديد فاستمر في حملته العنيفة ضد عزام
وصارت السراياقات تقام يوميا وتوزع مئات الهدايا على
سكان الدائرة وتتافس الطرفان في حشد الأتباع والمؤيدين
بكل طريقة ونشبت مشاجرات يومية عنيفة أسفرت عن
إصابات كثيرة ، ونظرا للنفوذ الكبير الذي يتمتع به
الغريمان فقد وقفت أجهزة الأمن دائما على الحياد فكانت
قوات الشرطة تصل غالبا إلى مكان المشاجرة بعد
انقضائها أو تقبض بشكل رمزي على بعض المتشاجرين
الذين ما أن يصلوا إلى القسم حتى يفرج عنهم بغير تحقيق ..

لسبب ما ، ارتبطت كلية الاقتصاد والعلوم
 السياسية بالأناقة والرفاهة ، وصار طلابها إذا سئلوا عن
 كليتهم يقولون بثقة : " اقتصاد وعلوم سياسية " .. ينطقون
 بهزهو وغدغدا أكثر (وكأنهم يقولون .. نعم . نحن على
 القمة كما ترى) ولا يعرف أحد سر الهالة التي أحاطت بهذه
 الكلية ، ربما لأنها أنشئت وحدها بعد بقية الكليات بسنوات
 طويلة مما أعطاها طابعا خاصا ، أو لأن الحكومة أقامت
 خصيصا - كما يقال - حتى تلتحق بها ابنة الزعيم جمال
 عبد الناصر ، أو لأن العلوم السياسية تجعل من دارسها على
 علاقة وطيدة يومية بأحداث العالم مما ينطبع على طريقته
 في التفكير والتصرف وأخيرا ، ربما ، لأن هذه الكلية ظلت
 لفترة طويلة البوابة الملكية للعمل في وزارة الخارجية وكان
 أولاد الكبراء يلتحقون بها كخطوة أولى مؤكدة نحو العمل
 الدبلوماسي .. على أن طه السائلي وهو يلصق كربون كلية
 الاقتصاد ، كرجلة أولى في أوراق التنسيق ، لم يدرك بذهنه
 شيء من هذا ، كان أمله في الشرطة قد ضاع للأبد و أحب
 أن يستثمر تفوقه بأقصى ما يمكن .. هذا كل ما في الأمر
 .. وفي اليوم الأول للدراسة عندما مر تحت ساعة الجامعة
 وانتابه ذلك الشعور بالرهبة والجلال وهو يستمع إلى دقائقها
 الشهيرة ثم دخل إلى المدرج واحتواه ذلك الطنين المدوي
 المنبعث من ثرثرة مئات الطلاب واختلاط ضحكاتهم وقد

شرعوا في التعارف وتبادل الأحاديث المرححة ، عندئذ
أحس طه بأنه ضئيل للغاية وسط هذا الحشد الهائل الأشبه
بحيوان خرافي له ألف رأس تنظر عيونها جميعا إليه
وتتفحصه ، وقد وجد نفسه يصعد ليجلس بعيدا في أعلى
المدرج ، وكأنه يختبئ في مكان آمن بحيث يرى الحاضرين
ولا يرونه ، كان يرتدى بنطلون جينز أزرق وفاتلة تى
شيرت بيضاء ، وظل يعتقد حتى نزوله من البيت أن مظهره
أنيق لكنه بعدما رأى زملاءه الطلبة تأكد له أن ملابسه ليست
على ما يرام إطلاقا وأن البنطلون بالذات مجرد تقليد رديء
وبائس للبنطلونات الجينز الأصلية وعزم على إقناع أبيه
بشراء ولو طقم واحد من المهندسين أو الزمالك بدلا من
محلات " الرضا والنور " التي يشتري منها ملابسه
الرخيصة ، وقرر طه في نفسه ألا يتعرف إلى أحد لأن
التعارف معناه تبادل المعلومات الشخصية ، وقد يكون واقفا
وسط مجموعة من زملائه (ومعهم بنات مثلا) ثم يسأله
أحدهم عن مهنة أبيه ، ماذا يقول عندئذ ؟ .. ثم سيطر عليه
شاحس غريب بأن يكون أحد هؤلاء الطلاب الجالسين في
المدرج ابنا لأحد السكان في عمارة يعقوبيان وقد يكون طه
قد اشترى له مرة علبة سجانر أو غسل سيارته وراح يتخيل
ابن الساكن المجهول عندما يجد ابن البواب زميلا له في
نفس الكلية ، ماذا يحدث حينئذ ؟ .. أخذ يفكر على هذا

النحو ومضت المحاضرات واحدة تلو الأخرى حتى ارتفع أذان الظهر وقام بعض الطلاب إلى الصلاة فتبعهم طه إلى مسجد الكلية ولاحظ - بارتياح - أنهم فقراء مثله ويبدو على معظمهم الأصل الريفي ، وقد شجعه ذلك بعد انقضاء الصلاة على أن يسأل أحدهم :

- " انت في سنة أولى ؟ .. "

فاجابه مبتسما بود :

- " إن شاء الله .. "

- اسمك ايه ؟ ..

- خالد عبد الرحيم .. من أسبوط .. وانت ؟

- .. طه الشاذلي .. من مصر هنا ..

كان هذا أول تعارف لطله والحق أنه منذ اللحظة الأولى ، وكما انفصل الزيت فورا عن الماء مشكلا طبقة منعزلة فوقه ، انعزل الطلاب الأغنياء عن الفقراء وتكونت شلال متعددة ومغلقة من خريجي مدارس اللغات وأصحاب السيارات الخاصة والملابس المستوردة والسجائر الأجنبية وقد انجذب لهؤلاء أجمل البنات وأكثرهن أناقة ، أما الطلاب الفقراء فأخذوا يتلاصقون كالفران المذعورة ويتهايمسون على استحياء وفي أقل من شهر كان طه قد صاحب مجموعة المسجد كلها وظل أقربهم لقلبه خالد عبد الرحيم : بقامته القصيرة وجسده النحيل الجاف كعود القصب وسمرته

الغامقة ونظارتـه الطـيـبـة الرخيصة ذات الإطار الأسود
 التي تضيء على وجهه طابعا جادا رصينا فيبدو بملابسه
 الكلاسيكية المتواضعة أشبه بمدرس إلزامي حديث التخرج ،
 أحبه طه جدا ربما لأنه فقير مثله أو هو في الحقيقة أفقر منه
 (تشهد بذلك جواربه المرتقة التي تتكشف دائما أثناء الصلاة)
 وأحبه أيضا لأنه عميق التدين وعندما يصلي كان يقف ،
 مستحضرا الله بمعنى الكلمة ، يضع يديه معقودتين ناحية
 القلب ويحنى رأسه في خشوع كامل حتى يهيا لمن يراه
 عندئذ أنه لو شب حريق أو أطلق الرصاص بجواره لما
 صرفه ذلك عن صلاته لحظة واحدة ، وكم تمنى طه لو أنه
 يصل إلى مثل إيمان خالد وحبه للإسلام ، وقد توطنت
 الصداقة بينهما فتصارحا وتبادلا الأسرار واستكرا معا
 ما يرانه كل يوم من طيش بعض الزملاء المترفين
 وانصرافهم عن الدين الصحيح وتبرج بعض الزميلات
 اللاتي يجنن إلى الجامعة وكأنهن ذاهبات إلى حفلة رقص ،
 ولقد عرف خالد صديقه طه إلى أصدقاء من المدينة
 الجامعية ، ريفيين وطيبين ومتدينين وفقراء جميعا ، وصار
 طه يزورهم مساء كل خميس ، يصلي معهم العشاء ويسهر
 معهم يتسامرون ويتناقشون والحق أنه أفاد كثيرا من هذه
 المناقشات ففهم لأول مرة أن المجتمع في مصر مجتمع
 جاهلية لا مجتمع إسلام لأن الحاكم يعطل شرع الله

وحرّمات الله تتّهك على الملأ وقانون الدولة يسمح
بالخمر والزنا والربا وعرف أيضا معنى الشيوعية التي هي
ضد الدين والجرائم الرهيبة التي ارتكبها نظام عبد الناصر
في حق الإخوان المسلمين ، وقرأ معهم كتباً لأبي الأعلى
المودودي وسيد قطب ويوسف القرضاوي وأبى حامد
الغزالي .. وبعد عدة أسابيع جاء ذلك اليوم ، عقب مهرة
ممنّعة مع أصدقاء المدينة قاموا يودعونه كالعادة وعند الباب
سأله خالد عبد الرحيم فجأة :

- أين تصلي الجمعة ياطه ؟ ..

- في مسجد صغير قريب من البيت

.. وتبادل خالد نظرة مع الاخوة ثم قال بمرح :

- اسمع ياطه لقد قررت أن أكسب ثواباً فيك ..

غدا انتظرني الساعة العاشرة في ميدان التحرير أمام قهوة
على بابا .. سوف نصلي معاً في مسجد أنس بن مالك
واعرفك إلى فضيلة الشيخ شاكر بآنن الله ..



قبل أذان الجمعة بساعتين كاملتين ، امتلأ مسجد
أنس بن مالك عن آخره بالمصلين ، كانوا جميعاً من الطلبة
الإسلاميين بعضهم يرتدى الملابس الإفرنجية ومعظمهم
بالزّي الباكستاني : الجلباب أبيض أو أزرق يصل إلى أسفل

الركبة وتحتة بنظنون من نفس اللون وعلى الرأس
 عمامة بيضاء يتدلى طرفها عند مؤخرة الرقبة ، هؤلاء
 جميعا من محبي الشيخ محمد شاكِر وأتباعه وهم ييكرُون
 إلى المسجد يوم الجمعة ليحجزوا أماكنهم قبل الزحام
 ويقضون الوقت في التعارف وقراءة القرآن والمناقشات
 الدينية ، أخذوا يتزايدون حتى ضاق بهم المكان وأخرج
 المسئولون عن انجام عشرات الأبسطه وفرشوها في
 الساحة المواجهة للجامع فامتلت عن آخرها بالمصلين حتى
 تعطل المرور تماما ، حتى المقصورة العلوية للمسجد
 المخصصة للطلّابات برغم كونها محجوبة عن النظر إلا أن
 الطنّين القوي الصادر منها دل على أنها مزدهمة عن
 آخرها ، انفتح ميكروفون الجامع فأصدر صريحا عاليا ثم
 صفا الصوت وبدأ أحد الطلاب يرتل القرآن بصوت رخيّم
 خاشع والطلاب ينصتُون إليه بكل جوارحهم ، كان الجو
 أسطوريا وصادقا ونقيا والمشهد البدائي الخشن المتقشّف
 يعيد إلى الذهن أيام الإسلام الأولى وفجأة علا التهليل
 والتكبير وتزاحم الطلاب واقفين ليصافحوا الشيخ شاكِر الذي
 وصل أخيرا ، كان في نحو الخمسين ، ربعة وله لحية خفيفة
 مخضبة بالحناء ووجه لا يخلو من وسامة وعينان عسليتان
 واسعتان مؤثرتان ، وهو يرتدى زيا إسلاميا مثل الطلبة
 يعطوه إزار أسود .. كان يعرف معظم الطلاب المحتشدّين

حوله و أخذ يصافحهم ويعانقهم ويسألهم عن أحوالهم
واستغرق وقتا طويلا حتى صعد إلى المنبر وأخرج من
جيبه سواكا تمسوك به ثم بسم الله فتصاعد التكبير عاليا يرج
جنبات المسجد وأشار الشيخ بيده فساد فورا مسكون كامل ،
وبدا خطبته بحمد الله والثناء عليه ثم قال :

.. أبنائي وبناتي الأحباء ..

لتمنى أن يوجه كل واحد منكم إلى نفسه هذا
السؤال: كم عاما يعيشها الإنسان في هذه الدنيا؟! .. الإجابة:
إن متوسط حياة الإنسان على أحسن الفروض لا يزيد عن
٧٠ عاما .. وهذه فترة لو تأملناها لوجدناها قصيرة للغاية ..
كما أن المرء قد يصيبه في أية لحظة مرض أو حادث
فيموت ، ولو أنك بحثت في معارفك وأصدقائك لوجدت
أكثر من شخص مات فجأة في سن الشباب ، وكل الذين
ماتوا في شبابهم لم يدر بأذهانهم أبدا أنهم سيموتون .. ولو
تابعنا التفكير في هذا الأمر لوجدنا الإنسان في هذه الدنيا
لديه اختياران اثنان لا ثالث لهما : .. إما أن يركز مجهوده
كله في حياته الدنيا القصيرة الفانية التي قد تنتهي في أية
لحظة على غير توقع فيكون مثله مثل رجل أراد أن يشيد
لنفسه بيتا أنيقا فاخرا ، فصنعه من الرمال على شاطئ البحر
وبالتالي يكون البيت معرضا في أية لحظة لأن تأتي موجة
قوية من البحر وتهدمه بسهولة ، هذا هو الاختيار الفاسد ،

أما الاختيار الثاني الذي يدعونا إليه ربنا سبحانه وتعالى فيقضي بأن يعيش المسلم هذه الدنيا باعتبارها مرحلة قصيرة وعابرة في حياة الروح الخالدة ، والذي يعيش حياته بهذا المعنى يكسب الدنيا والآخرة معا ويظل دائما سعيدا مرتاح البال والضمير ، شجاعا لا يخشى إلا ربنا سبحانه وتعالى .. فالمؤمن الحق لا يفزعه الموت لأنه لا يعتبره نهاية الوجود كما يعتقد الماديون وإنما الموت للمؤمن مجرد انتقال الروح من الجسد الفاني إلى الحياة الأبدية ، هذا الإيمان الصادق هو ما جعل بضع منات من المسلمين الأوانل ينتصرون على جيوش الإمبراطوريات الكبرى في ذلك الوقت مثل الفرس والروم ، لقد نجح هؤلاء المسلمون البسطاء في رفع راية الإسلام في كل أنحاء الدنيا بفضل قوة إيمانهم وحبهم الصادق للموت في سبيل الله واحتقارهم العميق لمذات الدنيا الزائلة .. لقد فرض الله علينا الجهاد في سبيل إعلاء كلمته . إن الجهاد فريضة إسلامية مثله مثل الصلاة والصيام بل إن الجهاد أهم الفرائض جميعا لكن الحكام الفاسدين المتهافتين على المال واللذات الذين حكموا العالم الإسلامي في أزمنة الانحطاط تعمدوا ، بمساعدة فقيانهم المنافقين ، أن يستبعدوا الجهاد من فرائض الإسلام لأنهم أدركوا أن تمسك الناس بالجهاد سوف ينقلب عليهم في النهاية ويفقدهم عروشهم ، وهكذا تم - بإلغاء الجهاد -

تفريغ الإسلام من معناه الحقيقي وتحول ديننا العظيم إلى مجموعة طقوس فارغة من المعنى يؤديها المسلم كالألعاب الرياضية ، مجرد حركات بدنية بلا روح .. وعندما ترك المسلمون الجهاد صاروا عبيدا للعالم حريصين عليها هيايين للموت جبناء فغلبهم أعداؤهم وأذلّوهم وكتب الله عليهم الهزيمة والتخلف والفقر لأنهم نقضوا عهدهم معه سبحانه وتعالى ..

.. أبنائي وبناتي الأحباء ..

إن حكامنا يزعمون أنهم يطبقون شريعة الإسلام ويؤكدون في الوقت نفسه أنهم يحكموننا بالديمقراطية .. ويعلم الله أنهم كاذبين في هذا وفي ذلك فالشريعة الإسلامية معطلة في بلادنا المنكوبة ونحن محكومون بالقانون الفرنسي العلماني الذي يبيح السكر والزنا والشذوذ مادام يتم برضا الطرفين بل إن الدولة نفسها تتكسب من القمار وبيع الخمر ثم تضخ مالها الحرام على هيئة مرتبات للمسلمين فتصيبهم لعنة الحرام وينزع الله البركة عن حياتهم، والدولة الديمقراطية المزعومة تقوم بتزوير الانتخابات واعتقال الأبرياء وتعذيبهم لتستمر الزمرة الحاكمة في سدة العرش إلى الأبد .. انهم يكذبون ويكذبون ونحن نقولها لهم عالية مدوية .. لا نريد أمنا اشتراكية ولا

ديمقراطية .. نريدها إسلامية إسلامية .. وسوف
نجاهد ونبذل النفس والنفيس حتى تعود مصر إسلامية ..
الإسلام والديمقراطية نقيضان لا يجتمعان أبدا .. كيف
يجتمع الماء مع النار أو النور مع الظلام !! .. إن
الديمقراطية تعني أن يحكم الناس أنفسهم بأنفسهم ، والإسلام
لا يعرف الاحكام الله ، يريدون أن يعرضوا شرع الله على
مجلس الشعب ليقرر السادة النواب إن كان شرع الله صالحا
للتطبيق أم أنه لا يصلح .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم
إن يقولون إلا كذبا إن شريعة الحق جل وعلا لا تناقش
ولا ينظر فيها بل تطاع وتنفذ فوراً بالقوة ولو كره الكارهون
.. نعالوا يا أبنائي نستحضر الله جميعاً في قلوبنا ، ونحن
في اجتماعنا المبارك هذا ، نعهده عز وجل على أن نخلص
له الدين ، أن نجاهد في سبيله بكل ذرة من كيائنا ، أن نبذل
أرواحنا رخيصة حتى تكون كلمة الله هي العليا ..
تعالى الهفافات والتكبيرات ترج أركان المكان
وتوقف الشيخ عن الحديث وأطروء قليلاً حتى عاد السكون ثم
قال :

أيها الأبناء ...

إن مهمة الشباب الإسلامي اليوم أن يستعيد مفهوم
الجهاد ويعيده إلى أذهان المسلمين وقلوبهم ، وهذا بالتحديد
ما يربع أمريكا وإسرائيل ومعهما حكامنا الخونة ، انهم

يرتعدون خوفا من الصحوة الإسلامية الكبرى التي
تتصاعد كل يوم في بلادنا وتشتد شوكتها ، إن مجاهدين
قلائل من حزب الله وحركة حماس استطاعوا أن يهزموا
أمريكا الجبارة وإسرائيل التي لا تقهر بينما اندحرت جيوش
عبد الناصر الجرارة لأنها حاربت بالدنيا ونسيت الدين ..
ثم بلغ حماس الشيخ مداه فيهدف : " الجهاد الجهاد
الجهاد .. يا أحفاد أبي بكر وعمر و خالد وسعد .. أمل
الإسلام معقود اليوم عليكم كما عقد يوما على أجدانكم
العظام .. فجاهدوا في سبيل الله وطلقوا هذه الدنيا ثلثا كما
طلقها الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، إن الله
ينظر إليكم لتغفروا عهده معكم ، فاثبتوا ولا تتكصروا فتكونوا
من الخاسرين .. إن ملايين المسلمين الذين يذلهم الاحتلال
الصهيوني ويستبيح أعراضهم يهيبون بكم أن تعينوا إليهم
كرامتهم المهدرة .. يا شباب الإسلام إن الصهاينة يسكرون
ويزنون بالبغايا في ضحن مسجدكم الأقصى .. فماذا أنتم
فاعلون ؟! .. "

اشتد انفعال الطلاب ونهض أحدهم من الصف
الأمامي واستدار ناحية الحشد وهتف بصوت متقطع من
فرط الحماس " .. إسلامية إسلامية .. لا شرقية ولا غربية .. "
ورددت الهتاف وراءه مئات الحناجر ثم أخذ الطلاب جميعا
ينشدون نشيد الجهاد بصوت واحد قوى هائل كالرعد

ولعلعت عشرات الزغاريد من مقصورة الطالبات وعلا صوت الشيخ شاكراً وقد بلغ حماسه المدى : ' .. والله اني ارى هذا المكان طاهراً مباركاً تحف به الملائكة ، والله اني ارى معكم دولة الإسلام وقد بعثت قوة شامخة وارى اعداء الأمة وهم يرتعدون فرقا من قوة ايمانكم وسوف يلقي حكامنا الخونة الامعات ، خدام الغرب للصليبي ، نهايتهم العادلة على ايديكم الطاهرة المتوضئة بإذن الله .. '

ثم اقام الصلاة واحتشد وراءه مئات الطلاب فقرأ عليهم بصوت عذب مؤثر من سورة آل عمران : بسم الله الرحمن الرحيم ..

الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن انفسكم الموت إن كنتم صادقين. ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم..



عقب الصلاة اندفع الطلاب لمصافحة الشيخ ثم
افترشوا صحن المسجد في مجموعات رباعية يتعارفون
ويرتلون القرآن ويتدارسون ، ومن خلف المنبر دلف الشيخ
شاكر عبر باب صغير واطى إلى مكتبه الممتلئ على آخره
بطلاب يريدون مقابله لأسباب مختلفة ، اندفع الموجودون
ناحيته وعانقوه وهم بعضهم يتقبل يده لكنه سحبها في حسم
وجلس يستمع باهتمام إلى مسألة كل طالب ويدور بينهما
حديث هامس ينصرف إثره الطالب .. وفي النهاية لم يتبق
في الحجرة سوى بضعة طلاب ومعهم خالد عبد الرحيم
وطه الشاذلي .. كان هؤلاء المقربين إلى الشيخ الذي أشار
إلى أحدهم فنهض وأغلق باب المكتب بالمزلاج .. وبدأ
الحديث طالب ضخمة الهيئة طويل اللحية فقال للشيخ بصوت
عال متحمس :

- يا مولانا ليس هذا تحرشا بالأمن .. هم الذين
اعتدوا علينا ، لقد قبضوا على زملائنا من بيوتهم واعتقلوهم
بدون ذنب .. كل ما أدعو إليه احتجاج من أى نوع ..
اعتصام أو مظاهرة من أجل الإفراج عن إخواننا المعتقلين .

وهمس خالد لطفه مشيراً إلى الطالب الضخم :
"الأخ طاهر .. أمير الجماعة في جامعة القاهرة كلها ..
طالب في نهائي طب .."
استمع الشيخ إلى الشاب ثم تفكر قليلاً وقال بهدوء
والابتسامة لا يفارقه :

- ليس من الخير استقراز الأمن علينا في هذه
الفترة ، لقد تورط النظام في التحالف مع الأمريكان
والصهاينة بدعوى تحرير الكويت .. وبعد أيام قليلة سوف
تبدأ حرب ظالمة كافرة يقتل فيها المسلمون المصريون
اخوتهم العراقيين بقيادة أمريكا وعندئذ سوف ينقلب الناس
على الحكومة في مصر وسوف تقودهم الحركة الإسلامية
بإذن الله .. أظنك فهمت الآن يا ولدي .. إن مباحث أمن
الدولة تتحرش بنا حتى نرد عليهم فنعطئهم ذريعة لتوجيه
ضربة شاملة للإسلاميين . ألم تلاحظ في خطبة اليوم أنني
اكتفيت بحديث عام ولم أذكر الحرب المنتظرة صراحة؟! ..
ولو أنني هاجمت انضمام مصر إلى التحالف لأغلقوا المسجد
غداً ، وأنا أحتاج إلى المسجد حتى أحشد الشباب عندما تبدأ
الحرب .. لا يا ولدي .. ليس من الحكمة تمكينهم منا الآن .
دعهم حتى يقتلوا اخوتنا المسلمين في العراق بقيادة الكفرة
والصهاينة وسوف ترى بنفسك ما سوف نفعله يومئذ
بإذن الله .

- ومن قال لك أنهم سيتركوننا حتى تبدأ الحرب ؟
.. من أين لك هذه الثقة ؟ .. اليوم اعتقلوا عشرين من
قيادات الحركة الإسلامية وغدا يعتقلون الباقين إذا لم
نقاومهم ..

هكذا رد الشاب بحدة وساد المسكون وتوتر الجو
ووجه الشيخ نظرة لانمة للشاب وقال بنفس الهدوء :
- أدعو الله أن تتخلص يوما من حدة طبعك هذه يا
ولدى .. فالمؤمن القوى من يملك نفسه عند الغضب كما
علمنا الحبيب المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .. أعرف
أن حبك لإخوانك وغيرتك على دينك يدفعاتك إلي هذا
الغضب وأطمئنتك يا ولدى وأقسم لك بالعلي القدير أننا سوف
نضرب هذا النظام الكافر في مقتل ولكن في الوقت المناسب
بإذن الله .

وسكت الشيخ للحظة ثم نظر مليا إلى الشاب
وأضاف بنبرة نهائية :

- .. هذه كلمتي الأخيرة : .. سوف أبذل مساعي
بإذن الله للإفراج عن المعتقلين ولنا والحمد لله أصدقاء في
كل مكان .. أما الاعتصام والتظاهر فأننا لا أوافق عليه في
هذه المرحلة .

أطرق الشاب وبان أنه سكت على مضض ولم يلبث
أن استأن في الانصراف وصافح الحاضرين ولما وصل

إلى الشيخ انحنى عليه وقبل رأسه مرتين ، كأنما ليملحو
أثر المشادة ، ورد الشيخ بابتسامة حانية وربت على كتفه
برد ثم انصرف الطلاب واحدا تلو الآخر ولم يبق سوى طه
وخالد عبد الرحيم الذي اقترب من الشيخ وقال :

- يا مولانا .. ها هو الأخ طه الشاذلي زميلي في
كلية الاقتصاد الذي هدثك عنه .. ولقبك الشيخ مرحبا بطه
وقال :

- أهلا أهلا .. كيف حالك يا ولدي . لقد سمعت
عنك كثيرا من صاحبك خالد ..



اشتد وطيس المعركة في قسم البوليس ..
اتهم حامد حواس ملاك خله في المحضر الرسمي
باغتصاب حيازة الحجرة وطالب بإحالة للمحاكمة ومن
ناحيته ، أرفق ملاك بالمحضر صورة من عقد إيجار
الحجرة و أصر على تحرير محضر آخر اتهم فيه حامد
حواس وعلى السواق بالاعتداء عليه بالضرب وطلب إثبات
إصاباته فارسلوه مع أمين شرطة إلى مستشفى أحمد ماهر
وعاد بتقرير طبي تم إرفاقه بالمحضر ، وقد أنكر على
السواق تماما أنه اعتدى على ملاك واتهمه بافتعال إصابته

.. هذا عن السجل القانوني أما الحرب المعنوية فقد خاضوها جميعا ، كل بطريقته ، فلم ينقطع حامد حراس لحظة واحدة عن تقديم الأدلة القانونية على المنفعة العامة لسكان السطح مستشهدا في ذلك بأحكام النقض .. بينما ارتفع عويل ابمخرون واخذ يتوسل إلى الضابط وقد كشف جلبابه - كعادته في الملمات - عن ساقه المقطوعة وجعل يصيح :

- الرحمة يا سعادة الباشا .. الرحمة .. عاوزين نأكل عيش يقوموا يطرّدونا ويضربونا ..
.. أما ملاك فكان أداؤه في أقسام البوليس فريدا من نوعه وقد أدرك من فترة طويلة أن ضباط البوليس يقيمون أي مواطن بناء على ثلاثة عوامل : مظهره ومهنته وطريقة كلامه .. ووفقا لهذا التقييم يتم احترام المواطن في القسم أو يهان ويضرب .. ولما كانت بدلة ملاك الشعبية المتواضعة لا يمكن أن تترك أي انطباع خاص لدى الضباط كما أن مهنته كترزي قمصان لا تكفل له الاحترام الكافي ، لم يبق إلا طريقته في الكلام .. من هنا تعود ملاك ، إذا دخل قسم الشرطة لأي سبب ، أن يتخذ فورا هيئة رجل الأعمال المشغول بمهام عاجلة وخطيرة ، المنزعج للغاية من تعطيله بهذه الطريقة ، ويتحدث إلى الضباط بلغة أقرب الفصحى تجعلهم يترددون في الاستهانة به . فكان يقول أي كلام ثم

يصيح مؤكدا في وجه الضابط :

- .. سيادتك تعلم ذلك وأنا أعلم ذلك .. والبيك
الأمور يعلم ذلك .. والسيد مدير الأمن أيضا يعلم ذلك ..
وكان استعمال اللغة الفصحى مع ذكر مدير الأمن
(وكانه شخصية قريبة وارد الاتصال بها) أسلوبا فعلا يجعل
الضباط يتراجعون على مضض عن إهانة ملاك .. وهاهم ،
ابسخرون وملاك وحامد حواس واقفون أمام الضابط لا
ينقطعون عن الصياح ومن ورائهم وقف على السواق
السكير ، كعازف كونترباس مخضرم ، يعرف دوره في
العزف فيردد باستمرار بصوته الأجش العميق نفس الجملة
على التوالي :

- يا سعادة الباشا السطح فيه حريم وعائلات
ولا يمكن نقبل فيه صنايعية يجرحوا حرماننا .. يا سعادة
الباشا .

وقد شعر الضابط بحلق بالغ عليهم ولولا خوفه من
العواقب لكان قد أمر المخبرين بتعليقهم على الفلكة وضربهم
جميعا .. لكنه في النهاية أشر على المحضر بالعرض على
النيابة وبات المتنازعون داخل غرفة الحجز حتى اليوم
التالي حين أصدر وكيل النيابة قراره بتمكين ملاك من
الحجرة " وعلى المتضرر اللجوء إلى القضاء .."
وهكذا عاد ملاك منتصرا إلى السطح ثم توسط

أولاد الحلال وصالحوه على غريميه على السواق وحامد
 حواس (الذي تظاهر بالصلح ولم ينقطع عن تحرير الشكاوى
 ضد ملاك ومتابعيها بعناية) .. لكن قرار النيابة كان نقطة
 الانطلاق لملاك الذي قام في أسبوع واحد بتغيير ملامح
 الحجرة تماما : أغلق الباب المفضي إلى السطح وفتح بابا
 كبيرا على الردهة الداخلية حيث علق لافتة كبيرة من
 البلاستيك وكتب عليها بحروف عربية ولاتينية " قميص
 ملاك " وبالإداخل وضعت منضدة تفصيل كبيرة وبضعة
 مقاعد لانتظار الزبائن وعلقت على اللحائط صورة للعدراء
 مريم وصورة أخرى لمقال بالإنجليزية من جريدة
 "النيويورك تايمز" الأمريكية تحت عنوان : "ملاك خله ..
 ترزي مصري عظيم.." يتحدث فيه الصحفي الأمريكي على
 مساحة صفحة كاملة عن مهارة الأسطى ملاك في تفصيل
 القمصان وتتوسط الصفحة صورة كبيرة لملاك والمازورة
 حول رقبتة وهو منهمك تماما في قص قطعة قماش وكأنه لا
 يشعر بأن أحدا يصوره .. ولمن يسأله عن هذا المقال ،
 يحكي ملاك أن رجلا أجنبيا (يتضح فيما بعد أنه مراسل
 النيويورك تايمز في القاهرة) جاءه ذات يوم بغرض تفصيل
 بعض القمصان وفرجنى به ملاك يأتي في اليوم التالي ومعه
 مصورون أجنب وعلوا عنه هذا الموضوع من فرط
 الإعجاب ببراعته في التفصيل .. يحكي ملاك هذه الواقعة

بطريقة عادية ثم يخلس النظر إلي مستمعيه فإذا
وجدهم متعلمين متسككين انتقل حينئذ إلي الحديث في
موضوع آخر (وكان شينا لم يكن) أما إذا بان التصديق
عليهم فإن ملك يستطرد مؤكدا أن الخواجه ألح عليه بشدة
حتى يسافر معه إلي أمريكا ليعمل هناك كترزي قمصان
بأي مرتب يحدده لكنه ، طبعا ، رفض العرض لأنه يكره
الغربة .. ثم ينهي ملك مقطوعته قائلا بزهو وثقة :
- معلوم .. بلاد بره كلها تتشقق على صنایعی

قمصان شاطر ..

ووجه الحقيقة في هذه الواقعة أن بсионى المصور
في ميدان العتبة بمقدوره أن يلفق لأي شخص موضوعا
صحفيا يتحدث عن مهارته في أية جريدة حسب الطلب :
الجريدة العربية بعشرة جنيهات والأجنبية بعشرين ، والأمر
لا يكلف بسیونى إلا اسم الجريدة وصورة الزبون ثم
موضوعات جاهزة عنده يتحدث فيها المحرر عن مفاجأة
كبرى اكتشفها في شوارع القاهرة ألا وهى ورشة الترزي
العبقري فلان أو محل الحاتي الكبير فلان ، يضع بسیونى
كل هذه الأشياء بطريقة معينة في ماكينة تصوير الورق
فتخرج الصورة وكأنها مأخوذة فعلا عن الجريدة ..

ولكن .. ماذا يصنع ملك خله في محله الجديد...؟
انه طبعا يفصل قمصان لكن التفصيل لا يستنفذ إلا

جزءاً قليلاً من نشاطه اليومي ، لأنه باختصار يعمل في كل ما يدر مالا : بدءاً من تجارة العملة والخمور للمهربة حتى سمسة العقارات والأراضي والشقق المفروشة إلى تزويج الشيوخ العرب بفلاحات صغيرات يجلبن عن طريق وسطاء من قرى معينة في الجيزة والفيوم .. إلى تسفير العمال إلى الخليج مقابل شهرين من الراتب ..

وقد جعله هذا النشاط المفتوح حريصاً على جمع المعلومات عن الناس ومعرفة أدق أسرارهم لأن أي شخص مرشح في أية لحظة للتعامل معه ، وقد تساعد معلوماته صغيرة في لحظة معينة فيكون تأثيرها حاسماً على التعامل معه ويبرم الصفقة كما يريد وكل يوم من الضحى وحتى العاشرة مساءً ، يتوافد على محل ملاك كل أنواع البشر : زبائن فقراء وأثرياء وشيوخ عرب وسماسرة وشغالات وفتيات للشقق المفروشة وتجار صغار وقوم سيونجية .. ووسط هؤلاء جميعاً ، يروح ملاك ويجيء ويتحدث ويصيح ويضحك ويداعب ويغضب ويتشاجر ويحلف كاذباً مائة مرة ويعقد الصفقات ، وكأنه ممثل عتيق متألق يزدي باستمتاع دوره على المسرح في رواية تكرب عليها طويلاً حتى أنقنها ..

كان متلاك يرى بثينة السيد كل يوم مرتين ،
 في ذهابها وعودتها من العمل ، وقد أثارت انتباهه من أول
 مرة لأنها جميلة وجسدها مثير كما أن شعورا آخر مستعصيا
 على الوصف تقريبا ، كان يؤكد له أن التعبير الجاد الذي
 ترسمه على وجهها هزل وكاذب وأنها ليست بالاستقامة التي
 تحاول أن تبدو بها ، وقد جمع عنها معلومات فعرف كل
 شيء ، وبدأ يحييها ويسألها عن صحة الحاجة والدينها وإن
 كان محل شئ للملابس الذي تعمل فيه يحتاج إلى رسالة
 قمصان بسعر ممتاز (وعمولتها محفوظة طبعا) وشينا فشيننا
 أخذ يتحدث معها في موضوعات متنوعة : الطقس والجيران
 والزواج .. والحق أن بثينة لم تترشح أبدا إلى متلاك ولم
 تستطع أيضا أن تصده لأنها تترام أمامه كل يوم ولأنه جارهم
 ولأنه يتحدث إليها بأدب مما يقطع عليها فرصة مهاجمته
 كما أنها استسلمت للحديث معه ، أساسا ، لأن شينا كاشفا
 نافذا في سلوكه معها يجعلها تدع عن .. كان يحدثها في أي
 موضوع بينما نبرة صوته ونظراته تصل إليها وكأنه يقول :
 " لا تتظاهري بالاستقامة فقد عرفت كل شيء .."
 .. هذه الرسالة غير المنطوقة ظلت تتضح وتقوى حتى
 تساءلت في نفسها إن كان طلال قد أفشى سر علاقتهما ..
 وأخذ متلاك يقترب منها حتى جاء يوم مدد فيه ، فجأة ،
 نظرة متفحصة بطينة إلى صدرها المكتنز وجسدها البض ثم

سألتها بوقاحة :

- "طلال شئن بيدفع لك كم في الشهر ؟ .."

وشعرت بغیظ بالغ وقررت هذه المرة أن تصده
بمنتهى العنف لكنها في النهاية ، وجدت نفسها تجيبه وهي
تتأشى النظر الى عينيه :

- ٢٥٠ جنيه ..

خرج صوتها متحسرا وغريبا وكان واحدة غيرها
تتكلم وضحك ملاك واقترب منها وقال مطورا هجومه :

- انت عبيطة يابت .. دول ملايم .. اسمعي . أنا
جايب لك شغلة ب ٦٠٠ جنيه في الشهر . بلاش ترددي
دلوقت . فكري على مهلك . يوم يومين وبعدين تعالى ..

• • •

... في بار مكسيم يشعر زكى الدسوقي بالراحة .
 بمجرد أن يعبر ميدان سليمان باشا إلى الممر
 الصغير المواجه لنادى السيارات ، ما أن يدفع بيده الباب
 الخشبي الصغير ذي الفتحات الزجاجية ويجتاز المدخل حتى
 يشعر وكأن آلة الزمن السحرية قد حملته إلى سنوات
 الخمسينيات الجميلة ..: الحوائط المطلية باللون الأبيض
 الشاهق علفت عليها لوحات أصلية لفنانين كبار والإضاءة
 هادئة تتبعث من مصابيح جانبية أنيقة والمناضد المغطاة
 بمفرش بيضاء ناصعة ، لصطفت عليها الأطباق والفوط
 المطوية والملاعق والسكاكين وكنوس زجاجية من كافة
 الأحجام على الطريقة الفرنسية ، المدخل إلى الحمام
 محجوب عن النظر بسائر (بارافان) أزرق كبير وفي أقصى

المكان بار صغير أنيق وإلى يساره بيانو قديم تعزف عليه
 كريستين صاحبة المطعم لأصدقائها ، كل شيء في مكسيم
 يحمل طابع الماضي الأنيق مثل سيارات الرولز وريس
 العتيقة وقفازات السيدات الطويلة البيضاء وقبعاتهن المزودة
 بالريش وأجهزة الجرامافون ذات البوق والإبر الذهبية
 والصور القديمة الأبيض والأسود ذات الإطارات الخشبية
 الداكنة التي نعلقها في حجرات الصالون وننساها ومن حين
 لآخر نتأملها فنحس بحنين وشجن .. صاحبة بار مكسيم :
 مدام كريستين نيقولاس ، يونانية جاوزت الستين ببضعة
 أعوام ، ولدت وعاشت في مصر ، تجيد الرسم والعزف
 على البيانو والكرمان وتغنى ببراعة ، تزوجت عدة مرات
 وعاشت حياة صاخبة مرحة . بدأت علاقتها بزكى بك في
 الخمسينيات بعشق ملتهب انطفأ بعد ذلك ليخلف صداقة
 عميقة راسخة .. ينشغل زكى عنها فلا يراها شهورا طويلة
 وما أن يشعر بالضيق أو تسوء أحواله حتى يذهب إليها
 فيجدها دائما في انتظاره ، تستمع باهتمام وتتصحح بإخلاص
 وتحنو كام .. واليوم ما أن رآته داخلا من باب البار حتى
 هللت وعانقته وقبلته على وجنتيه ثم أمسكت بكتفيه وعادت
 برأسها إلى الوراء وتفحصته قليلا بعينيها الزرقاوين قائلة ::

- تبدو مهموما يا صديقي ؟

ابسم زكى في حزن وكاد أن يقول شيئا لكنه سكت

وهزت كريستين رأسها وكأنها فهمت ثم دعتَه إلى
الجلوس على مائدته المفضلة بجوار البيانو وطلبت زجاجة
من النبيذ الوردي ومزات باردة .. كما تحتفظ الزهرة المجففة
ببعض أريجها القديم لازالت كريستين تحمل آثار الجمال
المنقضي ، جسدها متماسك رشيق وشعرها مصبوغ
ومصفف إلى الوراء والماكياج الهادئ يمنح وجهها المجدد
طابعا راقيا وقورا وعندما تضحك يتراوح وجهها بين الحنان
والنسامح الجديرين بجدة طيبة وتلك الغواية القديمة التي تعود
وتلمع أحيانا للحظة ثم تتطفئ ، تذوقت كريستين النبيذ كما
تقضى تقاليد المائدة ثم أشارت إلى النادل النوبي العجوز
فصب كاسين مترعين ومع رشقات النبيذ حكى لها زكى ما
حدث فاستمعت باهتمام ثم قالت مستتكرة وهى تتطرق
الحروف الفرنسية بطريقتها الموسيقية الناعمة :

- زكى .. أنت تبالغ .. هذه مشاجرة عادية

- دولت طردتني

- تصرف طائش من فرط الغضب . يوم أو اثنين
وتعذر لك . دولت عصبية لكن قلبها طيب . ولا تنس أنك
أضعت خاتمها الثمين وإية امرأة في الدنيا تتسبب في ضياع
مجوهراتها سوف تطردك

هكذا قالت كريستين بمرح لكن ركى ظل واجما
وقال بأسى :

- دولت تخطط من زمان لطردي من الشقة وقد وجدت في ضياع الخاتم ثريعة.. عرضت عليها أن أشتري لها خاتما جديدا لكنها رفضت

- لا أفهم

- دولت تريد أن تستولي على الشقة لنفسها

- لماذا ؟..

- يا صديقتي العزيزة .. لست متدينا كما تعرفين وهناك أشياء لا أفكر فيها أبدا مثل الإرث وتقسيم التراكات نظرت إليه كريستين مستفهمة فاستطرد موضحا وهو يصب كاسا جديدا :

- أنا لم أتزوج ولم أنجب وعندما أموت ستؤول أملاكي إلى دولت وأولادها .. وهي تريد أن تضمن كل شيء لأولادها من الآن .بالأمس انشاء المشاجرة قالت لي: لن أسمح لك بتبديد حقوقنا .. تصوري .. هكذا بمنتهى الوضوح. إنها تعتبر كل ما أملكه حقا لأولادها وكأنني مجرد حارس على أموالي . تريد أن ترثني قبل أن أموت .. هل فهمت الآن ؟!..

- لا يازكي ..

هكذا صاحبت كريستين وبدا أنها ثملت قليلا وحاول زكي أن يتكلم فقاطعته بحرارة :

- .. لا يمكن لدولت أن تفكر بهذه الطريقة

- بعد كل هذا العمر لازلت ساذجة .. لماذا
تدهشين من الشر ؟ .. أنت تفكرين كالأطفال : تتخيلين
الطيبين مبسمين وبشوشين والأشرار وجوههم قبيحة
وحواجبهم غليظة مشعثة .. الحياة أكثر تعقيدا من ذلك بكثير ،
الشر موجود في أطيب الناس وأقربهم إلينا ..
- يا فيلسوفي العزيز أنت تبالغ. اسمع .. ليكون
الرهان بيننا على زجاجة بلاك ليل كبيرة .. سوف اتصل
بدولت الليلة وأصلح بينكما وعندئذ سوف ألزمك بشراء
الزجاجة وإياك أن ترجع في كلامك !!

.. انصرف زكي من بار مكسيم وأخذ يتجول على
غير هدى في وسط البلد ثم عاد إلى المكتب فاستقبله
أبسخرون (الذي كان عالما بما حدث) بتعبير حزين
مناسب على وجهه وأعد له الشراب والمزة بسرعة وحرارة
وكانه يعزيه .. استأنف زكي الشراب في الشرفة وحتى تلك
اللحظة كان لديه أمل في أن يتصالح مع دولت .. كان
يشعر بأنها في النهاية أخته و لا يمكن أن تؤذيه .. وقد مرت
نصف ساعة ثم رن جرس التليفون وجاءه صوت كريستين
مرتبكة:

- " زكي .. لقد اتصلت بدولت .. أنا أسفة .. يبدو
أنها جنت فعلا ومصممة على إخراجك من الشقة .. قالت

إنها غيرت المفتاح وسوف ترسل إليك ثيابك غدا .. أنا
لا أصدق ما يحدث .. تصور إنها تكلمت عن إجراءات
قانونية سوف تتخذها ضدك

- أية إجراءات قانونية ؟!

هكذا سأل زكى وهو يشعر بغصة في حلقه

- لم توضح لي ولكن عليك أن تحذر يا زكى ..

توقع منها أى شئ ..

• • •

فى اليوم التالى حضر أبسخرون ومعه صبى من
الشارع يحمل حقيبة كبيرة بعثت فيها دولت بكل ثياب زكى
وتلاحقت بعد ذلك الاستدعاءات من قسم الشرطة حيث
حررت دولت عدة محاضر بغرض إثبات حيازتها للشقة
وأخذت التعهد على زكى بعدم التعرض لها ، و حاول بعض
الأصدقاء التوسط بين الشقيقتين من أجل الصلح لكن دولت
رفضت واتصل بها زكى تليفونيا عدة مرات فاغلقت
السماعة في وجهه وأخيرا استشار أحد المحامين فأخبره بأن
موقفه ليس سيئا ولا ممتازا لأن الشقة مستأجرة باسم أبيه
ومن حق دولت الإقامة فيها وأكد له أن حبال القانون طويلة
والتصرف الصحيح في مثل هذا الموقف يعتمد على العنف ،
عليه (بكل أسف) أن يستأجر بعض البلطجية ويطرد دولت

خارج الشقة ويمنعها من الدخول ولتجأ هي إلى المحاكم ، هذه الطريقة الوحيدة لحل مثل هذه النزاعات ، وافق زكى على فكرة المحامي واقترح أن يتم كسر الباب وتغيير الكتلون في صباح الأحد عندما تذهب دولت إلى البنك كعادتها وأكد للمحامي أن البواب أو أحدا من الجيران لن يمنعه من تنفيذ الخطّة ، كان يتحدث بحماس وجدية لكنه في أعماق نفسه كان يدرك جيدا أنه لن يفعل أى شئ من ذلك ، لن يستأجر بلطجية ولن يطرد دولت ولن يقاضيه ، لا يمكن أن يفعل ذلك .. يخاف منها !؟ ربما .. انه لا يواجهها أبدا ، دائما ينسحب أمامها وهو بطبيعته ليس مقاتلا، منذ الصغر لا يحب النزاعات والمشاكل ويتجنبها بأي ثمن ، وهو أيضا لن يطردها لأنها أخته ، حتى لو استعاد شقته منها وألقى بها في الشارع لن يكون سعيدا ، إن صراعه معها يحزنه لأنه لا يستطيع أن يفكر فيها كأنسانة شرسة وشريرة مهما فعلت .. لا يستطيع أن ينسى صورتها القديمة التي أحبها ، كم كانت رقيقة وخجول وكم تغيرت ، انه حزين لأن علاقته بأخته الوحيدة قد تدرت إلى هذا الحد وهو يتأمل ما فعلته معه ويتساءل من أين اكتسبت هذه القسوة !؟ كيف هان عليها أن تطرده أمام الجيران وكيف استطاعت أن تجلس أمام الضابط في القسم لكي تحرر محضرا ضد أخيها ، ألم تفكر مرة واحدة في أنه أخوها وأنه

لم يسن إليها أبدا ليكون هذا جزاءه ؟! ثم هل تساوي
 بضعة أملاك أن يخسر الإنسان أهله ؟! صحيح أن الأرض
 التي استردها من الإصلاح الزراعي تضاعف سعرها مرات
 لكنها ستؤول كلها بعد وفاته إلى دولت وأولادها على كل
 حال .. فلماذا المشاكل وقلة القيمة ؟! شعر زكي بالحزن
 بمتد شيئا فشيئا ويلقي بظلاله السوداء على حياته وقضى
 ليالي كاملة وهو عاجز عن النوم ، يسهر حتى مطلع الصبح
 في الشرفة يشرب ويدخن ويتأمل أحداث الماضي ، يفكر
 أحيانا أنه قليل الحظ منذ مولده .. إن تاريخ ميلاده من
 البداية لم يكن موفقا ولو أنه ولد قبل ذلك بخمسين عاما
 لتغيرت حياته تماما .. لو أن الثورة فشلت ، لو أسرع الملك
 فاروق بالقبض على الضباط الأحرار الذين كانوا معروفين
 له بالاسم لما قامت الثورة ولعاش زكي حياته الحقيقية
 الجديرة به ، زكي بك ابن عبد العال باشا الدسوقي ، كان
 سيتولى الوزارة حتما وربما رئاسة الوزراء ، حياة عظيمة
 تليق به حقا بدلا من التخبط والمهانة :.. تخدره مومس
 وتسرقه ثم تطرده أخته وتفضحه أمام الجيران وفي النهاية
 ينام في المكتب مع أبسخرون ، أهر سوء حظ أم خطأ في
 شخصيته يدفعه دائما إلى القرار الخاطئ ؟! لماذا استمر
 في مصر بعد الثورة ؟! .. كان بإمكانه أن يسافر إلى
 فرنسا ويبدأ حياة جديدة كما فعل كثير من أبناء الأسر

الكبيرة ، كان سيصل هناك حتماً إلي مركز مرموق كما فعل أصدقاء أقل منه في كل شيء ، لكنه بقي في مصر وأخذ يتأقلم مع وضعه المتدهور شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى الحضيض ثم .. لماذا لم يتزوج ؟! .. عندما كان شاباً تمنتّه نساء كثيرات جميلات وثريات ، لكنه ظل يتمنع على الزواج حتى فاته الفرصة ، ولو أنه تزوج لكان له الآن أولاد كبار يهتمون به وأحفاد يداعبهم ويحبهم .. لو أن له ولداً واحداً لما فعلت دولت به كل ذلك ، ولو أنه تزوج لما شعر أبداً بهذه الوحدة المؤلمة القاتلة ، ذلك الشعور الأسود الداهم باقترب الموت الذي يجتاحه كل ما سمع بموت أحد أصدقائه ، السؤال الغامض الذي يلاحقه عندما يأوى إلى فراشه كل ليلة .. متى يأتي الموت وكيف ؟! يتذكر الآن صديقاً له تتبأ بموته ، كان جالساً معه في شرفة المكتب ثم وجه إليه نظرة غامضة ، فجأة ، وكأنه لمح شيئاً ما في الأفق ثم قال بهدوء :

- أنا موتى قريب يا زكى .. أنا شامم رائحة الموت الغريب أن صديقه هذا مات فعلاً بعد أيام ولم يكن مريضاً وقد جعلته هذه الحادثة يتساءل (عندما يكون محبطاً ومكتئباً) أليكون للموت رائحة معينة تتبعث حول الإنسان في آخر حياته فيحس بدنو أجله ؟! وكيف تكون النهاية ؟! أليكون الموت بمثابة نوم طويل لا يفيق الإنسان منه أبداً ؟!

أم أن هناك قيامة وثواباً وعقاباً كما يعتقد المتدينون؟! .. وهل يعذبه الله بعد الموت؟! .. أنه ليس متديناً ولا يصلي ولا يصوم صحيح.. لكنه طيلة حياته لم يؤذ أحداً ، لم يغش ولم يسرق ولم يستول على حقوق الآخرين ولم يتأخر أبداً عن مساعدة الفقراء وباستثناء الخمر والنساء لا يعتقد أنه ارتكب ذنباً بالمعنى الحقيقي .. هذه الخواطر المقبضة سيطرت على زكى أياماً طويلة وقد أمضى ما يقرب من ثلاثة أسابيع مقيماً في المكتب ، ثلاثة أسابيع من الهم والكرب ، انتهت ذات صباح بمفاجأة حلوة ، تبدد الحزن كما ينقش الليل الطويل في لحظة سحرية ، سوف يظل زكى يذكر المشهد السعيد ، يستعيده في ذاكرته مئات المرات مصحوباً بموسيقى مرحة ، وهو جالس في الشرفة يحتسى قهوة الصباح ويدخن ويتفرج على الشارع المزدهم عندما ظهر أبسكرون متأرجحاً على عكازه وقد بانّت على وجهه ، بخلاف طابعه المتوسل ، ابتسامة غامضة خبيثة :

- عاوز إيه؟! -

بادره زكى بك مستكراً بصوت أجش منذر لكن شيئاً ما استثنائياً مؤكداً منح أبسكرون ثقة غير معهودة فاقترب من سيده ثم انحنى وهمس:

- سيادتك.. أنا وأخويا ملاك عندنا موضوع..

- .. موضوع إيه؟!..

- موضوع سيادتك كده..

- انطق يا حمار أنا مش ناقصك.. موضوع إيه؟!

وهنا مال عليه أبسخرون وهمس:

- عندنا "سوكريتيرة" لسيادتك .. شابة بنت حلال ..

لا مؤاخذه سيادتك محتاج في الظروف الوحشة دي

لـ"سوكريتيرة" تأخذ بالها من سيادتك ..

.. انتبه زكى بك وسدد نظرة عميقة متفهمة

لأبسخرون وكأنه قد تلقى شفرة خاصة أو سمع جملة بلغة

سرية يفهمها فرد بسرعة :

- وماله .. أشوفها ؟!

سكت أبسخرون وقد استجاب لاغراء تعذيب سيده

قليلًا فقال ببطء :

- يعنى سيادتك تحب تشوفها ؟!!

وهز البك رأسه بسرعة وتظاهر بالنظر إلى الشارع

ليخفى انفعاله.. وبطريقة الساحر الذي يكشف عن مفاجاته

في آخر اللعبة ، استدار أبسخرون مبتعدا وهو يضرب

الأرض بعكازه واختفى نحو عشر دقائق ثم عاد معها ، تلك

اللحظة لن ينساها أبدا ، حين رآها لأول مرة كانت ترتدى

فساتنا أبيض تغطيه زهور خضراء كبيرة يلتصق بجسدها

ويبرز تفاصيله ومن الأكمام القصيرة برزت ذراعاها

المربربتان الطريتان .. جذبها أبسخرون من يدها وقال :

- الأنسة بثينة السيد .. المرحوم أبوها كان رجل
طيب وساكن معنا هنا فوق السطح ، الله يرحمه كان أكثر
من أخ بالنسبة لي أنا وملاك وتقدمت بثينة بخطوتها
للسغيرة المنتهية المتأرجحة ثم ابتسعت فأشرق وجهها
بطريقة أخذت قلب زكى وقالت :
- صباح الخير يا سعادة البك ..

الذين عرفوا طه الشاذلي في الماضي قد يتعرفون عليه الآن بصعوبة ، تغير تماما ، وكأنه استبدل بشخصه القديم شخصا آخر جديدا ، لا يقتصر الأمر على الزي الإسلامي الذي استبدل به ملابسه الإفرنجية ولا لحيته التي أعفاها فمئحته مظهرا مهيبا وقورا أكبر من سنه ولا الزاوية الصغيرة التي أقامها بجوار المصعد في مدخل العمارة ، يتأوب فيها على الأذان مع أخ ملتج طالب في الهندسة يسكن في الدور الخامس .. كل هذه تغيرات في المظهر أما في داخله فقد تملكته روح جديدة قوية متوثبة ، صار يمشى ويجلس ويتحدث إلى الناس في العمارة بطريقة جديدة ، انتهى إلى الأبد ذلك التضاؤل والرهبة والانكسار أمام السكان ، انه الآن يواجههم معتدا بنفسه ، لم يعد يعبا بهم ولا يمكن أن يتحمل منهم أقل توبيخ أو إهانة ولم تعد تهمة تلك الأوراق المالية الصغيرة التي يمنحونها إياه فيذخرها لشراء حاجاته الجديدة .. أولا لإيمانه الراسخ بأن الله سيرزقه وثانيا لأن الشيخ شاكراً أشركه في تجارة الكتب الدينية ، مشاوير بسيطة يؤديها في أوقات فراغه وتدر عليه مبلغا معقولا ، وهو الآن يدرّب نفسه على أن يحب الناس ويكرهم في الله ، تعلم من الشيخ أن البشر أحقر وأهون من أن نحبههم ونكرهم من أجل صفاتهم الدنيوية بل يجب أن نتحدد مشاعرنا ناحيتهم وفقا لالتزامهم بشرع الله ،

وهكذا تغيرت نظرته إلى أشياء كثيرة : كان يحسب بعض السكان لأنهم طيبون معه ويجزلون له العطاء فصار يكرههم في الله لأنهم تاركون للصلاة وبعضهم شارب خمر ، وأصبح يحب إخوانه في الجماعة الإسلامية لدرجة أن يفتديهم بحياته .. انهارت كل مقاييسه الدنيوية القديمة كما يسقط بناء قديم متصدع وحل محلها تقييم إسلامي صحيح للناس والأشياء ، انبعثت قوة الإيمان في قلبه ومنحته كيانا جديدا متحررا من الخوف والشر ، لم يعد يخشى الموت ولا يهاب أي مخلوق مهما كان قدره ونفوذه ، لم يعد يخاف في حياته كلها إلا من معصية الله وغضبه ، والفضل في ذلك لله عز وجل ثم للشيخ شاکر الذي كلما التقى به زاده من الإيمان بالله والعلم بالإسلام وقد أحبه طه وتعلق به وصار من المقربين إليه حتى سمح له الشيخ بزيارة منزله في أي وقت ، وهذه منزلة حميدة لا يمنحها الشيخ إلا لخلصانه ، شيء واحد بقي في نفس طه من العهد القديم : حبه لبثينة ، حاول جاهدا أن يخضع شعوره ناحيتها لفكر : الجديد لكنه فشل وقد سعى لاقتناعها بالالتزام : أحضر لها كتاب " الحجاب قبل الحساب " وضغط عليها لتقرأه وظل يلح عليها حتى اصطحبها إلى جامع أنس بن مالك واستمعت معه إلى خطبة الشيخ شاکر لكنها ، لدهشته وحزنه ، لم تتأثر بالخطبة بل صارحته بأنها مملة مما دفعه للتشاجر معها .. صار

يتشاجران كثيرا ، كلما التقيا ، تستقره داما حتى يتشاجرا
فيغضب وينصرف كل مرة عازما على مقاطعتها نهائيا ،
وتلوح له ابتسامة الشيخ المشرقة الهادئة كلما حكى له عن
بثينة وقوله : " يا ولدي انك لن تهدي من أحببت لكن الله
يهدي من يشاء " .. تتردد كلمة الشيخ في ذهنه ويعاهد نفسه
على ألا يراها ثانية، لكنه ينكص بعد أيام قليلة ويشعر بأسى
و يتلف من جديد على رؤيتها ، وكلما عاد ليصالها بعد
مشاجرة ازدادت جفاء على أنه اليوم لم يذهب إلي الجامعة
خصيصا ليرאהا .. انتظرها على مدخل العمارة وهي
خارجة في الصباح وبادرها قائلا :

- صباح الخير يا بثينة .. عاوزك في كلمة لو

سمحت ..

- مش فاضية

هذا ردت ببرود وتجاهلته وتقدمت بضع خطوات
لكنه لم يمالك نفسه فجذبها من يدها وقاومت للحظة ثم
انصاعت هامسة بفزع : " سيب يدي بلاش فضائح " .. مشى
الاثنان صامتين متحفزين وسط المارة حتى وصلا إلى
مكانهما المفضل في ميدان التوفيقية وما أن جلسا حتى
صاحت بغضب

- أنت عاوز إيه مني ؟! كل يوم تعمل مشكلة .. ؟!
الغريب أن ثورته زالت فجأة وكأنها لم تكن وانتظر لحظة ثم

قال بصوت جهد ليجعله هادئا كأنه يستعطفها :

- أرجوك يا بئينة ما تغضبي مني

- بأقولك عاوز إيه ؟

- عاوز أتأكد من خبر سمعته

- أتأكد..

- يعني إيه ؟!

- يعني كل اللي سمعته صحيح

كانت تتحداه وتدفع بالحوار إلي حافته

- أنت مشيت من محل طلال..؟

- مشيت من الشغل عند طلال واشتغلت عند زكى

الدسوقي .. عيب ولا حرام يا سيدنا الشيخ ..؟

وقال بصوت ضعيف :

- زكى الدسوقي سمعته وحشه

- أيوه سمعته وحشة وبتاع سئات لكن بيدفعلى ٦٠٠ جنيه

في الشهر .. وحيث إني باصرف على عيلة وحيث إن

حضرتك ما تقدرش تدفع لى مصاريف المدارس والأكل

والشرب يبقى سيادتك مالکش دعوة

- يا بئينة اتقي الله .. أنت انسانة طيبة .. إياك

تغضبي ربنا .. اعلمي الصالح والأرزاق على الله

- الأرزاق على الله صحيح لكننا مش لاقيين نأكل

- أنا ممكن أدور لك على شغلة محترمة

- دور لنفسك يا حبيبي .. أنا مستريحة في

شغلي

- كده

- أيوه كده .. فيه حاجة ثانية ؟

سألته بتهكم ثم جرفتها مشاعر السخط من جديد
فنهضت ووقفت أمامه وقالت وهي تصلح من شعرها
استعدادا للتصريف :

- اسمع ياطه .. أنا أقول لك من الآخر .. حكايتنا
خلصت على كده .. كل واحد يروح من سكة .. وما فيش
داعي نشوف بعض ثاني من فضلك ..

ثم ابتسمت بغموض وقالت وهي تخطو مبتعدة :
- دا أنت حتى بقيت ملتج وملتزم وأنا بالبس قصير
وعريان .. شكلنا ما يليقش على بعض

• • •

شقة الشيخ شاکر ضيقة متواضعة .. البيت مبنى من
دورين بالطوب الأحمر في حارة ضيقة بدار السلام ، في
حجرتين وصالة يعيش الشيخ شاکر وزوجته وسبعة أولاد
وبنات في مراحل التعليم المختلفة ، وقد اتفق الشيخ مع
زواره الطلبة على علامة يعرفهم بها .. ثلاث نقاط

منفصلة، نقرأها طه الشاذلي على الباب ، فجاءه صوت الشيخ من الداخل .. حاضر .. ثم سمع حركة عرف منها أن الحريم يدخلن إلى الحجرة البعيدة وتردد وقع خطوات الشيخ البطيئة الثقيلة وصوت نضحته ولم يلبث أن فتح الباب وهو يبسم ..

- طه .. أهلا يا ولدي..

- أسف لو كنت أزعجك لكني أريد أن أتحدث معك

قليلا

- تعال .. تفضل .. ألم تذهب إلى الجامعة

اليوم؟..!

جلس طه على الأريكة بجوار النافذة وحكى ما حدث مع بثينة ، قال كل شئ ووصف مشاعره للشيخ الذي ظل منصتا وهو يعيث في مسبحته وانقطع الحديث لحظات عندما نهض الشيخ ليحضر صينية الشاي وظل بعد ذلك يستمع حتى فرغ طه من الحديث ، وسكت مفكرا فترة ثم قال :

- يا ولدي إن الدين الحنيف لم يحرم الحب ما دام مشروعاً ولا يؤدي إلى معصية .. بل إن أشرف خلق الله المصطفى صلوات الله عليه وسلامه أحب السيدة عائشة وتحدث بذلك في روايات صحيحة مجمع عليها ، المشكلة في أن تختار المرأة الجديرة بعواطفك ، ماذا تكون مواصفات

تلك المرأة؟! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
تتكح المرأة لجمالها ومالها ودينها .. فاظفر بذات الدين
تربت بذلك .. * .. صدق رسول الله .. التربية الإسلامية
النصيحة هي التي تمنعك من الوقوع في مشكلة مثل التي
تعاني منها الآن ، أنت وجميع أبناء جيلك لم تتلقوا التربية
الإسلامية لأنكم نشأتم في دولة علمانية وتلقيتم تعليما علمانيا
فتعودتم التفكير بطريقة تستبعد الدين ، ولقد عدتم الى
الإسلام بقلوبكم بينما سوف تستغرق عقولكم وقتا حتى
تتخلص من العلمانية وتصفو للإسلام ، تعلم كما قلت لك
مرارا كيف تحب في الله وتكره في الله وبغير ذلك لن
يكتمل إسلامك أبدا ، إن الضيق الذي تعاني منه الآن نتيجة
طبيعية مؤكدة لابتعادك عن الله ولو في موقف واحد من
حياتك ، ولو أنك سألت نفسك في بداية تعلقك بصاحبك هذه
عن مدى التزامها .. لو جعلت تمسكها بالإسلام شرطا
لارتباطك بها لما وصلت إلى ما أنت فيه الآن ..

صب الشيخ كويين من الشاي وقدم أحدهما إلى طه
ثم وضع البراد على الصينية المعدنية التي حيل لونها من
القدم وقال وهو يرشف الشاي على مهل :

- يعلم الله كم أحبك يا ولدي ، وأكره أن تأتي الى
شيخك حزينا فيلقى عليك محاضرة بدلا من مواساتك ،
لكنني والله أصدقك النصيحة ، انس هذه الفتاة ياطه لأنها

ضللت وأنت شاب ملتزم مؤمن وأولى بك فتاة مسلمة
مثلك ، روض نفسك على النسيان واستعن بالصلاة وقراءة
القرآن ، سيكون الأمر صعبا في البداية لكنه سيسهل عليك
بعد ذلك بإذن الله ، ثم هل نسيت دينك ياطه..؟! أين الجهاد
ياطه..؟! أين واجبك نحو الإسلام والمسلمين ؟! .. بالأمس
بدأت الحرب القذرة وانساق حكامنا لقتال المسلمين تحت
إمارة الكفار .. وواجب الشباب الإسلامي جميعا في مصر
أن يثور على هذا الحكم الكافر .. هل تقبل ياطه أن تتخاذل
عن نصره المسلمين الذين يقتلون بالآلاف يوميا وتتشغل
بالفتاة الضالة التي هجرتك إلى الفاحشة ؟ .. إن الله عز
وجل لن يسألك يوم القيامة عن بثينة لكنه سيحاسبك عما
فعلته من أجل نصره الإسلام .. ماذا تقول لله يوم الشهيد
العظيم؟!

أطرق طه وبدا عليه التأثر ثم قال بأسى وخجل :

- لقد عاهدت الله أكثر من مرة على أن أنساها

لكنني للأسف أعود وأفكر فيها..

- لن يستسلم شيطان نفسك بسهولة ولن تصل إلى

التقوى مرة واحدة.. إن جهاد النفس ياطه هو الجهاد الأكبر

كما أسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم

- ماذا أفعل يا مولانا ؟!..

- عليك بالصلاة وقراءة القرآن .. دارم عليهما يا

ولدي حتى يشرح الله صدرك ولتعاينني ياطه أنك
لن ترى هذه الفتاة مهما تكن الظروف..
نظر طه إلي الشيخ وظل صامتا..
- هذا عهد بيننا ياطه وأنا واثق أنك ستحافظ عليه
بإذن الله ..

ثم نهض الشيخ وفتح درج المكتب القديم وأخرج
صوراً منزوعة من صحف أجنبية وألقى بها في حجر طه
وقال :

- انظر إلى هذه الصور.. تأملها جيدا .. هؤلاء
إخوانك المسلمون في العراق الذين مزقت أجسادهم قنابل
طائرات التحالف .. انظر كيف تمزقت أجسادهم وبينهم
أطفال ونساء .. هكذا يفعلون بالمسلمين وأطفالهم ويشتركون
حكامنا الخونة مع الكفرة في جرائمهم ..

ثم التقط الشيخ صورة ورفعها أمام عيني طه وقال :
- تأمل وجه هذه الطفلة العراقية التي مزقتها القنابل
الأمريكية.. أليست هذه الطفلة البرينة مسنولة منك مثل أختك
وأأمك .. ماذا أنت فاعل لنصرتها ؟!.. ألم يزل في قلبك
مكان للحزن على صاحبك الضالة ؟
كانت صورة الطفلة المشوهة مزملة للغاية فقال طه
بمرارة :

- أطفال المسلمين يذبحون بهذه الطريقة البشعة

بينما يحشد التليفزيون المصري أكبر علماء الأزهر ليؤكدوا أن موقف الحكومة المصرية صحيح شرعا ويزعمون أن الإسلام يقر التحالف مع أمريكا لضرب العراق ولأول مرة يفعل الشيخ ويعلم صوته .. :

- هؤلاء مشايخ منافقون وفاسقون ، فقهاء السلاطين وذنبيهم عند الله عظيم .. الإسلام لا يجوز إطلاقا أن نشترك مع الكفار في قتل المسلمين مهما كانت الأسباب .. والأسانيد الشرعية لذلك يعرفها أى تلميذ في سنة أولى شريعة .. وهز طه رأسه مؤمنا على كلام الشيخ الذي قال فجأة وكأنه تذكر :

- اسمع .. غدا بإذن الله سوف ينظم إخوانك مظاهرة كبرى في الجامعة .. أرجو ألا تتخلف عنها ثم سكث لحظة واستطرد :

- لن أستطيع قيادة المظاهرة بنفسى لكن أخاكم طاهر سيكون أميركم غدا بإذن الله .. والتجمع أمام قاعة الاحتفالات بعد صلاة الظهر ..

هز طه رأسه ثم قام مستأذنا للانصراف لكن الشيخ استمهله وغاب في الداخل قليلا ثم عاد مبتسما وقال وهو يناوله كتيبا صغيرا

- هذا "ميثاق العمل الإسلامي " .. أريدك أن تقرأ وحدك ثم نتناقش فيما بعد هذا الكتاب ياطه سوف ينسيك

بإذن الله كل الأفكار السيئة التي تراودك

• • •

ذبحت الحيوانات صباح الجمعة ، ثلاثة عجول ضخمة قضت الليل بجوار المصعد في مدخل عمارة يعقوبيان ولما ارتفع أذان الفجر تكاثر عليها خمسة جزارين وأوثقوها ثم نحروها وقضوا ساعات في سلقها وتقطيعها وتعبئتها في أكياس معدة للتوزيع وما أن انتهت صلاة الجمعة حتى اشتد الزحام في شارع سليمان باشا ، أفواج من البشر توافدوا على محلات عزام ، كانوا فقراء للغاية : متسولين وعساكر شرطة و صبيان حفاة و نساء متشحات بالسواد يحملن أو يجررن أطفالهن الصغار ، جاءوا جميعا ليأخذوا نصيبهم من لحم الضحية التي وهبها الحاج عزام بمناسبة فوزه في الانتخابات وأمام الباب الرئيسي للمحل وقف فوزي الابن الأكبر للحاج عزام بجلباب أبيض وأخذ يتناول بيديه أكياس اللحم ويلقي بها إلى الناس الذين أخذوا يتزاحمون بقوة ويتدافعون بالأيدي للحصول على اللحم حتى حدثت مشاجرات واصابات واضطر عمال المحل إلى عمل كوردون وضرب المتدافعين بالأحزمة حتى يبعدوهم عن زجاج الواجهات قبل أن ينكسر من ضغط أجسادهم وبالدخل

جلس الحاج عزام في صدر المكان وقد ارتدى بدلة زرقاء أنيقة على قميص أبيض ورابطة عنق حمراء منقوشة وقاض وجهه بالبشر ، كانت نتيجة الانتخابات قد أعلنت رسمياً مساء الخميس وفاز الحاج عزام بمقعد مجلس الشعب عن دائرة قصر النيل (عمال) وحقق نصراً كاسحاً على منافسه أبو حميدة الذي لم يحرز إلا أصواتاً قليلة للغاية (وقد تعمّد القول بأن تكون خسارته فاحشة مدوية ليكون عبرة في المستقبل لكل من يخالف تعليماته) أحس الحاج عزام بامتنان صادق عميق لله سبحانه وتعالى الذي زاده من فضله ونصره نصراً مبيناً فصلى أكثر من عشرين ركعة شكر منذ عرف بالخبر وأصدر تعليماته بذبح العجول ووزع سراً نحو عشرين ألف جنيه على الأسر الفقيرة التي يعولها بنفسه ، وعشرين ألفاً أخرى أعطاها للشيخ السمان لينفقها في وجوه الخير بمعرفته بخلاف عشرين جنيهاً ذهبياً أهداها للشيخ السمان بهذه المناسبة .. ثمة شعور آخر كان يداعب قلب الحاج عندما يفكر في سعاد ، كيف سيحتفل معها الليلة بفوزه الرابع ١٩٠٠ استعداد في ذهنه تفاصيل جسدها الطوي الدافئ وشعر بأنه يحبها حقاً وقال لنفسه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان محقاً عندما تفاعل بالنساء ، بعض النساء مبروكات فعلاً ما أن يقرن المرء بهن حتى يغمره الخير وسعاد واحدة من هؤلاء ، جاءت معها بالنصر والبركة

وهاهو ينتصر ويدخل إلى مجلس الشعب ، حقا ما أعجب التصاريح الإلهية .. انه الآن ينوب في مجلس الشعب عن سكان دائرة قصر النيل الذين كانوا يوما ما يمدون له أحذيتهم ليمسحها وينظرون إليه من عل ويتفضلون عليه بقروشهم ، انه الآن حضرة النائب المحترم .. يتمتع بحصانة قضائية تمنع أية جهة من التعرض له بغير موافقة المجلس ، من الآن فصاعدا سوف تظهر صورته في الصحف والتلفزيون وكل يوم يجتمع بالوزراء ويصافحهم ندا لندا .. لم يعد مجرد رجل أعمال ثري ، انه الآن من رجال الدولة وعليه أن يتصرف مع الجميع على هذا الأساس ، من الآن فصاعدا سوف يبدأ في الشغل الكبير الذي سيقفز به إلى مستوى العمالقة ، الخطوة القادمة سوف تصعد به إلى القمة، سيكون من الخمس أو الست رؤوس الكبيرة في البلد كلها ، لو تمت له الصفقات التي يخطط لها لانتقل من خانة مليونير إلى ملياردير بل ربما يكون أثري أثرياء مصر وقد يتولى الوزارة .. نعم الوزارة ..!!.. لماذا لا؟! إذا أراد الله فليس هناك مستحيل وهل كان يحلم بعضوية مجلس الشعب؟! .. المال يذل الصعب ويقرب البعيد وقد تتحقق الوزارة يوما كما تحقق المجلس .. ظل مستغرقا في تأملاته حتى ارتفع أذان العصر فأم عمال المحل في الصلاة كعادته وإن كان (وقد استغفر الله على

ذلك) انصرف ذهنه أكثر من مرة إلى جسد سعاد وهو يصلي وما أن فرغ من الصلاة والتسبيح حتى قام منصرفاً على عجل ودخل إلى عمارة يعقوبيان وركب المصعد إلى الدور السابع ويا لشوقه المضطرم الملح اللذيذ وهو يدير المفتاح في الباب فيجد سعاد أمامه ، كما توقعها تماماً ، تنتظره بالروب الأحمر الذي يبرز مفاتها الصارخة وتلك الرائحة المعطرة التي تتسلل إلى أنفه فتدغدغ حواسه ، أقبلت ناحيته تتهادى وتملكه الوجد وهو يستمع إلى وقع خطواتها وحفيف الروب على الأرض ثم احتضنته وهمست وهي تداعب أذنه بشفتيها :

- مبروك يا حبيبى .. ألف مبروك

• • •

في لحظات نادرة استثنائية تظهر سعاد جابر على حقيقتها ، تفلت من عينيها لمحة خاطفة كرمضة ويسردها وجهها حينته الأصلية ، تماماً كما يرجع الممثل بعد انتهاء الدور إلى شخصيته فيخلع ملابس التمثيل ويزيل الماكياج عن وجهه ، نفس النظرة الجادة المستيقظة ببطء التي تستعيد شيئاً ما بصلاية وإصرار تظهر في وجه سعاد وتكشفه ، يحدث هذا لها في أى وقت : وهي تتناول الطعام مع الحاج

وتسامره وحتى وهى معه فى الفراش ، تنقلب فى احضانه وتجهد لإثارة فحولته الذابلة ثم تبرق هذه الومضة فى عينيها فتؤكد أن ذهنها لا يتوقف عن التفكير حتى فى عز الغرام وكثيرا ما تدهش من قدرتها الجديدة على تقمص أدوار كاذبة ، لم تعرف الكذب أبدا من قبل ، طوال حياتها وكل ما يدور فى ذهنها يجري على لسانها ، فمن أين جاء كل هذا التمثيل؟!.... : إنها تؤدى ببراعة دور الزوجة المحبة المتلطفة المشفقة الغيورة وقد صارت كالمتولين المحترفين تتحكم فى مشاعرها تماما : تبكي وتضحك وتغضب عندما تقرر ذلك، إنها الآن فى الفراش مع الحاج عزام تؤدى مشهدا تمثاليا: الزوجة التى تدهشها فحولة رجلها فتستسلم له ليفعل بجسدها ما شاعت له قوته الخارقة ، تنغمس عينيها وتتهد وتتأوه وهى لا تشعر بشيء سوى الاحتكاك ، مجرد احتكاك جسدين عاريين بارد ومزعج وفى وعيها الحاد القابع فى الخلفية الذى لا يغفل لحظة ، تتأمل جسد الحاج المنهك الذى ذهبته فورته وبان ضعفه بعد شهر واحد من الزواج ، تتحاشى النظر إلى بياض جلده العجوز المجعد وشعيرات صدره القليلة المتناثرة وحلمتيه الصغيرتين الغامقتين، تنقزز عندما تلمس جسده وكأنها تمسك بيديها سحلية أو ضفدعة لزجة مقرفة ، وتتذكر كل مرة ، جسد مسعود زوجها الأول الممشوق الصلب الذى

عرفت معه الحب لأول مرة ، كانت أياما جميلة ، تبسم
وتسترجع كيف كانت تحبه وتتوق للقاءه ، يشتعل جسدها من
لمساته ووقع أنفاسه الحارة على رقبتها وصدرها ، تنام معه
بحرارة وتذوب في غيبوبة اللذة وعندما تنبّه تشعر بالخلج
.. تدير رأسها بعيدا عنه وتقضى وقتا تنفّادى النظر إلى
وجهه ويستغرق هو في الضحك ويقول بصوته الأجرس
القوى :

- أيوه .. مالك يا بت مستحية .. هو إحنا عاملين
عملة .. دا شرع ربنا يابت يا عبيطة ..!!؟

ما أجمل ذلك الزمن وما أبعده ، كانت تحب زوجها
ولم تكن تتمنى في الدنيا إلا أن يعيشا معا ليربيا الولد ، والله
العظيم لم تكن تريد المال ولم تكن لها طلبات ، كانت سعيدة
في شقتها الصغيرة في العصافرة قبلي ، بجوار شريط
القطار ، تغسل وتطبخ وتجهز الرضعات لتأمر وتمسح
الأرض ثم تستحم وتترزين وتنتظر مسعود آخر النهار ،
كانت ترى بيتها مسعًا ونظيفًا ومضيئًا وكأنه قصر وعندما
أخبرها بأنه حصل على عقد عمل في العراق رفضت
وثارت وتشاجرت ومنعته من فراشها أياما حتى تنثيه عن
السفر .. صاحت في وجهه :

- تتغرب وتفوتنا وحدنا ..!!؟

- سنة ولا سنتين وأرجع بقرش حلو

- كل الناس تقول كده وعمرها ما ترجع
 - يعني عاجبك الفقر .. إحنا عايشين يوم بيوم ..
 نفضل طول عمرنا نستلف؟!
 - واحدة واحدة الصغير يكبر
 - إلا في بلدنا.. كل حاجة بالعكس.. عندنا الكبير
 يكبر والصغير يموت .. الفلوس تجيب فلوس والفقر يجيب
 فقر ..

كان يتكلم بهدوء من اتخذ القرار . وكم تتدم الآن
 على أنها طاوعته . لو أنها قاومته للنهاية . لو أنها غضبت
 وترك البيت لكان أذعن لها وعدل عن السفر . كان يحبها
 ولا يطيق بعدها عنه ، لكنها استسلمت بسهولة وتركته
 يسافر .. كل شيء قسمة ونصيب .. سافر مسعود ولم يرجع
 أبدا وهي متأكدة أنه مات في الحرب وبفوه هناك واعتبروه
 مفقودا ، هكذا حدث مع أسر كثيرة تعرفها من الإسكندرية ،
 لا يمكن لمسعود أن يهجرها ويترك ابنه أبدا.. مستحيل ..
 مؤكد أنه مات ، ذهب إلى الله وتركها وحدها في المرار ،
 انتهى زمن الحب والمشاعر الحارة الحقيقية والخجل والوقت
 الجميل ، تلطمت وجاعت لتربي ابنها و الرجال جميعا
 وجوههم وأجسادهم وملابسهم مختلفة لكن نظرتهم دائما
 واحدة : تنتهكها وتعريها وتعدها بكل شيء لو وافقت .. وهي
 تقاوم بضراوة وايضا بصعوبة وتخاف أن تتعب يوما

فتستسلم ، شغلها في محل هائل مرهق والمرتب ضعيف
ومصاريف الولد تتزايد والحمل ثقيل عليها وكأنها تحمل
جبلا وأقاربها جميعا - حتى أخاها حميدو - إما فقراء مثلها
على باب الله أو أنذال يساعدونها بالتمنيات الطيبة
ويعتذرون عن عدم إقراضها بحجج كاذبة ، عاشت سنوات
صعبة حتى كادت تكفر وضعفت أكثر من مرة وكادت تسقط
في الحرام من فرط اليأس والاحتياج ، ولما طلبها الحاج
عزام على مئة الله ورسوله حسبته بدقة ، سوف تعطى
الحاج جسدها مقابل مصاريف ابنها ، المهر الذي دفعه عزام
لم تلمسه ، أودعته باسم تامر في البنك ليتضاعف ثلاثة
مرات بعد عشرة أعوام ، انقضى زمن العواطف والعملية
الآن محسوبة ، شئ مقابل شئء بالاتفاق والتراضي ، تنام
مع هذا العجوز ساعتين كل يوم وتترك ابنها في الإسكندرية
وتقبض الثمن ، صحيح أنها تتمزق شوقا لتامر وفي الليل
كثيرا ما تتحسس موقعه بجوارها على الفراش وتبكي
بحرقة ، وذلك الصباح عندما مرت أمام مدرسة ابتدائية
ورأت الأطفال في زيهم المدرسي تذكرته وبكت واعتصرها
الحزن والشوق أياما ، رأت نفسها تحمل جسده الصغير
الدافئ من الفراش وتغسل له وجهه في الحمام وتلبسه ثياب
المدرسة وتعد له الإفطار وتحايله حتى يشرب كوب اللبن
بأكمله ثم تنزل معه ويركبان الترام إلى المدرسة ، أين هو

الآن ؟ .. كم تشفق عليه .. انه وحيد وبعيد وهي في هذه المدينة الكبيرة الباردة الكريهة التي لاتعرف فيها أحدا ، تعيش وحدها في شقة شاسعة لاتملك أي شيء فيها ، تخبئ من الناس وكأنها سارقة أو زانية ، وظيفتها الوحيدة مضاجعة هذا الرجل العجوز الذي يجثم كل يوم على أنفاسها بضغفه المتدلي المرهق وملمس جسده الناعم المقرز ، وهو لا يريد لها أن تسافر إلى تامر وعنما تتحدث عنه يتكدر وجهه وكأنه يغار ، وهي في كل لحظة تشاق إلى ابنها ، تتمنى أن تراه الآن وتحتضنه بقوة وتشم رائحته وتملمس على شعره الأسود الناعم ، لو تستطيع أن تحضره ليعيش معها في القاهرة .. لن يوافق الحاج عزام أبدا على ذلك وقد اشترط عليها من البداية أن تترك الولد وقال لها بوضوح : أنا أتزوجك وحدك من غير أولاد .. اتفقنا ؟ .. تسرّج وجهه البارد القاسي في تلك اللحظة وتكرهه من صميم قلبها لكنها تعود فتقنع نفسها بأن كل ما تفعله من أجل مصلحة تامر ومستقبله ، وماذا ينفعه أن يعيش في حضن أمه وهما يتسولان من القريب والغريب .. ؟ .. عليها أن تشكر عزام وتمن له لا أن تكرهه ، على الأقل تزوجها في الحلال وتكفل بنفقاتها ، هذه الفكرة العملية المباشرة تحكم علاقتها بالحاج ، انه صاحب الحق في جسدها طبقا للاتفاق الشرعي ، له الحق في إتيانها وقمّا يشاء وكيفما يشاء و

عليها أن تستعد دائما ، أن تنتظره كل يوم وقد تزينت
وتعطرت ، من حقه ألا يشعر ببرودها نحوه ، وألا تشعره
أبدا بضعفه أو عجزه في الفراش ، وهي الآن تلجأ إلى حيلة
تعلمتها بالغريزة لترفع الحرج عنه : شهقت وخربشت ظهره
بأظفارها وتظاهرت ببلوغ الذروة واحتضنت جسده المنهك
وألقت برأسها على صدره وكان اللذة قد خدرتها ولم تلبث
أن فتحت عينيها وأخذت تقبله في ذقنه ورقبته وتمسح
بأصابعها على صدره ثم همست بصوت ناعم :

- على فكرة .. فين حلاوة نجاك في الانتخابات؟!

- حلاوتك من عيني .. هدية محترمة

- ربنا يخليك لي يا حبيبي .. شوف .. أسألك مزال

وجاوبني بصراحة

.. واستند الحاج بظهره إلى حاجز الفراش ، ونظر

إليها باهتمام وهو يحتفظ بيده على كتفها العاري .. قالت :

- انت بتحبني ..؟

- جدا يا سعاد وربنا اللي يعلم

- يعني لو طلبت أى حاجة في الدنيا تعملها لي ؟

- طبعا

- طيب .. خليك فاكرك كلمتك

ونظر إليها مترددا لكنها كانت قد قررت ألا تواجهه

الليلة فقالت :

- اقولك على حاجة مهمة .. الأسبوع الجاي بإذن

الله

- لأ.. قولي الليلة

- لا يا حبيبى .. لما أناكد الأول..

ضحك الحاج وقال

- هي فزورة ؟

فقبلته وهمست بصوت مثير :

- أه .. فزورة ..

• • •

يبرع الشواذ جنسيا عادة في المهن التي تعتمد على الاتصال بالناس مثل العلاقات العامة والتمثيل والسمسرة والمحاماة ويقال إن نجاحهم في هذه المجالات يرجع إلى تخلصهم من الخجل الذي يضيع على مساوهم فرص النجاح كما أن حياتهم الشاذة الحافلة بتجارب إنسانية متنوعة وغير مألوفة تجعلهم أكثر فهما لطبيعة الناس وأقدر على التأثير فيهم ، ويبرع الشواذ أيضا في مهن الذوق والخيال مثل هندسة الديكور وتصميم الملابس والمعروف أن أشهر مصممي الأزياء في العالم من الشواذ ربما لأن طبيعتهم الجنسية المزدوجة تمكنهم من تصميم أزياء نسائية مثيرة

للرجال وبالعكس . والذين يعرضون حاتم رشيد قد يختلفون حوله لكنهم لابد أن يعترفوا بذوقه الرقيق وموهبته الأصيلة في اختيار الألوان والثياب حتى في غرفة نومه ، مع عشاقه ، يربا حاتم بنفسه عن الشكل الأنثوي السوقي الذي يصطنعه كثير من الشواذ : .. لا يضع المساحيق على وجهه ولا يرتدي قمصان نوم نسائية ولا صدرا صناعيا لكنه يجهد بلمسات خبيرة في إبراز جماله كمخنت : يرتدي جلابيب شفافة مطرزة باللوان جميلة على جسده العاري ويحلق ذقنه تماما ويزجج حواجبه بقدر مناسب محسوب ويكحل عينيه بخفة ثم يصفف شعره الناعم إلى الخلف أو يترك خصلاته متناثرة على جبهته .. هكذا يسعى دائما في زينته إلى تحقيق نموذج الغلام الجميل في العصور القديمة وبمثل هذا الذوق المرهف اشترى حاتم لرفيقه عبده ثيابه الجديدة : بنطلونات ضيقة تبرز قوة عضلاته وقمصان وفانلات ألوانها فاتحة لتضفي وجهه الأسمر والياقات مفتوحة دائما لتظهر عضلات الرقبة وشعر الصدر الكثيف .. كان حاتم كريما مع عبده : منحه مالا كثيرا أرسله إلى أسرته وحصل له على توصية لقائد المعسكر فتحسنت معاملته ومنحوه إجازات متتالية قضاهما كلها مع حاتم ، وكانهما عروسان في شهر العسل : يستيقظان في الضحى ويستمتعان بالفراغ وانكسل و يأكلان في أفخم المطاعم ويرتادان السينما

ويذهبان للتسوق ، وفي آخر الليل يذهبان إلى الفراش معا وبعد ما يشبعاً جسديهما ، يستلقيان متعانقين في ضوء المصباح الخافت ، ويتسامران أحيانا حتى الصباح ، تلك اللحظات الحنون لن ينساها حاتم أبدا .. يكون قد ارتوى من الحب ويلتصق كطفل خائف بجسد عبده القوي ، يدفس أنفه كالقط في جلده الأسمر الخشن ويحكي له عن كل شيء : طفولته وأبيه وأمه الفرنسية وحبيبه الأول إدريس والمدهش أن عبده برغم حداثة سنه وجهله كان يتفهم مشاعر حاتم وقد صار أكثر تقبلا لعلاقتهم. ذهب النفور الأول وحل مكانه اشتياق لذيق أثم ، وكان هناك أيضا المال والعز والنياب الجديدة والأكل الفاخر والأماكن الراقية التي لم يحلم عبده بدخولها يوما وبالليل في الشارع وهو عائد بصحبة حاتم ، كان يحلو لعبده أن يمر في مظهره الأنيق بجوار جنود الأمن المركزي ويحييهم عن بعد وكأنه يثبت لنفسه أنه صار لبعض الوقت مختلفا عن هؤلاء البؤساء الفقراء الواقفين بلا معنى ولاهدف بالساعات الطوال في الشمس والبرد ... عاش الصديقان أياما من الهناء الخالص ثم حان عيد ميلاد عبده الذي أكد لحاتم أن المناسبة لاتهمه لأنهم في الصعيد لا يحتفلون إلا بالزواج والطهور لكن حاتما أصر على الاحتفال به واصطحبه في السيارة وابتنسم قائلا :

- .. أنا عامل لك الليلة مفاجأة

- مفاجأة آيه ؟!..

- .. صبرك .. نتعرف حالا

هكذا نتم حاتم وقد بدا على وجهه عيث طفولي
وهو يقود السيارة في اتجاه غير معتاد ، قطع طريق صلاح
سالم ودخل مدينة نصر ثم اجتاز الطريق حتى وصل إلى
شارع جانبي صغير ، كانت المحلات مغلقة والشارع شبه
مظلم لكن كشكا معدنيا ظهر وطلاؤه الحديث يلمع في
العممة ونزل الاثنان من السيارة ووقفوا أمام الكشك ثم سمع
عبده صليلا ورأى حاتم يخرج سلسلة مفاتيح صغيرة ومد
يده بها ناحيته قائلا بحنان:

- تفضل .. جويــــــــوز انيفرســــــــير ..

Joyeux anniversaire.. كل سنة وأنت طيب .. دي هديتي

لك .. يارب تعجبك

- أنا مش فاهم حاجة

أطلق حاتم ضحكة صاخبة ثم قال :

- آه يا صعيدي .. دماغك مقولة ؟! .. الكشك دا

بناعك ، أنا عملت واسطة كبيرة وأخذته من المحافظة

عشانك .. أول ما تطلع من التجنيد اشترى لك بضاعة

وتقف تبيع فيه .. ثم اقترب منه وقال بصوت هامس :

- كده يا حبيبي تشتغل وتكسب وتصرف على

عيالك وكمان أضمن انك تفضل معي على طول وأطلق

عبدہ صبیحۃ عالیہ وأخذ یضحک وهو یحتضن حاتم
 ویتمنم شاکرا ... کانت لیلۃ جمیلۃ . تعشیا سویا فی محل
 للأسماك فی المهندسين وأکل عبدہ وحده ما یقرب من کیلو
 جمبري بالأرز ، وشربا أثناء الأکل زجاجتین کاملتین من
 النبیذ السویمری ، وقد بلغ حساب العشاء أكثر من ۷۰۰
 جنیہ دفعها حاتم بالفیزا الکارت الخاصۃ به وعندما التقیا
 تلك اللیلۃ فی الفراش ، کاد حاتم أن یبکی من ألم اللذۃ ،
 شعر بأنه یخلق فی السحاب وتمنى لو یتوقف الوقت عند
 تلك اللحظه ، وبعد الحب ظلا کعادتهما ملتصقین فی
 الفراش ، الشمعۃ الطویلۃ یتراقص ضوءها الشاحب فیلقی
 بظلاله علی الحائط المقابل المغطى بالورق المنقوش وتکلم
 حاتم طویلا عن مشاعره ناحیۃ عبدہ الذی ظل صامتا ،
 ینظر أمامه وقد ارتسم علی وجهه جد مفاجئ فسأله حاتم
 بقلوب :

- مالک یا عبدہ .. ؟!

-

- مالک .. ؟!

- خایف یا حاتم بک ..

کان عبدہ یتکلم ببطء وصوت عمیق

- خایف من ایه .. ؟!

- من ربنا سبحانه وتعالی .. ؟!

- بنقول إيه .. ؟!

- ربنا سبحانه وتعالى.. أنا خايف يعاقبنا على اللي بنعمله ..

سكت حاتم وجعل يتأمله في الظلام .. بدا له الأمر غريبا ، كان آخر ما يتوقعه أن يتحدث مع عشيقه في الدين.

- إيه الكلام ده يا عبده ؟؟

- يا بك أنا طول عمري أعرف ربنا وكانوا في بلدنا يقولوا على الشيخ عبد ربه .. دائما أصلي الفرض بفرضه في الجامع وأصوم رمضان والسنن كلها .. لغاية لما عرفتك وتغيرت

- عاوز تصلي يا عبده ؟! .. صلي..

- وكيف أصلي وأنا كل ليلة أشرب خمره و أنام معك.. أنا حاسس إن ربنا غضبان مني وحيعاقبني

- يعني هو ربنا يعاقبنا عشان بنحب بعض ..

- ربنا محرم علينا الحب ده .. دا ذنبه كبير جدا.. كان عندنا في البلد إمام جامع اسمه الشيخ دراوي ، الله يرحمه كان رجل صالح وبتاع ربنا وكان يقول لنا في خطبة الجمعة : إياكم واللواط فهو ذنب عظيم يهتز له عرش الرحمن غضبا .

لم يتمالك حاتم نفسه فنهض من الفراش وأضاء النور وأشعل سيجارة وبدا بوجهه الوسيم وقميصه الأبيض

على جسده العاري أشبه بامرأة جميلة غاضبة ونفت
دخان السجارة ثم صاح فجأة :

- يا عبده أنا حقيقي احترت فيك .. مش عارف
أعمل لك إيه أكثر من كده ١٩.. .. أنا أحبك وأفكر فيك
وأحاول دائما أسعدك وبذل ما تشكرني .. تقوم تنكد علي
بالطريقة دي ١٩..

ظل عبده مستلقيا صامتًا يحدق في السقف وقد
وضع يديه أسفل رأسه وأكمل حاتم تدخين السجارة وصب
لنفسه كأسا من الويسكي تجرعها دفعة واحدة ثم عاد وجلس
بجوار عبده وقال بهدوء :

- اسمع يا حبيبي .. ربنا كبير وعنده رحمة حقيقية
غير كلام المشايخ الجهلة في بلادكم .. فيه ناس كثير يتصلي
وتصوم لكن بتسرق وتاذي دول ربنا يعاقبهم .. إنما إحنا أنا
مناكد إن ربنا حيغفر لنا لأننا مش بناذي أحد .. إحنا بس
بنحب بعض .. يا عبده وحياتك ما تقلبها نك .. الليلة عيد
ميلادك والمفروض نفرح ..

حدث ذلك مساء الأحد .. كانت بثينة قد
أمضت في عملها الجديد أسبوعين اتخذ خلالها زكي
الدسوقي كافة الخطوات التمهيدية : كلفها أولا ببعض
المهام: .. عمل أجنده تليفونات جديدة ودفع إيصالات
الكهرباء وترتيب أوراق قديمة ثم بدأ يتحدث معها عن نفسه
وإحساسه بالوحدة وندمه أحيانا على عدم الزواج ، وشكا لها
من أخته دولت وقال انه حزين من تصرفاتها السيئة معه
وبدا يسألها عن أسرته وأخوتها الصغار وبين الحين
والحين يغازلها ، يثني على فستانها الأنيق وتسريحة الشعر
التي تبرز جمال وجهها ويطيل النظر إلى جسدها ، كان
أشبه بلاعب بلياردو ماهر يسدد ضرباته بدقة وحساب
وظلت هي تتلقي إشارات بابتسامة متفهمة (وكانت المقارنة
بين مرتبها الكبير وعملها النافه كافية لتوضيح الدور
المنتظر منها) ، واستمر التلميح بينهما أياما حتى قال لها
مرة وهي تستعد للانصراف :

- أنا مستريح لك جدا يا بثينة .. نفسي بفضل مع

بعض على طول

- .. تحت أمرك

هكذا قالت بنعومة لتفسح له الطريق فأمسك بيدها

وسأل

- لو طالبت منك أي حاجة تعملها لي ؟ .. !

- لو في يدي أعملها لك طبعاً
فرفع يديها إلى فمه وقبلهما ليؤكد مقصده ثم همس .
- بكره تعالى بعد الظهـر .. عشان نبقي على راحتنا.

وفي اليوم التالي ، خلال الساعة التي قضتها بيثينة في الحمام وهي تنزع الشعر الزائد عن جسمها وتدعك كعبيها بالحجر وتطرى يديها وبشرتها بالكريم، فكرت فيما يحدث وبدا لها أن العلاقة الجسدية مع رجل عجوز مثل زكي الدسوقي ستكون غريبة وطريفة على نحو ما وتذكرت أنها أحياناً عندما تقترب منه تشم مع رائحة السيجار النفاذة المنبعثة من ثيابه رائحة أخرى خسنة وعتيقة تذكرها بتلك الرائحة التي كانت تملأ أنفها وهي صغيرة عندما تختبئ في دولا ب ملابس أمها الخشبي القديم وفكرت أيضاً أنها تشعر بعطف ناحيته لأنه رجل مهذب ويعاملها برقة وأنه فعلاً مسكين لأنه يعيش في مثل هذه السن وحده تماماً بلا زوجة ولا أولاد وفي المساء ذهبت إليه في المكتب فوجدته قد صرف أسخرون مبكراً وجلس وحده ينتظرها .. أمامه زجاجة الويسكي والكأس واناء الثلج ، كانت عيناه محمرتين قليلاً ورائحة الكحول تتبعث في الحجرة ونهض مرحباً بها ثم جلس وأفرغ بقية الكأس في فمه وقال بحزن :

- عرفت اللي حصل ١٩٠٠

- ..خير ؟!

- دولت رفعت قضية حجر ..

- يعني ايه ؟!

- يعني طالبت من المحكمة أنها تمنعني من

التصرف في أملاكي

- يا ساتر يارب .. ليه ؟!

- عشان تورثني وأنا عايش

هكذا قال بمرارة وهو يصب لنفسه كأسا جديدا ..

وأحست بثينة بعطف ناحيته ..

- الأخوات ياما يغضبوا لكن عمرهم ما يهونوا

على بعض

- يتهايا لك .. دولت مش شايفة قدامها إلا الفلوس

- يمكن لو حضرتك كلمتها ..

هز زكي رأسه بمعنى " لا فائدة " وقال ليغير

الحديث :

- .. تشربي معي ؟!

- لا شكرا ..

- عمرك ما شربت ؟!

- عمري ..

- .. جربي كأس واحد .. هو طعمه مر في الأول

وبعد كده الواحد ينبسط

- شكرا ..

- .. خسارة .. الشرب حاجة لطيفة جدا ، الأجانب يعرفوا قيمة الشرب أكثر منا

- أنا لاحظت إن حضرتك علش زي الأجانب بالضبط ..

ابتسم وتأمل وجهها بشغف وحذر وكأنها طفلة فصيحة ثم قال :

- أرجوك ما تقوليش حضرتك .. أنا صحيح عجوز بس ما فيش داعي تفكريني بالموضوع دا طوال الوقت .. فعلا أنا طول عمري مع الأجانب .. تربيت في مدارس فرنساوي ومعظم أصحابي كانوا أجانب وتعلمت في فرنسا وعشت هناك سنين .. أنا أعرف باريس زي مصر بالضبط - بيقولوا باريس حلوة

- حلوة ..؟! .. الدنيا كلها في باريس

- طيب ليه ما عشتش هناك

- .. دي حكاية طويلة

- احكي لي .. إحنا ورانا حاجة

ضحكت لتخفف عنه وضحك هو لأول مرة فاقتربت

منه وسألت بود :

- صحيح .. ليه ما عشتش في فرنسا ؟!

- .. حاجات كثيرة كان لازم أعملها في حياتي وما

عملتهاش

- .. ليه؟!

- ما أعرفش .. وأنا صغير في سنك كان يتهيا لي
إن كل شيء بأعله نتيجته في أيدي .. كنت أخطط لحياتي
وأنا متأكد من كل حاجة .. لما كبرت عرفت إن الإنسان ما
فيهش في أيده حاجة تقريبا .. الدنيا كلها قضاء وقدر
وأحس بالحزن يتسلل إليه فتتهد وسألها مبتسما:

- نفسك تمشافي ..؟!

- طبعا ..

- تحبي تروحي فين؟!

- أي حنة بعيدة عن المخروبة دي؟!

- أنت بتكرهي مصر ..؟!

- طبعا ..

- معقول ..! حد يكره بلده؟!

- أنا ما شفتش منها حاجة حلوة عشان أحبها

نطقت هذه الجملة وأشاحت بوجهها ورد زكي بحماس :

- الواحد لازم يحب بلده لأن بلد الواحد زي أمه ..

فيه أحد يكره أمه ؟! ..

- الكلام ده في الأغاني والأفلام .. يا زكي بك

الناس تعبانة

- الفقر ما يمنعش الوطنية .. زعماء مصر الوطنيين

معظمهم كانوا فقراء

- الكلام دا على أيامكم .. دلوقت النار طهقت على

الأخر

- ناس مين ؟!..

- كل الناس .. البنات مثلا اللي كانوا معايا في

مدرسة التجارة .. كلهم نفسهم يهجوا بأي طريقة ..

- للدرجة دي ؟!..

- طبعا ..

- اللي مالوش خير في بلده مالوش خير في حد ..

أفلتت هذه الجملة من زكي وأحس بأنها ثقيلة فابتسم ليخفف
وقعها على بثينة التي نهضت واقفة وقالت بمرارة :

- انت مش فاهم لأن ظروفك كويسة .. لما تقف

ساعتين على محطة الأتوبيس ولا تركب ثلاث مواصلات

وتتبهدل كل يوم عشان ترجع بيتكم .. لما بيتك يقع

والحكومة تسيبك قاعد مع عيالك في خيمة في الشارع .. لما

الضابط يشتبك ويضربك لمجرد انك راكب ميكروباس

بالليل .. لما تفضل تلف طول النهار على المحلات تدور

على شغل وما تلاقش .. لما تبقى طويل عريض ومتعلم

وما فيش في جيبك إلا جنيه واحد وساعات ما فيش خالص

.. ساعتها بس حتعرف إحنا بنكره مصر ليه ..

سك بيلهما صمت ثقيل وقرر زكي تغيير الموضوع

فنهض من مقعده واتجه إلى جهاز التسجيل قائلا بمرح :
- أنا ها أسمعتك دلوقت أجمل صوت في الدنيا ..
مغنية فرنسية اسمها اديث بياف .. أهم مغنية في تاريخ
فرنسا .. سمعت عنها ؟! ..

- أنا ما أعرفش فرنساوي أساسا
وأشاح زكي بيده علامة أن ذلك لايهم وضغط على
مفتاح جهاز التسجيل فانبعثت موسيقى راقصة على البيانو
وعلا صوت بياف : اقنا قويا صافيا وأخذ زكي يهز رأسه
على إيقاع اللحن وقال :

- الأغنية دي بتفكرني بأيام جميلة ..

- كلماتها بتقول إيه ؟!

- بتحكى عن بنت واقفة وسط الزحام وبعدين الناس
دفعوها غصبا عنها ناحية واحد ماتعرفوش وأول ما شافته
احست ناحيته بإحساس جميل وتمنت لو تبقى معه طول
العمر لكن فجأة الناس دفعوها بعيد عنه .. وفي النهاية لقت
نفسها وحدها والإنسان اللي أحبه ضاع منها للأبد
- يا خسارة ..

- طبعا الأغنية فيها رمز .. يعني الواحد ممكن
يقضى طول عمره يبحث عن الشخص المناسب ولما يلاقيه
يضيع منه ...

كانا واقفين بجوار المكتب وأخذ يتكلم وهو يقترب

منها ووضع يديه على خديها فامتلات أنفها ببرائحته
الخشنة العتيقة وقال وهو يتأمل عينيها :

- عجبك الأغنية ؟!

- .. حلوة ..

- تعرفي يا بثينة لنا كنت فعلا محتاج أقابل انسانة

زيك

...

- عينيك جميلة جدا

- .. شكرا ..

هكذا همست وقد اضطرم وجهها وتركته يقترب
أكثر حتى لامست شفاته وجهها ثم احتواها بين ذراعيها لم
تلبث أن أحست في فمها بطعم الويسكي اللاذع ..

• • •

- على فين يا عروسة ؟!

سألها ملاك بوقاحة وهو يعترض طريقها في
الصباح أمام المصعد وأجابت وهي تتحاشى النظر إلى
بنده.

- نازلة الشغل

أطلق ملاك ضحكة عالية وسال :

- باين عليك الشغل عجبك !؟..

- زكى بك رجل طيب

- كل الناس طيبين .. عملت إيه في الموضوع

بتاعنا !؟..

- .. لسه ..

- يعني إيه !؟..

- لسه ما جتش الفرصة ..

وقطب ملاك ما بين حاجبيه ونظر إليها بما يشبه

الغضب وقبض على يدها بقوة وقال :

- اسمعي يا شاطرة .. المسألة مش لعبة ...

الأسبوع دا لازم يمضي على العقد .. فاهمة !؟.. ..

- حاضر ..

هكذا قالت وخلصت يدها منه ودخلت إلى المصعد..

• • •

منذ الصباح الباكر بدأ احتجاج الطلاب في معظم

الكلليات ، عطلوا الدراسة وأغلقوا المدرجات ثم أخذوا

يتحركون بأعداد كبيرة وهم يهتفون ويحملون لافتات تقدد

بحرب الخليج ، وعندما أذن لصلاة الظهر اصطف نحو

خمسة آلاف طالب وطالبة لأداء الصلاة في الساحة

المواجهة لقاعة الاحتفالات (الطلاب في المقدمة ووراءهم الطالبات) وقد أمهم في الصلاة الأخ طاهر أمير الجماعة الإسلامية ثم أقام المحضدون صلاة الغائب على أرواح شهداء المسلمين في العراق ، ولم يلبث طاهر أن صعد إلى أعلى درجات السلم المواجه للقاعة ، وقف بجلبابه الأبيض ولحيته السوداء المهيبة ، وعلا صوته في الميكروفون :

" أيها الأخوة ، لقد جننا اليوم لنوقف قتل المسلمين في العراق الشقيق ، إن أمتنا الإسلامية لم تمت بعد كما يريد لها الأعداء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح : " الخير في أمتي إلى يوم الدين " .. فلنقل يا إخواني كلمتنا عالية مدوية ليسمعها الذين وضعوا أيديهم في أيدي الأعداء النجسة الملوثة بدماء المسلمين .. يا شباب الإسلام .. إننا نتحدث الآن بينما صواريخ الكفار تلك العراق الشقيق ، أنهم يباهون بأنهم قد سحقوا بغداد سحقاً وجعلوها أثراً بعد عين ، يقولون أنهم أعادوا بغداد إلى العصر الحجري بعد أن دمروا محطات الكهرباء والمياد بالكامل ، الآن يا إخواني في كل لحظة يستشهد آلاف المسلمين العراقيين الذين تسليخ جلودهم القنابل الأمريكية وقد اكتملت المأساة عندما أذن حكامنا لأوامر أمريكا وإسرائيل وبدلاً من أن توجه جيوش المسلمين

أسلمتها إلى الصهاينة الذين يقتصبون فلسطين وينسبون
 المسجد الأقصى، صدرت أوامر حكامنا إلى الجنود
 المصريين حتى يقتلوا اخوتهم المسلمين في العراق ... يا
 اخوتي في الإسلام ارفعوا صوتكم عاليا بكلمة الحق
 .. قولوها عالية مدوية لكي يسمعها الذين باعوا دماء
 المسلمين وكسوا ثرواتهم المنهوبة في بنوك سويسرا ..
 علّت الهتافات من كل اتجاه ، يلقيها طلاب
 محمولون على الأعناق وترددها آلاف الحناجر بحماسة
 بالغ:

* إسلامية .. إسلامية .. لاشرقية ولاغربية *

* خير خير يا يهود .. جيش محمد راح يعود *

* يا حكامنا يا أنام .. دم المسلم بعثوه بكم *

ثم أثار لهم طاهر فسكتوا وعلا صوته هائلا
 بالغضب : * .. بالأمس نقلت شاشات التليفزيون في العالم
 كله ، صورة جندي أمريكي وهو يستعد لإطلاق صاروخ
 ليقتل أهلنا في العراق .. هل تعرفون ماذا كتب الخنزير
 الأمريكي على الصاروخ قبل أن يطلقه .. لقد كتب .. مع
 تحياتي إلى الله .. أيها المسلمون .. انهم يسفرون من
 إليكم فماذا أنتم فاعلون ؟! .. انهم يقتلونكم ويستحيون نساءكم
 ويستهنون بربكم سبحانه وتعالى .. هل هانت كرامتكم
 ورجولتكم إلى هذا الحد ؟! .. الجهاد الجهاد الجهاد ..

فليسمع الجميع كلمتنا عالية .. لا لهذه الحرب القذرة ..
لا لقتل المسلم بيد المسلم .. والله لنموتن قبل أن تكون أمة
الإسلام لقمة سائغة في فم الأعداء .. لن نكون أحذية
لأمريكا نرتدينا وتخلعنا كيفما تشاء ..

ثم هتف طاهر بصوت منقطع من الانفعال : "الله
أكبر .. الله أكبر .. تسقط الصهيونية .. الموت أمريكا ..
يسقط الخونة .. إسلامية إسلامية .."

حمل الطلاب طاهر على أعناقهم وأخذ الحشد
الضخم يتجه ناحية البوابة الرئيسية للجامعة ، كان هدف
المتظاهرين أن يخرجوا إلى الشارع حتى ينضم الناس إلى
المظاهرة لكن قوات الأمن المركزي كانت في انتظارهم
أمام الجامعة ، وما أن خرج الطلاب إلى الساحة حتى هجم
عليهم الجنود المسلحون بالعصي المضخمة والخوذات
والدروع الحديدية وأخذوا يضربونهم بعنف بالغ وارتفع
صراخ الطالبات ووقع طلاب كثيرون وأصيبوا وسالت
دماؤهم على أسفلت الشارع ، على أن حشود الطلاب ظلت
تدفع بغزارة من فتحة البوابة وتمكن كثيرون من الهرب ،
اندفعوا يركضون بعيدا عن الجنود الذين راحوا يطاردونهم ،
وتمكن هؤلاء الطلاب من اجتياز ميدان الجامعة وتجمعوا
من جديد عند الكوبري فانقضت عليهم فرق إضافية من
الأمن المركزي لكنهم اندفعوا بالمنات ناحية السفارة

الإسرائيلية وهناك ، برز من عند السفارة جنود كثيرون من القوات الخاصة أخذوا يقذفون الطلاب بقنابل مسيلة للدموع وارتفع الدخان حتى حجب المشهد كله ثم لعل صوت رصاص غزير ..



اشترك طه الشافلي في المظاهرات طوال النهار وتمكن في آخر لحظة من الهرب عندما بدأت قوات الأمن في القبض على الطلاب أمام السفارة الإسرائيلية ، وطبقا للاتفاق ذهب طه إلى مقهى الأوبرج في ميدان السيدة زينب حيث التقى ببعض الاخوة ومعهم الأمير طاهر الذي قدم عرضا وتقييما لأحداث اليوم ثم قال بصوت حزين :

- لقد استعمل المجرمون القنابل المسيلة للدموع كستار للتمويه ثم أطلقوا على الطلبة الرصاص الحي . وقد فاز بالشهادة أخوكم خالد حربي من كلية الحقوق . ونحن نحسبه عند الله ونسأله أن يغفر ذنوبه جميعا ويتغمده برحمته ويكرم مثواه في الجنة بإذن الله ..

قرأ الحاضرون الفاتحة على روح الشهيد و سادهم شعور بالرهبة والكآبة ثم شرح لهم الأخ طاهر انهم مطلوبون في اليوم التالي . الاتصال بوكالات الأنباء

الأجنبية لتأكيد خبر استشهاد خالد هربي وتنفذ أسر المعتقلين وتنظيم مظاهرات جديدة تبدأ من مكان لا يتوقعه الأمن .. كانت المهمة المكلف بها طه كتابة مجلات الحائط وتعليقها في الصباح الباكر على جدران الكلية ، وقد اشترى لهذا الغرض مجموعة أقلام ملونة وعدة أفراخ من الورق المقوى وأغلق على نفسه حجرته فوق السطح واستغرق في العمل حتى أنه لم ينزل إلى الزاوية وصلى المغرب والعشاء منفردا ، قام بتصميم عشر مجلات وتنفيذها كتابة ورسمًا وانتهى من العمل بعد منتصف الليل فحضر بتعب بالغ وقال لنفسه إن أمامه ساعات قليلة لينام لأن عليه أن يذهب إلى الكلية قبل الساعة صباحا ، صلى ركعتين سنة العشاء ثم أغلق النور واستلقى على جانبه الأيمن وردد دعاءه المعتاد قبل النوم : " اللهم اني وجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك . رغبة ورهبة إليك . لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك . اللهم أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت " .. ثم استغرق في نوم عميق وبعد فترة شعر بأنه يحلم وأفاق على أصوات مختلطة وفتح عينيه فميز أشباحا تتحرك في ظلام الحجرة وفجأة أضىء النور فرأى ثلاثة رجال ضخام واقفين أمام السرير .. اقترب منه أحدهم وصفعه بقوة على وجهه ثم أمسك برأسه وأدارها بعنف ناحية اليمين فرأى طه لأول

مرة ضابطا شابا سألته متهمكا:

- انت طه الشاذلي ؟!

لم يرد فضربه المخبرون بقوة على رأسه ووجهه
وأعاد الضابط السؤال فقال طه بصوت خافت :
- أيوه ..

فابتسم الضابط بتحدى وقال :

- .. عامل لي زعيم يابن القعبة ..

وكأنت هذه إشارة فانهالت الضربات على طه
والغريب أنه لم يَحْتَج ولا صرخ ولا حتى حمى وجهه
بيديه. ظل وجهه جامدا من وقع المفجأة واستسلم تماما
لضربات المخبرين الذين أحكموا قبضتهم عليه وجذبوه إلى
خارج الحجرة ..

• • •

من بين عشرات الزبائن الذين تمتلئ بهم قاعة
المطعم الشرقي في فندق شيراتون الجزيرة لن تجد إلا قلة
من المواطنين العاديين ، أولئك الذين يصطحبون خطيباتهم
أو زوجاتهم وأولادهم يوم العطلة من أجل أكلة كباب شهية،
أما معظم الرواد فمن وجوه المجتمع : رجال أعمال
مرموقون ووزراء ومحافظون حاليون وسابقون ، يأتون

إلى المطعم ليأكلوا ويجتمعوا بعيدا عن أعين الصحافة والفضوليين ، من هنا كثفت الشرطة الحراسة على المكان بالإضافة إلى الحراس الشخصيين الذين يأتون مع أية شخصية مهمة ، وقد صار لكبابجي الشيراتون نفس الدور الذي لعبه طويلا نادي السيارات الملكي في السياسة المصرية قبل الثورة ، فكم من سياسات وصفقات وقوانين تركت تأثيرها على حياة ملايين المصريين ثم إعدادها والاتفاق عليها في كبابجي الشيراتون على موائد الطعام العامرة بالمشويات ، والفرق بين نادي السيارات وكبابجي الشيراتون يعبر بدقة عن التغير الذي طرأ على النخبة المصرية الحاكمة قبل الثورة وبعدها ، فالوزراء الأرستقراطيون في العهد البائد ، بتعليمهم وسلوكهم الغربي الخالص كان يناسبهم تماما نادي السيارات حيث يسهرون كل ليلة ويصطحبون زوجاتهم بفساتين السهرة العارية ويحتسون الويسكي ويلعبون البوكر والجريдж .. أما الكبراء في العصر الحالي ، بأصولهم الشعبية غالبا وتمسكهم الصارم بمظاهر الدين ونهمهم إلى الطعام الشهوي فإن كبابجي الشيراتون يلانهم حيث يأكلون أفخر أنواع الكباب والكفتة والحمام المحشي ثم يشربون أكوابا من الشاي ويدخنون المعسل على الشيشة التي أدخلتها إدارة المطعم بناء على طلبهم ، وأنشاء الأكل والشرب والتدخين لا

ينقطع الحديث عن شئون المال والأعمال .. ولقد طلب
كمال الفولي لقاء الحاج عزام في كبابجي الشيراثون ، وجاء
هذا الأخير قبيل الموعد مع ابنه فوزي وجلسا يدخنان
الشيشة ويشربان الشاي حتى وصل كمال الفولي مع ابنه
ياسر وثلاثة من أفراد الحراسة قاموا بتفقد المكان ثم أسر
أحدهم إلى الفولي بشيء ما فهز رأسه موافقا وقال للحاج
عزام بعد أن احتضنه مرحبا بحرارة :

- معطش يا حاج .. لازم نغير القعدة .. الحراسة
معتزضة لأن المكان مكشوف..

واستجاب الحاج عزام ونهض وابنه مع الفولي
واتجهوا جميعا إلى مائدة بعيدة حددتها الحراسة ، في أقصى
المكان بجوار النافورة ، جلسوا هناك واستقر رجال
الحراسة في مائدة قريبة على بعد محسوب ، يسمح لهم
بحماية المائدة ولا يمكنهم من سماع ما يقال عليها ، بدأ
الحديث عاما : سزال متبادل عن الصحة والأولاد وشكوى
معتادة من إرهاق العمل وتزايد المسئوليات ، ثم قال الفولي
للحاج عزام بلهجة ودية :

- على فكرة حملتك في مجلس الشعب ضد
الإعلانات الخليعة في التلفزيون ممتازة وعملت صدق
عند الناس

- الفضل لك يا كمال بك .. أنت صاحب الفكرة

- كان غرضي الناس تتعرف بك وأنت نائب
جديد في المجلس.. والحمد لله كل الجرائد كتبت عنك ..

- ربنا يقدرنا على رد جمالك

- العفو يا حاج ..أنت اخ عزيز وربنا يعلم

- تفنكر يا كمال بك التليفزيون يستجيب للحملة

ويمنع الإعلانات السافلة دي

وصاح الفوني بحماس " برلماني " :

- يستجيب غصبا عنه .. أنا قلت لوزير الإعلام في

اجتماع المكتب السياسي: المسخرة دي لا يمكن تستمر ..

واجبنا حماية أخلاقيات الأسرة في بلدنا .. من يقبل بنته أو

أخته تنفجر على الرقص والمرقعة في التليفزيون وفيين؟!..

في مصر بك الأزهر؟!..

- أنا مستغرب البنات اللي يظهروا عريائين في

التليفزيون دول فين أهلهم؟! .. فين أبوها ولا أخوها دي

عشان يسيبها تظهر بالطريقة الوسخة دي..؟!..

- أنا عارف النخوة راحت فين؟!.. اللي يسيب

حريمه تتعري يبقى ديوث .. ورسول الله صلى الله عليه

وسلم لعن الديوث ..

وهز الحاج عزام رأسه قائلا بورع :

- الديوث بالذات مصيره جهنم وبنس المصير

والعياذ بالله

كان هذا الحوار بمثابة تمهيد وجس نبض
ومحذ قدرات ، مثل تمرينات التسخين التي يؤديها لاعبو
الكرة قبل أن يبدعوا المباراة ، وقد زالت الرهبة الآن
وسرى الدفء إلى الجلسة فمال كمال الفولي برأسه إلى
الأمام وابتسم قائلاً بنبرة ذات مغزى وهو يحرك مبسم
الشيخة بين أصابعه الغليظة :

- على فكرة .. نسيت أقول لك مبروك ..!..

- بارك الله فيك .. على إيه ؟!..

- على توكيل سيارات تاسو الياباني ..

- آه ..

هكذا ردد عزام بصوت خافت وقد لمعت عيناه
بانتباه مفاجئ ثم أطرق وجذب نفساً بطيناً من الشيخة
ليعطي نفسه فرصة للتفكير وبدأ يزن كل كلمة يقولها :

- بس الموضوع لسه ما تمش يا كمال بك .. أنا

لسه متقدم بطلب التوكيل واليابانيين بيعملوا تحريات عني ..

يمكن يوافقوا يعطوني التوكيل ويمكن يرفضوا .. قل يارب

وادعي لنا لأجل النبي ..

أطلق الفولي ضحكة عالية وخبط بيده على ركبة

الحاج وقال بلهجة حميمة :

- يا رجل يا عجوز .. على أنا الكلام دا ؟!..

لايسيدي أنت أخذت التوكيل الأسبوع ده .. وبالأمانة

وصل لك فاكس الموافقة يوم الخميس .. ايه رايك ؟!

ونظر عزام إليه صامتًا فاستطرد بجديّة

- بص يا حاج عزام .. أنا اسمي كمال الفولي ..

رجل دوغري كما السيف (وأشار بيده علامة الاستقامة)

.. كلمتي واحدة .. وأظنك جربتني ..

- ربنا يديم المعروف

- أقولك من الآخر ؟! .. التوكيل دا يا حاج أرباحه

تعدى الـ ٣٠٠ مليون كل سنة .. طبعاً ربنا يعلم اني أتمنى

لك الخير .. بس النعمة كده كبيرة عليك

- يعني ايه ؟؟

هكذا هتف عزام بصوت شابته حدة فأجابته الفولي

وهو ينظر إليه بقوة :

- يعني ما ينفعش تأكلها لوحدهك يا حاج .. إحنا

عاوزين الربع

- ربع ايه ؟!

- ربع الأرباح ..

- أنتم مين ؟!

ضحك الفولي عالياً وقال :

- بقه دا سؤال يا معلم .. ياراجل أنت ابن بلد وذاك

نظر ..!

- قصدك ايه ؟!

- قصدي انسي بانكُم بالنيابة عن الرجل
الكبير .. الرجل الكبير طالب بشاركك في التوكيل وبأخذ
ربع الأرباح .. وأنت عارف ...!! الرجل الكبير لما يطلب
لازم يأخذ ..

المصائب لا تأتي فرادى ..

هكذا يردد الحاج عزام كلما تذكر ذلك اليوم ..
غادر الشيراتون في نحو العاشرة مساء بعدما وافق على طلب كمال الفولي ، كان لابد أن يوافق لأنه يعلم قوة الرجل الكبير وأن ظل يشعر بغیظ بالغ من فكرة إعطائه ربع المكسب .. مشروع كبير يتعب ويشقى فيه ويصرف ملايين ثم يأتي الكبير ويأخذ ربع الأرباح على الجاهز !!... افتراء و بلطجة... هكذا قال لنفسه في حنق وقرر في نفسه أن يسعى لإيجاد حلا يمنع هذا الظلم ، كانت السيارة تسوق طريقها إلى بيته في المهندسين عندما التفت الحاج عزام قائلاً لابنه فوزي:

- اطلع على البيت وقل لوالدتك أنني بايت بره الليلة .. لازم أعمل اتصالات بخصوص موضوع الفولي
هز فوزي رأسه في صمت ونزل أمام البيت بعدما قبل يد أبيه الذي ربت على كتفه وقال :

- بكره نتقابل من بدري إن شاء الله في المكتب ..
اضطجع الحاج عزام في مقعد السيارة وأحس براحة وطلب من السائق أن يذهب به إلى عمارة يعقوبيان ، لم يكن قد رأى سعاد منذ أيام لانشغاله في موضوع التوكيل الياباني وابتسم وهو يتخيلها وقد فوجئت بحضوره إليها ، كيف سيجدها ، ماذا تصنع وحدها الآن ؟!...كم يشتاق إلى

ليلة معها ، ليلة يتخلص فيها من الهم ويستيقظ مرتاحا ..
خطر له أن يتصل بها من تليفون السيارة حتى تستعد
للقائه ، لكنه فضل أن يهبط عليها فجأة ليرى كيف تستقبله ،
وفعلا صرف السائق وصعد إلى الشقة وأدار المفتاح بهدوء
ودخل إلى الصالة فسمع صوتا يأتي من ناحية الصالون
فاقترب ببطء .. وهناك ، وجدها مستلقية على الأريكة وقد
ارتدت بيجاما حمراء ولفت شعرها على البوكل وغطت
وجهها بالكريم ، كانت تتفرج على التليفزيون وما أن رآته
حتى صاحت مرحبة وقفزت من مكانها واحتضنته قائلة
بعتاب :

- كذا يا حاج ؟! .. على الأقل كنت كلمني في
التليفون أقوم بعمل حسابي وألا أنت نفسك تشوفني وأنا
شكلي وحش

- أنت زي القمر ..

هكذا همس الحاج وتثبت بجسدها واحتضنها بقوة
وأحست هي بشهوته وكأنها وخزة فأرجعت رأسها إلى
الوراء وقالت بخلاعة وهي تتملص :

- أيوه يا حاج .. أنت كل حاجة عندك قفش كده ..

استي يا رجل لما أدخل الحمام وأعمل لك لقمة ..
مضت ليلتهما كالمعتاد ، أعدت له الفحم والشيشة
ودخن عدة أحجار من الحشيش ريثما أعدت نفسها في

الحمام ثم خلع ثيابه واستحم وارتنى جلبابه الأبيض على جسده العاري ونام معها ، وكان من ذلك النوع من الرجال الذين يتخلصون من همومهم بالجنس فجاء أدؤه معها تلك الليلة حارا وغزيرا على غير العادة حتى أنها بعدما فرغا قبلته وهمست وهي تدعك أنفها في أنفه :

- .. الدهن في العنقي

.. أطلقت ضحكة عالية وأسندت ظهرها إلى مسند

السريّر وقالت بمرح :

- يا لله أقولك على الفوزرة

- فوزرة ايه ..!؟..

- أيوه .. نسيت بسرعة ؟! .. الفوزرة يا حاج ..

الموضوع اللي تثبت لي به انك بتحبني

- أيوه صحيح لامواخذة .. دماغي الليلة مشغولة

على الآخر .. يا لله ياستي قللي لي على الفوزرة ..

واستدارت سعاد ناحيته ونظرت إليه في صمت

وكانها تستشف رد فعله ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وقالت :

- يوم الجمعة رحنت للدكتور ؟

- دكتور ؟! .. خير ..!؟

- كان عندي تعب

- .. سلامتك ..!

.. ضحكت عالياً وقالت :
- لا .. ما هو طلع تعب حلو ..
- مش فاهم ..
- مبروك يا حبيبي .. أنا حامل في شهرين ..

• • •

وقفت الناقلة الكبيرة أمام عمارة يعقوبيان .. كانت مغلقة تماماً إلا من بضعة نوافذ صغيرة مغطاة بالأسلاك ، واقتاد الجنود طه الساذلي وهم يضربونه ويركلونه بأحذيتهم الضخمة وقبل أن يدفعوه داخل السيارة وضعوا عصابة محكمة على عينيه ثم جذبوا يديه خلف ظهره ووضعوهما في الكلابشات فشنر بجلد يديه يتمزق من ضغط الحديد ، كانت السيارة مزدحمة عن آخرها بالمعتقلين ، الذين لم ينقطعوا طوال الطريق عن ترديد الهتافات ... : " لا اله إلا الله .. إسلامية .. إسلامية .. " وكأنهم بصياحهم يتغلبون على خوفهم وتوترهم ، وتركهم الحراس يهتفون لكن السيارة انطلقت بأقصى سرعة حتى وقع الطلاب أكثر من مرة بعضهم على بعض ثم توقفت فجأة وسمعوا صرير بوابة حديدية عتيقة وسارت السيارة ببطء قليلاً ثم توقفت من جديد وانفتح الباب الخلفي واندفع مجموعة جنود يصيحون

ويشتمون وقد خلعوا - أحزمتهم العسكرية وأخذوا يضربون بها الطلاب الذين أخذوا يتساقطون خارج السيارة وهم يصرخون ثم سمعوا نباح الكلاب البوليسية التي سرعان ما هجمت عليهم وحاول طه أن يجرى مبتعدا لكن كابا ضخما انقض عليه وأسقطه على الأرض وبدأ ينهش بأنيابه في صدره وعنقه ، تقلب طه على الأرض ليحمي وجهه من أنياب الكلب وفكر أنهم لن يتركوا الكلاب تقتلهم وأنه لومات سيرزق الجنة ، ظل متماسكا ، وأخذ يردد في سره آيات القرآن ويتذكر مقاطع من خطب الشيخ شاكِر واكتشف أن ألمه الجسدي يصل إلى ذروة معينة ، فظيعة ، ثم يقل الإحساس به شيئا فشيئا .. فجأة ابتعدت الكلاب عنهم وكأنها تلقت إشارة وظلوا ملقّين في الفناء لمدة دقائق ثم شن الجنود غارة جديدة من الضرب العنيف وبدءوا في اقتيادهم واحدا واحدا ، وشعر طه بأنهم يدفعونه في ممر طويل ثم انفتح باب ودخل إلى حجرة متسعة جوها ملبد بدخان السجائر وبدأ يميز أصوات الضباط الجالسين ، كانوا يتبادلون حديثا عاديا ضاحكا ثم قام أحدهم إليه و صفعه على قفاه بقوة و صاح في وجهه :

- اسمك ايه يا روح أمك ..

- طه محمد الشاذلي

- ايه !؟ .. مش سامع

- طه محمد الشاذلي

- ارفع صوتك يا ابن القحبة

صاح طه بأعلى صوته لكن الضابط صفعه وسأله
من جديد وكرر ذلك ثلاث مرات ثم انهالت الضربات
والركلات عليه حتى سقط على الأرض فأنهضوه وارتفع
لأول مرة صوت هادي أجش يتحدث بثقة وتأن ، صوت لن
ينساه طه أبدا بعد ذلك :

- خلاص يا جماعة.. كفاية ضرب.. الولد دا شكله
عاقل وذكي ..تعال يا ابني قرب هنا ..

ودفعوه ناحية مصدر الصوت الذي تأكد لطه أنه
رئيسهم وأنه يجلس على مكتب يتوسط المكان
- اسمك إيه يا حبيبي ؟؟

- طه محمد الشاذلي

كان يتكلم بصعوبة وهو يشعر بطعم الدم اللاذع في
فمه .. قال الرئيس :-

- يا طه أنت باين عليك طيب وابن ناس.. ليه ياابني
تعمل في نفسك كده؟! ..شفت جرى لك إيه ؟! .. ولسه؟!..
انت لسه شفت حاجة ؟! ... عارف العساكر دول ..
حيفضلوا يضربوا فيك لغاية بالليل وبعدين يروحوا بيوتهم
يأكلوا ويناموا وبيجي عساكر تانيين يضربوك لغاية الصبح
والصبح يرجع العساكر دول من بيوتهم ويضربوك تاني

لغاية بالليل...: حنّض كده على طول ولومت من
الضرب ندفنك هنا مطرح ما أنت واقف .. ولايهنا .. أنت
مش قدنا ياطه .. إحنا الحكومة .. أنت قد الحكومة ياطه ..!
شفت الداهية اللي وقعت نفسك فيها .. اسمع يا بابا .. تحب
أخرجك دلوقت ..!
.. تحب تروح لأهلك ..!
.. أبوك
وامك زمانهم قلقانين عليك ..

وقد نطق الجملة الأخيرة وكأنه منزعج بصدق
فشعر طه برجفة قوية تجتاح جسده وحاول جاهدا أن
يتماسك لكنه فشل وخرج منه صوت حاد كالعواء ثم استسلم
لبكاء متصل حار فاقترّب منه الضابط وربّت على كتفه
قائلا :

- لا ياطه .. لا يا حبيبي ما تبكيش .. والله
العظيم انك صعبان علي .. اسمع يا شاطر .. أنت تقول لنا
معلومات عن التنظيم بتاعك وأنا بشرفي أسبّك تخرج
حالا .. إيه رأيك ..!
..

صاح طه :

- أنا ما ليش تنظيم

- ومحتفظ بميثاق العمل الإسلامي إيه ؟!

- كنت أقرأ فيه

- بس يا حبيبي دا كتاب تنظيمي .. يالله ياطه ربنا

بيديك .. قل لي أنت مسئوليتك إيه في التنظيم ؟!

- أنا ما أعرفش تنظيمات

وانهالت الضربات من جديد وأحس طه بأن ألمه يتجاوز قوته الرهيبة مرة أخرى ليصبح أقرب إلى فكرة يدركها من الخارج وجاء صوت الرئيس هادنا كالعادة:
- ليه كده يا بني .. ما تقول اللي تعرفه وتخلص نفسك

- والله العظيم يا باشا أنا ما أعرف حاجة -
- أنت حر. ذنبك على جنبك .. خللي بالك أنا الوحيد الطيب هنا .. الضباط دول كفرة ومجرمين ومش بس بيضربوا .. دول بيعملوا حاجات قبيحة جدا.. ناوي تتكلم ولا لا؟..!

- والله العظيم ما أعرف حاجة

- خلاص .. أنت حر ..

وكانها كلمة السر ، ما أن نطق بها الضابط حتى انهالت الضربات من كل اتجاه على طه ثم ألقوا به منكفئا على الأرض وبدأت أكثر من يد تكشف جلبابه وتنزع عنه ملابسه الداخلية وقامهم بكل قوته لكنهم تكاثروا عليه وثبتوا جسده بأيديهم وأقدامهم وامتدت يدان غليظتان فشدتا عضلتي إبطيه وفرقتا بينهما وأحس بجسم صلب ينغرز في مؤخرته ويقطع أنسجته الداخلية فأخذ يصرخ . صرخ بأعلى صوته . صرخ حتى أحس بحنجرته تتمزق .

بحلول الشتاء بدأ عبد ربه حياته الجديدة ..
 انتهت فترة تجنيده في الأمن المركزي وخلع زيّه
 العسكري إلى الأبد واستبدل به الملابس الإفرنجية وتسلم
 العمل في الكشك الجديد ولم يلبث أن أرسل في إحضار
 زوجته هدية وابنه الرضيع وائل من الصعيد وسكنوا جميعا
 في حجرة فوق سطح عمارة يعقوبيان استأجرها لهم حاتم
 رشيد، تحسنت صحة عبده وزاد وزنه وبان عليه الاستقرار
 وتخلص من الطابع الهزيل النابس للمجندين وبدأ أقرب إلى
 تاجر قاهري شاب ناجح مفعم بالثقة و النشاط (وان ظل
 محتفظا بكنهه الصعيدية الثقيلة وأظافره الطويلة المتسخة
 وأسنانه المصفرة من أثر التدخين وبقايا الطعام التي لا
 ينظفها أبدا) وقد حقق أرباحا معقولة من بيع السجائر
 والحلويات والمزطبات وتقبل أهل السطح عبده وأسرته
 بطريقتهم مع كل الجيران الجدد : ترحاب مشوب بالحذر
 والفضول لكنهم يوما بعد يوم أحبوا هدية زوجة عبده ،
 بجسدها الرشييق الممشوق وجلبابها الأسود وسمرتها الداكنة
 والوشم الأزرق الغامق أسفل ثقلها وطعامها الصعيدى
 (البتاو والويكا) ولكنها الأسوانية التي يحلو لهم تقليدها
 ضاحكين .. قال عبده لجيرانه انه يعمل طبّاخا عند حاتم
 رشيد لكنهم لم يصدقوه لأنهم يعرفون شذوذ حاتم ولأنه
 كان يمتص معه مرتين كل أسبوع على الأقل وكانوا فيما

بينهم يتدرون على هذه "الطبخات الليلية" التي
 يجهزها عبده لسيدده ، كانوا يعرفون الحقيقة ويتقبلونها وكان
 سلوكهم عموما ازاء أي شخص منحرف يتوقف على قدر
 محبتهم له ، إذا كرهوه صاروا عليه انتصارا للفضيلة
 وشاجروا معه بشراسة ومنعوا أولادهم من الاختلاط به ،
 أما إذا أحبوه مثل عبد ربه فانهم يغفرون له ويتعاملون معه
 باعتباره ضالا ومسكينا ويريدون أن كل شيء في النهاية
 قسمة ونصيب كما أن هدايته ليست بعيدة على ربنا
 وسبحانه وتعالى و" ياما فاس كانوا أسوأ من ذلك ثم هدام
 ربنا وفتح عليهم وصاروا من أولياء الله " ، هكذا يقولون
 ويمصصون شفاههم ويهزون رؤوسهم بتعاطف .. وقد
 مضت حياة عبد ربه بلا مشاكل تقريبا لكن علاقته بزوجته
 هدية ظلت متوترة ، كانت سعيدة بحياتها الجديدة الرغبة
 لكن شيئا ما عميقا وشائكا ظل يضطرم بينهما ، يعلو ويخبر
 ويتوارى أحيانا لكنه دائما موجود ، عندما يأتي إليها في
 الصباح بعد ليلة قضائها مع حاتم ، يكون مرتبكا وعصبيا
 ويتحاشى النظر إلى عينيها ويعنفها بشدة على أقل هفوة
 فتقابل ثورته بالبسامة حزينة تستغزه أكثر فيصرخ :

- انطقي يا بجم ..

- الله يسامحك ..

تجيبه هدية بصوت خافت وتسحب من أمامه حتى

يهدأ ، وعندما يضمهما الفراش أثناء الغرام كثيرا ما يفكر عبده في عشيقه حاتم ويحس عندئذ بأنها تقرأ أفكاره فيدفن قلقه في جسدها . يضاجعها بعنف بالغ وكأنها ليمنعها من التفكير أو كأنه يعتدي عليها عقابا لها على معرفتها بتذوذه وعندما يفرغ يستلقي على ظهره ويشعل سيجارة ويظل محققا في سقف الحجرة ، وترقد هي بجواره ويظل الشيء الشائك معلقا بينهما لا يستطيعان تجاهله ولا الإشارة إليه ، مرة واحدة استجاب عبده لنزاع داخلي غامض .. كان قد تعب من التجاهل ونقل الأمر على قلبه وتمنى في قرارة نفسه لو تواجهه هدية بدلا من هذه الموارد المزعمة ، لو تنور في وجهه وتتهمه باللواط ، عندئذ يتحرر من العبء ويكشف لها كل شيء ويذكر لها ببساطة أنه لا يستطيع الاستغناء عن حاتم لأنه يحتاج إلى المال .. قال لها فجأة:

- عارفة يا هدية .. حاتم بك ذا إنسان طيب جدا

...

- لو تعرفي قلبه علينا قد إنه ١١؟

...

- ساكنة ليه ١؟

- عشان لاهو طيب ولا يعززون .. كل الحكاية

أنك أمين وهو معتمد عليك في الشغل

كانت هذه الحجة التي ترددها أمام الجيران وقد

تكلمت بحدة لأنه جرح تجاهلها الذي يعفيها من
الحرج وندم هو قليلا على اندفاعه فقال مهننا :
- ياسئى .. هو يشكر برضه لأنه عمل لنا كل
الجمال ده

- ما فيش جمال .. كل واحد بيعمل لمصلحته وانت
فاهم وأنا فاهمة .. وربنا يتوب علينا من حاتم ومن شغلته
ومن أيامه كلها ..
وقعت كلمتها ثقيلة عليه فلاذ بالصمت وأدار وجهه ناحية
الحائط فشعرت ناحيته بإشفاق .. اقتربت منه وأخذت كفه
بين يديها وقبلتها وهمست بحنان:

- يا أبو وائل .. ربنا يخليك لنا ويرزقك برزقنا في
الحلال .. نفسي تحوش قرش ينفعنا وتفتح لك كشك ملكك
أنت ولاحد يبقى له عندك حاجة .. لاحاتم ولاغيره ..



على طريقة الدول الاستعمارية الكبرى يهدف ملاك
خله إلى الامتداد والسيطرة .. تدفعه دائما قوة داخلية ملحة
للاستحواذ على كل شيء في متناول يده مهما تكن قيمته
وبأي طريقة وهو منذ وصل إلى السطح لم ينقطع عن
التوسع في كل اتجاه .. بدأ الأمر بحمام صغير مهجور

مساحته متر في متر يقع على يمين المدخل ، ما أن
 رآه ملاك حتى شرع في الاستيلاء عليه .. ووضع صناديق
 كرتونية فارغة أمامه ثم بدأ في تخزين بعضها داخل الحمام
 وشيئا فشيئا قام بإغلاقه بقفل كبير وضع مفتاحه في جيبه
 بحجة وجود بضائع داخل الصناديق معرضة للسرقة إذا
 ظل الحمام مفتوحا وبعد الحمام استولى على مساحة كبيرة
 من السطح ملأها بعدة ماكينات تفصيل قديمة ومعطلة
 وأخبر السكان (المنزعجين بالطبع من هذا الأمر) بأن هذه
 الماكينات تنتظر شخصا ما سيأخذها في أقرب فرصة
 لإصلاحها لكن هذا الشخص يتخلف دائما عن مواعده
 ويتصل بملاك تليفونيا في آخر لحظة ويخبره بأن طارنا ما
 قد حدث ويؤكد أنه قادم بالتأكيد بعد أسبوع أو أسبوعين
 على الأكثر لأخذ الماكينات .. وهكذا ظل ملاك يسوف
 حتى تمكن من فرض الأمر الواقع أما التجويف الكبير
 الموجود في جدار السطح فقد انتزع به بصرية واحدة
 مفاجئة ، في أقل من ساعة أحضر ثلاثة نجارين عملوا بابا
 خشبيا يغطي التجويف ووضعوا عليه قفلا احتفظ بمفتاحه
 وهكذا حصل من الهواء على دولا ب إضافي لتخزين
 بضائعه .. وكان ملاك أثناء هذه المعارك - على طريقة
 الساسة المخضرمين - يمتص غضب السكان واعتراضهم
 بكل طريقة بدءا من التهينة إلى تهديد الموضوع وحتى

المشاجرات العنيفة إن لزم الأمر (وقلما لزم) وقد
 ساعده على ذلك لحسن الحظ ، أن الأستاذ حامد حواس بعد
 ما أرسل الشكاوى إلى جميع المسؤولين في الدولة تقريرا .
 نجح أخيرا في إغواء نقله التعسفي إلى القاهرة وعاد إلى
 موطنه الأصلي في المنصورة وبذلك استراح مئلا من
 غريم عنيد كفيل بإفساد خططه التوسعية في السطح ، على
 أن المكاسب الصغيرة مثل الحمام والدولاب لم تكن ترضي
 شهوة ملك العقارية إلا بقدر ما يرضي قائدا عسكريا كبيرا
 انتصاره في لعبة الشطرنج ، كان يحلم بخبطة كبيرة تمنحه
 مبلغا ضخما : قطعة أرض حلوة يستولي عليها بوضع اليد
 مثلا أو شقة كبيرة يموت شاغلها فيأخذها لنفسه ، وهذه
 الحالة الأخيرة شائعة في وسط البلد فكثيرا ما يموت أجنبي
 عجوز ، وحيدا بلا أسرة ، فيستولي على شقته أقرب
 المصريين إليه ، المكوجي أو الطباخ أو زوج الخادمة .
 الذي يسارع بالإقامة في الشقة ويحرر محضرا يثبت إقامته
 فيها ويغير الأقفال ويبعث إلى نفسه خطابات مسجلة
 (بغرض إثبات الحالة) ويتفق مع شهود كاذبين يؤكدون
 أمام المحكمة إقامته الدائمة مع الأجنبي المتوفى ثم يكتسب
 أحد المحامين بمثابة القضية الطويلة البطينة صد صاحب
 العمارة الذي يضطر غالبا في النهاية إلى قبول التسوية مع
 مختصب الشقة مقابل مبلغ أقل بكثير من قيمتها الفعلية .

ضربة حظ كهذه ظلت تداعب أحلام ملاك كما
 يداعب النسيم أغصان الشجر واستعرض الشقق القابلة
 للاستيلاء عليها في عمارة يعقوبيان فوجد أقربها إلى يده
 شقة زكي السوقى ، ست حجرات وصالة وحمامان وشرفة
 كبيرة تطل على سليمان باشا وزكي رجل وحيد عجوز قد
 يموت في أية لحظة ، والشقة إيجار والإيجار لا يورث ،
 كما أن وجود أخيه أبسخرون داخل الشقة سوف يسهل
 لملاك الاستيلاء عليها في اللحظة الحاسمة ، وبعد تفكير
 واستشارات قانونية موسعة استقر ملاك على الخطوة : عقد
 شركة وهمية يوقعه مع زكي السوقى ويسجله في الشهر
 العقاري ثم يخفيه حتى إذا مات زكي أظهر ملاك العقد فلا
 يجوز حينئذ طرده من الشقة باعتباره شريكا تجاريا
 للمتوفى ، ولكن كيف يوقع زكي على العقد ؟.. من هنا نشأ
 التفكير في بثينة السيد ، زكي السوقى ضعيف أمام النسوان
 وتستطيع امرأة شاطرة أن تغالطه وتأخذ توقيعيه بدون أن
 يشعر ، وقد عرض ملاك على بثينة مبلغ خمسة آلاف جنيه
 مقابل حصولها على توقيع زكي السوقى ومنحها يومين
 مهلة للتفكير ، لم يساوره شك في أنها ستوافق لكنه أراد ألا
 يبدو ملتفها على الاتفاق ووافقت كما توقع لكنها سألته
 مباشرة بوضوح :

- .. إذا جئت لك العقد وعليه إمضاء زكي

الدسوقي .. ايه يضمن لي أنك تدفع .. ؟!
 .. وكان ملاك جاهزا للرد فقال بسرعة :
 - النظام سلم واستلم .. خللي العقد معك لغاية ما
 تاخذي المبلغ بالكامل ..
 وابسمت بثينة وقالت :
 - يعني اتفقنا .. لو ما فيش فلوس ما فيش عقد .. ؟!
 - طبعا ..

• • •

لماذا وافقت بثينة .. ؟!
 .. ولماذا ترفض !!؟ .. خمسة آلاف جنيه مبلغ جميل
 تقضي بها احتياجات اخوتها وتشتري ما يلزمها لتجهيز
 نفسها كما أن ملاك سيأخذ الشقة بعد وفاة زكي الدسوقي
 الذي لن يعرف أبدا بعملتها ولن يؤذيه شيء لأنه سيكون قد
 مات .. وحتى لو أن ذلك يؤذيه فلماذا تشفق عليه ؟! .. انه
 في النهاية مجرد عجوز متصاب عينه فارغة ويستحق ما
 يجرى له .. كانت قد فقدت إشفافها على الناس وتكونت
 حول مشاعرها قشرة سميقة من اللامبالاة ، ذلك الزهق
 الذي يصيب المراهقين والمحبتين والمنحرفين فيمنعهم من
 التعاطف مع الآخرين ، وقد نجحت بعد محاولات متكررة
 في التخلص من شعورها بشايب الضمير ، ففقت إلى الآ...

الإحساس بالإثم الذي كان يثابها وهي تتعري أمام
 طلال وتغسل عن ثيابها نجاسته ثم تمد يدها إليه لتقبض
 عشرة جنيهات ، صارت أكثر قسوة ومرارة وجراة ولم
 تعد تبالي حتى بما يردده سكان السطح حول سمعتها ،
 كانت تعرف من مخازيهم وفضائحهم ما يجعل تظاهروهم
 بالفضيلة أمرا مضحكا ، إذا كانت هي أقامت علاقة مع
 طلال لاحتياجها للنقد فإنها تعرف نسوة في السطح يخزن
 أزواجهن لمجرد تحقيق المتعة ، كما إنها في النهاية لازالت
 بكرًا وتستطيع الزواج من أى رجل محترم وتقطع لسان من
 يتكلم عنها بسوء .. بدأت بثينة العمل عند زكي الدسوقي
 وهي تتحين الفرصة لاختلاس توقيعها على العقد لكن الأمر
 لم يكن سهلا لأنه ليس ذلك العجوز الكريه الذي تخيلته لكنه
 على العكس لطيف ومهذب ويعاملها باحترام فلا تشعر معه
 أبدا أنها تؤدي مهمة مدفوعة الأجر كما كانت تشعر مع
 طلال الذي كان يجردها من ثيابها ويعبث بجسدها بغير أن
 يوجه لها كلمة واحدة ، كان زكي رقيقا معها ، تعرف إلى
 أسرته وأحب اخوتها الصغار واشترى لهم هدايا كثيرة
 وغالية ، كان يحترم مشاعرها ويستمع إلى ما تقوله باهتمام
 ويحكي لها حكايات شائقة عن الزمن القديم ، حتى لقاؤهما
 في الفراش لم يترك في نفسها الإحساس بالقرف الذي كان
 يتركه طلال ، كان زكي يلامسها برقة وكأنه يخشى عليها

من أثر أصابعه ، وكأنه يداعب وردة قد تتمزق
أوراقها من أدنى ضغط وكان يقبل يديها كثيرا (ولم تتصور
يوما أن رجلا سيقبل يديها) وفي الليلة الأولى عندما التقى
جسداهما همست في أذنه برقة وهي تحتضنه :

- خللي بالك .. أنا بنت ..

وضحك بصوت خافت وهمس

- عارف ..

ثم قبلها فشعرت بجسدها يذوب تماما بين ذراعيه ..
كانت له طريقته الساحرة في الغرام .. يستعيض بالخبرة
عن العنفوان وكأنه لاعب قديم يعرض ضعف لياقته
بمهاراته العالية ، وتمنت بثينة في نفسها لو أن زوجها الذي
سوف ترتبط به يوما يكون رقيقا مثله لكن إعجابها المتزايد
به كان على نحو ما يضايقها لأنه يستدعي داخلها شعورها
بالإثم ، انه لطيف معها وهي تخونه وتؤذيه ، هذا الرجل
الطيب الذي يحنو عليها ويدللها ويحكي لها أسرار حياته
لا يمكن أن يتصور أبدا أنها تعد الخطة لتستولي على شفته
بعد موته ، وهي تفكر في ذلك فتحتقر نفسها وتكرهها
ويصعب عليها أن تخدعه كما يصعب على الجراح إجراء
عملية لزوجته أو أولاده وقد همت بأخذ توقيعها على العقد
أكثر من مرة وهو مغمور لكنها تراجعت في آخر لحظة ،
لم تستطع ، وبعد ذلك - لدهشتها - لامت نفسها بشدة

واحست بالحنق لتخاذلها ، والحق أن إشفاقها علي زكي العجوز وإحساسها بالذنب من ناحية ورغبتها العارمة في المال من ناحية أخرى ظلا يتنازعا داخلها بنفس القوة ، حتى استجمعت إرادتها مرة وقررت أن تحسم الأمر وتختلس توقيعه في أقرب فرصة ..



- ..* لاحظي إن كل بدلي شتوية .. الحفلات دي كنت أحضرها في الشتاء وفي الصيف كنت بأسافر أوروبا..*

كانا جالسين في مطعم مكسيم بعد أن تناولوا العشاء وقد انتصف الليل وخلا المكان من الرواد ، ارتدت بثينة فستانا جديدا أزرق يكشف عن نحرها الناصع ومفرق نهديها وجلس زكي بجوارها يحتسي الريسكي ويعرض عليها مجموعة من صوره القديمة ، كان يبدو في الصور شابا وسيما أنيقا ضاحكا يمسك بكأس في يده ويقف وسط رجال يرتدون البدلات الكاملة ونساء جميلات بفساتين سهرة عارية وأمامهم موائد حافلة بالطعام وزجاجات الخمر الفاخرة .. أخذت بثينة تتفرج على الصور بشغف ثم أشارت إلى إحداها وصاحت ضاحكة :

- ..ايه ده؟! البدلة دي شكلها غريب جدا ..
- دي بدلة سهرة .. زمان كانت كل مناسبة لها بدلة مخصوصة .. بدلة الصبح غير بعد الظهر غير السهرات ..
- تعرف كان شكلك حلو .. شبه أنور وجدي
- قهقه زكى عاليا ثم سكت لحظة وقال :
- أنا عشت أيام جميلة يا بثينة .. زمن ثاني ...
- مصر كانت زي أوروبا .. نظافة وأناقة والناس مؤدبة ومحترمة ولا أحد يتجاوز حدوده أبدا ... أنا نفسي كنت حاجة ثانية . كان لي وضعي وعندي فلوس وكل أصحابي من مستوى معين وعندي أماكن مخصوصة أسهر فيها ..
- نادي السيارات وكلوب محمد علي ونادي الجزيرة .. كانت أيام .. كل ليلة ضحك وسهر وشرب وغنا. ومصر كان فيها أجانب كثير .. معظم السكان في وسط البلد كانوا أجانب لغاية لما عبد الناصر طردهم سنة ٥٦ ..
- هو طردهم ليه ..؟!
- طرد اليهود الأول وبقية الأجانب خافوا على أنفسهم ومشوا .. على فكرة إيه رأيك في عبد الناصر؟!!
- أنا اتولدت بعد ما مات .. ما أعرفش .. ناس بتقول عليه بطل وناس بتقول عليه مجرم ..
- عبد الناصر أسوأ حاكم في تاريخ مصر كله .. ضيع البلد وجاب لنا الهزيمة والفقر .. التخريب اللي عمله

في الشخصية المصرية محتاج منين طويلة لاصلاحه ..
عبد الناصر علم المصريين الجبن والانتهازية والنفاق ..

- آمال ليه الناس بتحبهه ؟!

- من قال الناس بتحبهه .. ؟!

- ناس كثير اعرفهم بيحبوه ..

- اللي يحب عبد الناصر إما جاهل أو مستفيد ..

الضباط الأحرار كانوا مجموعة عيال من حثالة المجتمع ..
معدمين أولاد معدمين .. والنحاس باشا كان رجل طيب
وقلبه على الفقراء فسمح لهم بدخول الكلية الحربية وكانت
النتيجة أنهم عملوا انقلاب سنة ٥٢ .. حكموا مصر
وسرقوها ونهبوها وعملوا ملايين .. طبعا لازم يحبوا عبد
الناصر لأنه رئيس العصاة ..

كان يتكلم بمرارة وعلا صوته من الانفعال وأحس
بذلك فاغتصب ابتسامه وقال:

- وأنت ذنبك إيه أوجع دماغك بالسياسة ... إيه
رايك أسمعك حاجة حلوة .. ؟! .. كريستين .. تعالي من
فضلك .. Viens s' il te plait ..

... كانت كريستين جالسة إلى مكتبها الصغير
بجوار البار وقد ارتدت نظارتها الطبية وانهمكت في
مراجعة الحسابات ، وقد تعدت ذلك لكي تتركهما وحدهما
ثم أقبلت الآن وعلى وجهها ابتسامه عريضة ، كانت تحب

زكي لدرجة أن تبتهج بصدق عندما تراه سعيدا كما
أنها ارتاحت كثيرا للبثينة .. صاح زكي بصوت ثمل
بالفرنسية وهو يمد ذراعيه ناخيتها :

- كريستين .. ألسنا صديقين قديمين ؟!

- طبعاً ..

- إذن .. يجب عليك أن تلبّي كل ما أطلبه فوراً ؟!

وضحكت كريستين وقالت :

- هذا يتوقف على نوع الطلب

- مهما يكن الطلب يجب أن تنفذه

- عندما تكون شربت نصف زجاجة ويمسكي كما

فعلت الليلة فيجب أن أحترس من طلباتك !..

- .. أريدك أن تغني الآن من أجلنا ..

- أغني ؟! .. الآن ..!؟ .. لا يمكن ..

كان الحوار يتكرر بينهما دائما على هذا النحو وكأنه طقس
ضروري : يطلب إليها الغناء فتعذر ويلح عليها فتحتج
وتتعلل ثم تقبل في النهاية ، وبعد دقائق جلست كريستين
أمام البيانو وأخذت تداعب المفاتيح بأصابعها فانبعثت
نغمات متفرقة وفجأة ، في لحظة معينة ، رفعت رأسها
وكانها تلقت هاتفا ما كانت تنتظره فأغمضت عينيها ووتر
وجهها وعزفت فترددت الموسيقى بقوة في أرجاء المكان
وانطلق صوتها عاليا صافيا ، كانت تغني لاديث بياف
ببراعة ..

لا .. لست نادمة على شيء .. اي شيء
 لا الخير الذي قدم إلى ولا الشر .. كل شيء
 يتساوى عندي
 أشعلت النار في ذكرياتي .. أجزائي وأفراحي لم
 أعد احتاج إليهم
 تخلصت من الماضي وعدت إلى نقطة للصفر لكي
 أبدأ في حبك.

• • •

بعد انقضاء السهرة اجتازا ميدان سليمان باشا في
 طريقهما إلى المكتب ، كان زكي مخمورا تماما فأمسكت به
 بثينة من خصره لتسنده وأخذ يصف لها بلسان ثقيل شكل
 الميدان زمان .. توقف أمام المحلات المغلقة وقال :
 - هنا كان فيه بار جميل صاحبه يوناني وجنبه
 كرافير ومطعم وهنا محل لآبورصا نوبا للجلود .. كل
 المحلات كانت قمة في النظافة وتعرض بضائع من لندن
 وباريس ..

ظلت بثينة تستمع إليه وترقب خطوته بقلق لئلا
 يسقط في الشارع وأخذا يتقدمان ببطء حتى وصلا إلى
 عمارة يعقوبيان فتوقف زكي أمامها وصاح :

- شايغة الطراز المعماري البديع .. العمارة
دي منقولة بالمسطرة من عمارة شفتها في الحي اللاتيني في
باريس ..

وحاولت بثينة أن تدفعه برفق حتى يجتاز الشارع
لكنه واصل :

- عارفة يا بثينة أنا باحس إن عمارة يعقوبيان
ملكي .. أنا أقدم ساكن فيها .. كل بني آدم وكل متر مربع
في العمارة أعرف تاريخه .. عشت فيها معظم حياتي شفت
فيها أيامي الجميلة وحاسس إن عمري من عمرها .. يوم ما
تتهد العمارة دي أو يجرى لها حاجة أنا هأموت في نفس
اليوم ..

.. ببطء وصعوبة ، تمكنا من اجتياز الشارع
وصعود الدرج ووصلنا أخيرا الى الشقة وقالت له بثينة :

- استريح على الكنبه

فنظر إليها وابسّم ثم جلس ببطء ، كان يتنفس
بصوت مسموع وبدأ أنه يبذل مجهودا كبيرا ليستجمع وعيه
ودفعت بثينة نفسها لتتخلص من التردد فالتصقت به وقالت
بصوت ناعم :

- أنا طالبة خدمة منك ممكن تعملها لي ؟! ..

حاول أن يرد لكنه عجز عن النطق من فرط السكر وأخذ
يحملق أمامه وشهق فانتابها هاجس أنه قد يموت الآن لكنها
استجمعت نفسها وقالت :

- أنا مقدمة للبنك الأهلي طلب قرض صغير ..
١٠ آلاف جنيه .. أسددها على خمس سنين بفوائد .
والمطلوب ضامن . ممكن تضمنني لو سمحت كانت قد
وضعت يدها على ساقه وهمست له بصوت ناعم ومتهدج
لدرجة أنه برغم سكره الصق وجهه بخدها وقبلها ،
واعتبرته موافقا فصاحت بفرح :
- متشكرة .. ربنا يخليك ..

ثم نهضت وأخرجت الأوراق بسرعة من حقيبتها
وناولته القلم
- وقع هنا من فضلك

كانت قد أعدت أوراقا حقيقية لطلب قرض ودست
وسطها عقد ملاك ، وأخذ زكي يوقع وقد أمسكت بيده
لتساعده لكنه توقف فجأة ، وتمتم بلسان ثقيل وقد بدا على
وجهه الإعياء :

- الحمام ..

ظلت صامته لحظة وكأنها لم تفهم فأشار بيده وقال
بصغوبة :

- عاوز الحمام !..

وضعت بثينة الأوراق جانبا وأنهضته بصغوبة
واستند إلى ذراعها حتى دخل إلى الحمام وأغلقت الباب
واستدارت راجعة ولما بلغت منتصف الردهة سمعت
وراءها صوت ارتطام عنيف ..

تلك الليلة امتلأت كافيتيريا جروبي في شارع
 عدلي عن آخرها بالزبائن ، معظمهم من العشاق الصغار
 الذين يشعرون بالراحة في الإضاءة الخافتة لمصابيح
 الحديقة التي تحجب وجوههم فيبتادلون الغرام بغير إزعاج
 أو تطفل من أحد ، وقد دخل إلى المكان رجل في الخمسين
 ممثلي وربعة يرتدي بذلة داكنة واسعة وقميصا أبيض
 مفتوحا بدون رابطة عنق وبدت ثيابه واسعة وغير منسقة
 مع جسده وكأنها لا تخصه ، جلس الرجل إلى المائدة
 المجاورة للباب ، وطلب فنجان قهوة سادة وظل صامتا
 يتأمل المكان وبين الحين والحين ينظر في ساعته بقلق ،
 وبعد حوالي نصف ساعة وصل إلى المكان شاب أسمر
 نحيل يرتدي ملابس رياضية وتوجه إلى حيث يجلس الرجل
 الضخم وتعاثق الاثنان بحرارة ثم جلسا يتكلمان بصوت
 خافت

- حمد لله على سلامتكَ يا طه .. متى خرجت ؟

- من أسبوعين

- .. أنت بالتأكيد مراقب .. هل فعلت كما قال لك

حسان وأنت قادم إلى هنا ؟

وهز طه رأسه فاستطرد الشيخ شاكر

- الأخ حسان آمن تماما .. اجعل اتصالك بي عن

طريقه وهو سيخبرك بمكان اللقاء وموعده . نحن نختر

عادة أماكن لا تثير الشبهات .. هذا المكان مثلاً مزدحم ومظلم مما يجعله مناسباً .. ونلتقي أيضاً في الحدائق العامة والمطاعم وأحياناً في البارات .. ولكن .. إياك أن نتعود على قعدة البارات ..

ضحك الشيخ شاكر لكن طه ظل واجماً وساد صمت
ثقل ثم استطرد الشيخ بمرارة :

- مباحث أمن الدولة تشن الآن حملة إجرامية على الإسلاميين جميعاً .. اعتقالات وتعذيب وقتل .. أنهم يطلقون النار على إخواننا العزل أثناء القبض عليهم ثم يتهمونهم بمقاومة السلطات .. مجازر حقيقية ترتكب كل يوم ولسوف يبعون بدم هؤلاء الأبرياء يوم القيامة .. لقد اضطررت إلى ترك مسكني والانقطاع عن المسجد .. وغيرت من مظهري كما ترى .. بالمناسبة .. ما رأيك في الشيخ شاكر في طبيعته الإفرنجية ؟!

أطلق الشيخ ضحكة عالية حاول بها أن يضيء جواً من المرح ولكن عبثاً .. فقد امتد بينهما ظل كنيب راسخ سرعان ما أذعن له الشيخ فتهد واستغفر وقال :

- شد حيلك ياطه .. أنا أحس بك وأقدر الملك يا ولدي .. أريدك أن تحتسب كل ما فعله الكفار بك عند ربنا سبحانه وتعالى ولسوف يجزيك به أفضل الجزاء بإذن الله .. واعلم إن الجنة جزاء من يتعذب في سبيل الله .. كل ما

حدث لك ضريبة هينة يدفعها المجاهدون عن طيب خاطر من أجل إعلاء كلمة الحق عز وجل .. حكامنا يدافعون عن مصالحهم وثرواتهم الحرام ونحن ندافع عن دين الله .. نحن طلاب آخرة وهم طلاب دنيا .. بضاعتهم خاسرة حقيرة أما نحن فقد وعدنا الله بنصره وهو لا يخلف وعده أبدا ..

وكانما كان طه ينتظر كلمة الشيخ ليفرج عن أحزانه فقال بصوت أجش:

- لقد أذلوني يا مولانا .. أذلوني لدرجة أنني أحسست أن كلاب الشوارع عندها كرامة أكثر مني .. تعرضت إلى أشياء لم أكن أتصور أن مسلما يفعلها أبدا - ليسوا مسلمين بل هم كفار بإجماع الفقهاء

- حتى ولو كانوا كفارا .. أو ليس لديهم ذرة من رحمة؟! .. ليس لديهم أولاد وبنات وزوجات يحبونهم ويشفقون عليهم؟! .. لو إنني اعتقلت في إسرائيل لما فعل بي اليهود مثل ذلك .. بل ولو كنت جاسوسا خاننا لديني وبلدي لما فعلوا بي ذلك .. إنني أتساءل عن الجرم الذي استحق عليه هذا العقاب الفظيع .. هل صار الالتزام بشرع الله جريمة عظيمة؟! .. أحيانا كان يهيا إلى في المعتقل أن ما يحدث أمامي غير حقيقي .. كابوس سأصحو من النوم فأجده انتهى .. لولا إيماني بالله عز وجل لكنت قتلت نفسي

لأنخلص من هذا العذاب

بان الألف في وجه الشيخ وظل صامتا بينما ضم طه قبضة يده وقال:

- لقد عصبوا عيني حتى لا أتعرف عليهم .. لكنني أقسمت وعاهدت الله أن أطاردهم .. سأعرفهم وانتقم منهم واحدا واحدا

- أنصحك يا ولدي أن تلقى بهذه التجربة الأليمة وراء ظهرك .. أعرف أن ما أطلبه صعب لكنه التصرف الوحيد الصحيح في حالتك .. إن ما جرى لك في المعتقل ليس أمرا خاصا بك .. لكنه مصير كل من يجاهر بالحق في بلدنا المنكوب والمسنولون ليسوا بضعة ضباط لكنه النظام الكافر المجرم الذي يحكمنا .. يجب أن توجه غضبك إلى النظام بأسره وليس إلى أشخاص بعينهم .. قال تعالى في كتابه الكريم " وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " صدق الله العظيم .. لقد حارب المصطفى صلى الله عليه وسلم في مكة وأهين واشتد به الأذى حتى شكى لربه قلة حيلته وهوانه على الناس ، لكنه مع ذلك لم يعتبر جهاده ثارا شخصيا من الكفار بل انصرف همه إلى نشر الدعوة وفي النهاية عندما انتصر دين الله عفا الرسول عن الكفار جميعا واعتقهم .. هذا الدرس يجب أن نتعلمه ونعمل به - كان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل خلقه ،

وأنا لست نبيا ، لا أستطيع أن أنسى ما فعله المجرمون ،
إن ما حدث لي يطاردني في كل لحظة . أنا عاجز عن
النوم ، لم أذهب إلى الجامعة منذ خروجي ولا أظنني
سأذهب .. أقضي اليوم كله في حجرتي لا أكنم أحدا ويخيل
إلي أحيانا أنني سافقد عقلي

- لا تمسلم ياطه ، لقد اعتقل آلاف من الشباب
الإسلامي وتعرضوا لتعذيب بشع لكنهم خرجوا من المعتقل
أكثر تصميمًا على مناصرة الظلم، إن الهدف الحقيقي للنظام
من تعذيب الإسلاميين ليس مجرد إيلاهم جسديا ولكن
المطلوب تدميرهم نفسيا حتى يفقدوا قدرتهم على الجهاد ..
ولو أنك استسلمت للحزن تكون حققت لهؤلاء الكفرة
أهدافهم..

نظر الشيخ إليه مليا ثم أمسك بيده فوق المائدة وقال:

- متى ترجع الى الجامعة ؟!

- لن أرجع

- بل يجب أن ترجع .. أنت طالب مجتهد ومتفوق

وينتظرك مستقبل باهر بإذن الله .. توكل على الله وانس ما
حدث وعد الى دروسك وكليتك

- لايمكن .. كيف أواجه الناس بعد ..

سكت طه فجأة ثم تقلص وجهه وزفر بقوة ..

- لقد هتكوا عرضي يا مولانا..

- اسكت

- هتكوا عرضي عشر مرات يا مولانا .. عشر

مرات

- قلت لك اسكت ياطه

هكذا صاح الشيخ بحدة لكن طه ضرب بيده على المنضدة
فاهتزت الأكواب بشدة وأصدرت صليلا ومرعان ما نهض
الشيخ من مكانه هامسا بانزعاج :

- تمالك ياطه .. الناس كلهم ينظرون إلينا .. يجب
أن ننصرف من هنا فورا .. اسمع سأنتظرك بعد ساعة أمام
سينما مترو .. خذ حذرك وتأكد أن أحدا لا يراقبك .

على مدى أسبوعين استعمل الحاج عزام الإقناع والإغراء والتهديد والعنف .. كل الطرق جربها مع سعد لكنها رفضت بإصرار فكرة الإجهاض ولم تلبث الحياة أن توقفت بينهما تماما : لا كلمات غزل ولا طعام شهى ولا أحجار حشيش ولا لقاءات في الفراش ، لم يعد لديهما إلا موضوع الإجهاض ، يأتي كل يوم ويجلس أمامها : يحدثها برقة وهذوء ثم شيئا فشيئا يفقد أعصابه ويتشاجران ..
يصيح:

- أنت انتفت ورجعت في الاتفاق ..

- قوم اشنقني ..

- قلنا من الأول ممنوع الحمل ..

- هو أنت ربنا بتحلل وتحرم؟! .. ولا إحنا خلفنا في

الحرام!؟!

- اعقلي وخلصينا من الورطة دي .. الله يرضي

عليك

- لا ..

- حاطلقك

- .. طلقني ..

كان ينطق لفظ الطلاق بنبرة فارغة زائفة لأنه في أعماقه كان يريد الاحتفاظ بها لكن فكرة إنجابها لطفل وهو في هذه السن مستحيلة ولو سمح هو بذلك فلان أولاده

الرجال لن يسمحوا وإذا كانت الحاجة صالحة زوجته الأولى لم تعرف بزواجه الثاني فكيف يخفي الأمر عنها إذا أنجب طفلا ؟! .. عندما يشد الحاج عزام من إقناع سعاد تركها وسافر إلى الإسكندرية والتقى بأخيها حميدو وحكى له ما حدث .. تربث حميدو وأطرق مفكرا لوهلة ثم قال :

- صلي على النبي يا حاج .. إحنا الاتنين أولاد البلد والأصول ما نرعلش حد .. أنا أخوها صحيح لكن لايمكن أطلب منها تسقط نفسها .. الإجهاض حرام وأنا رجل أخاف ربنا

- لكن إحنا اتفقنا ياريس حميدو ..

- اتفقنا وخالفنا الاتفاق .. حقك علينا يا سيدي .. دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف .. اعطيها حقوقها الشرعية بما يرضي الله وطلقها يا حاج .. بدا له وجه حميدو في تلك اللحظة لنينما وكانبا وكريها وتمنى فعلا لو أنه صفعه وضربه لكنه أثار الحكمة فأنصرف وهو يغلي بالغضب وفي طريق العودة إلى القاهرة لمعت في ذهنه فكرة مفاجئة وقال لنفسه :

" لم يبق إلا شخص واحد أنا واثق أنه سينفذني .. "

• • •

كان الشيخ السمان مشغولا للغاية بحرب الخليج
كل يوم ينظم محاضرات وندوات ويكتب مقالات
مطولة في الصحف ليشرح فيها الحكم الشرعي لحرب
تحرير الكويت وقد استضافته الحكومة مرارا في التليفزيون
ودعته إلى إلقاء خطبة الجمعة في أكبر جوامع القاهرة ،
وراح الشيخ يقدم للناس كافة الأدلة الشرعية على صحة
الموقف الذي اتخذته الحكام العرب باستدعاء القوات
الأمريكية من أجل تحرير الكويت من الاحتلال العراقي ..
قضى الحاج عزام ثلاثة أيام كاملة يبحث عن الشيخ السمان
حتى استطاع أخيرا أن يلتقي به في مكتبه بمسجد السلام
بمدينة نصر وقد بادره وهو يتأمل وجهه بقلق :

- مالك يا مولانا .. شكلك مرهق

- لا أنام تقريبا من أول الحرب .. كل يوم ندوات
ولقاءات وخلال أيام سأسافر بإذن الله إلى السعودية
لحضور الملتقى العاجل لعلماء المسلمين ..

- لا يا مولانا .. لازم تحافظ على صحتك

تنهد فضيلة الشيخ وتمتم :

- كل ما عملته أقل من الواجب وأسأل الله عز
وجل أن يتقبل عملي ويضعه في ميزان حسناتي ..

- ممكن تؤجل السفر إلى السعودية و تستريح قليلا

- معاذ الله أن أتقاعس .. لقد اتصل بي الشيخ

الغامدي وهو عالم جليل ولا نزكي على الله أحدا ..
سوف أشترك مع الاخوة العلماء هناك في إصدار بيان
شرعي لافحام مثيري الفتنة وبيان تهافت حجّتهم للناس،
سوف نذكر في البيان باذن الله الأدلة الشرعية على جواز
الاستعانة بالجيش المسيحية الغربية لإنقاذ المسلمين من
الكافر المجرم صدام حسين

وهز الحاج عزام رأسه مؤمنا على كلام الشيخ
ومرت لحظة صمت ثم ربت الشيخ على كتفه وسأله بود :
- وأنت كيف حالك .. أظنك جنتي في مسألة ..
- لا أريد أن أزيد همك .

وابتسم الشيخ ورجع بجسده الممتلئ في المقعد
الوثير قائلاً

- أنت بالذات لايمكن أن تسبب لي هما .. تفضل
أحك ..



لما وصل الحاج عزام والشيخ السمان إلى شقة سعاد
في عمارة يعقوبيان وجداها في ثياب البيت ، قابلت الشيخ
السمان بترحاب متحفظ ودلفت بسرعة إلى الداخل وعادت
بعد دقائق وقد غطت رأسها وحملت صينية فضية عليها
أكواب من عصير الليمون المثلج فتناول الشيخ رشفة من

المشروب واغمر عينيهِ مثلذا وكأنه وجد المناسبة
للدخول في الموضوع فالتفت إلى عزام وقال ضاحكا :

- عصير الليمون روعة .. مراتك ست بيت معنزة
.. يا أخي احمد ربنا على النعمة

والنقط عزام الخيط فقال :

- ألف حمد وشكر يا مولانا .. معاد ست بيت
وزوجة صالحة طيبة لكنها عنيدة ومتعبة
- عنيدة ؟!

هكذا سأل الشيخ مصطفى مصطنعا الدهشة والتفت إلى معاد
التي بادرته بلهجة جادة :

- طبعا الحاج حكى لحضرتك عن المشكلة ..!؟..

- ربنا ما يجيب مشاكل أبدا .. اسمعي يا بنتي .أنت
امراة مسلمة وملتزمة بشرع الله وربنا سبحانه وتعالى أمر
الزوجة بطاعة زوجها في كل شئون الدنيا حتى قال
المصطفى صلوات الله عليه وسلامه في حديثه الصحيح :
"لو أن لمخلوق أن يسجد لمخلوق مثله لأمرت الزوجة أن
تسجد لزوجها .." صدق رسول الله

- الست تسمع كلام زوجها في الحلال ولا في
الحرام ؟!

- أعوذ بالله من الحرام يا ابنتي ..لاطاعة لمخلوق
في معصية الخالق

- طيب قول له يا مولانا .. عاوزني اجهض

نفسي ..

ساد الصمت لحظة ثم ابتسم الشيخ السمان وقال بصوت هادئ :

- يا ابنتي أنت اتفقت معه من الأول على عدم

الإنجاب والحاج عزام رجل كبير وظروفه لاتسمح بذلك ..

- خلاص .. يطلقني بما يرضي الله

- ما هو لو طلقك وأنت حامل يبقى ملزم شرعا

بالمولود ..

- يعني أنت موافق أسقط نفسي ..؟!!

- أعوذ بالله .. الإجهاض حرام طبعا لكن بعض

الأراء الفقهية الموثوق فيها تؤكد أن التخلص من الحمل

خلال أول شهرين لا يعتبر إجهاضا لأن الروح تتبعث في

الجنين في بداية الشهر الثالث

- من قال الكلام ده ؟!

- فتاوى موققة لكبار علماء الدين ..

ضحكت سعاد ساخرة وقالت بمرارة :

- دول لازم مشايخ أمريكيان ..

- كلمي سيدنا الشيخ بأدب ..

فكذا نهرها الحاج عزام فحجته بنظرة متهمرة وقالت

متحدية

- كل واحد يؤدب نفسه

وتدخل الشيخ مهدنا :

- أعوذ بالله من غضب الله .. يا سعاد يا بنتي

اخزي الشيطان .. أنا لا أتحدث في الموضوع برأيي

- معاذ الله - لكنني أنقل إليك رأيا فقهيا معتبرا .. لقد ذهب

فقهاء نقاة إلى أن إجهاض الجنين قبل الشهر الثالث لا يعتبر

قتلا للنفس إذا تم لظروف قاهرة ..

- .. يعني أسقط نفسي ويبقى حلال !؟ .. من يقول

كده !؟ .. لا يمكن أصدقك لو حلفت لي على المصحف !؟

وهنا نهض الحاج عزام واقترّب منها وصاح غاضبا :

- بأقولك كلمي سيدنا الشيخ بأدب

فوقفت سعاد وصاحت وهي تلوح بذراعيها :

- سيدنا الشيخ إيه !! .. كل حاجة بانت .. أنت

مقبضه فلوس عشان يقول كلمتين خايبين .. بقى الإجهاض

حلال في أول شهرين .. !؟ .. يا شيخ حرام عليك .. تروح

من ربنا فين !؟ ..

لم يتوقع الشيخ السمان ذلك الهجوم المفاجئ فأربد

وجهه وقال محذرا :

- احترم نفسك يا بنيتي وإياك تتجاوزي حدودك

- أتجاوز إيه وانتيل إيه .. يا شيخ يا مسخرة ..

دفع لك كم عشان تيجي معه .. !؟ ..

- أه يا ساقلة يا بنت الكلب

هكذا صاح الحاج عزام وصفعها على وجهها
فصرخت وأخذت تلول لكن الشيخ السمان أمسك به وجذبه
بعيدا وراح يحدثه بصوت خافت ولم يلبث الاثنان أن
انصرفا وصفا الباب وراءهما ..



طاردتهم سعاد بالشقائم واللعنات ، كانت ترتعد
غضبا من كلام الشيخ السمان ومن عزام الذي ضربها لأول
مرة منذ زواجهما وظلت تحس بال ألم الصفعة على وجهها
وعزمت في نفسها على أن تتنقم منه ، لكنها مع ذلك
شعرت براحة خفية لأنها وصلت معه إلى مواجهة سافرة ،
انقطع بينهما أي خيط يلزمها ويحرجها ، لقد ضربها
وشتمها ومن الآن فصاعدا ستعبر عن احتقارها وكراهيتها
له بأوضح صورة ، والحق أن قدرتها على الشجار والشنآنم
كانت جديدة عليها وكأنما انفجر الشر في نفسها فجأة ،
تراكم في نفسها كل ما عانت به وتعذبت به وحن وقت
الحساب ، إنها الآن مستعدة لأن تقتله أو يقتلها قبل أن
تجهض نفسها .. لما هدأت قليلا سألت نفسها لماذا تحرص
على حملها إلى هذه الدرجة ؟! .. إنها طبعا متدبنة

والإجهاض حرام كما أنها تحس برعب من عملية الإجهاض نفسها لأن نساء كثيرات يمتن أثناءها.. كل هذه اعتبارات صحيحة لكنها ثانوية ... ثمة رغبة غريزية راسخة تدفعها إلى القتال بشراسة دفاعا عن حملها ، تحس كأنها لو أنجبت سوف تسترد كرامتها، ستكتسب خيانتها معنى جديدا محترما ، لن تكون المرأة الفقيرة التي امسراها المليونير عزام ليستمتع بها ساعتين بعد الظهر بل زوجة حقيقية لا يمكن تجاهلها وإهانتها ، ستكون أم الولد ، تخرج وتدخل وهي تحمل على ذراعيها ابن الحاج ، أو ليس ذلك من حقها؟! .. لقد جاعت وتسولت وذاقَت الذل ورفضت أن تتحرف مائة مرة وفي النهاية قبلت أن تمنح جسدها لعجوز في سن أبيها ، أن تتحمل ثقله وكأبنه ووجهه المليء بالتجاعيد وشعره المصبوغ ورجولته الذابلة ، أن تتظاهر بأنها ارتوت وجسدها يؤلمها من الرغبة ، أن يأتيها وينصرف من عندها خلسة وكأنها عشيقة ، أن تنام كل ليلة وحدها في فراش بارد وشقة متسعة مخيفة وتضطر كل ليلة لإضاءة الأنوار لتبدد الوحشة ، أن تبكي كل يوم شوقا إلى ابنها ثم يحين موعد عزام فتتزين له وتؤدى دورها الذي تقبض ثمنه .. أو ليس من حقها بعد كل هذا الذل أن تشعر مرة بأنها زوجة وأم ، أليس من حقها أن تتجيب ابنا شرعيا يرث ثروة تقيها شر الفقر إلى الأبد ..؟! .. لقد وهبها الله

هذا الحمل كنشواب عادل نصبرها الطويل وهي لن
تتنازل عنه أبدا بأي ثمن .. هكذا فكرت سعاد ثم دخلت إلى
الحمام وخلعت ثيابها وعندما تدفق الماء الساخن على
جسدها العاري انتابها إحساس غريب وجديد بأن جسدها
الذي طالما استعمله عزام ولوثه وأذله قد تحرر فجأة
وصار ملكها وحدها ، يداها وذراعاها وساقاها وصدرها ،
كل جزء في جسمها يتنفس بحرية وثمة نبض خافت جميل
تسعر به داخلها ، نبض سوف يكبر وينمو ويملؤها يوما بعد
يوم حتى يحين الوقت فيخرج طفلا جميلا يشبهها ويرث
ثروة أبيه ويعيد إليها كرامتها ووضعها اللائق ، فرغت من
الحمام وجففت جسدها وارتندت ملابس النوم وأدت صلاة
العشاء والسنة ثم جلست في فراشها تقرأ القرآن حتى غلبها
النعاس.

- مين ١٩..!

.. انتبهت من نومها على حركة وهممة خارج
الغرفة ، وفكرت في أن لصا تسلل إلى الشقة فارتجفت من
الرعب وقررت أن تفتح النافذة وتستغيث بالجيران

- مين ١٩..!

صرخت من جديد بصوت حاد وأصاحت السمع

وهي جالسة على فراشها في الظلام لكن الأصوات انقطعت وساد السكون وقررت أن تستطلع الأمر بنفسها فتحركت وأنزلت قدميها من السرير لكن الخوف شل أطرافها فالتفتت نفسها بأن الأمر مجرد هواجس وعادت إلي الفراش ووضعت وسادة على رأسها ومضت لحظات وهي تحاول الاستغراق في النوم ، وفجأة انفتح باب الحجرة بعنف حتى ارتطم بالحدار وهجموا عليها .. كانوا أربعة أو خمسة ، لم تتبين وجوههم في الظلام ، انقضوا عليها وكنم أحدهم فيها بالوسادة وأمسك الآخرون بيديها وقنمها وحاولت بكل قوتها أن تتخلص منهم ، أن تصرخ بأعلى صوتها وعضت يد الرجل الذي يكتمها لكن مقاومتها فشلت لأنهم أوثقوها بقوة وشلوا حركتها تماما ، كانوا أقوياء ومدربين وكشف أحدهم كم البيجاما التي ترتديها وأحست بشيء كالشوكه المدببة ينغرز في ذراعها وشيئا فشيئا بدا جسدها يضعف ويسترخي ثم غامت عينها وأحست بأن كل ما حولها يبتعد ويتلاشى وكأنه حلم ..

• • •

انشئت صحيفة * لوكير * Le Caire في القاهرة منذ
مائة عام في نفس المبنى العتيق الذي تشغله الآن في شارع

الجلاء وظللت منذ إنشائها تصدر يوميا باللغة الفرنسية من أجل الناطقين بها المقيمين في القاهرة ولما تخرج حاتم رشيد في كلية الآداب استطاعت والدته الفرنسية أن تجد له عملا في الجريدة وقد أثبت جدارته في الصحافة وترقى بسرعة حتى عين رئيسا للتحريض في سن الخامسة والأربعين وأدخل على الجريدة تطويرا شاملا وأضاف قسما باللغة العربية وجهه إلى القارئ المصري فارتفع توزيع الجريدة في عهده إلى ثلاثين ألف نسخة يوميا وهو رقم ضخم بالنسبة للصحف المحلية الصغيرة، وجاء هذا النجاح كنتيجة طبيعية وعادلة لكفاءة حاتم ودأبه واتصالاته الفعالة بالأوساط المختلفة وقدرته الهائلة على العمل التي ورثها عن أبيه ، وإذا عرفنا أن سبعين شخصا (بين موظفين وصحفيين ومصورين) يعملون تحت رئاسته في الجريدة فأول سؤال يتبادر إلى الذهن : هل يعرفون بشذوذه الجنسي؟...الإجابة نعم بالطبع لأن الناس في مصر يهتمون بالحياة الشخصية وينقبون عن أسرارها بالحاح وتركيز .. وموضوع كالشذوذ يستحيل إخفاؤه ، فكل العاملين في الجريدة يعرفون بأن رئيسهم شاذ ، وبرغم ما يثيره ذلك لديهم من تقزز واحتقار فإن انحراف حاتم رشيد يظل مجرد ظل باهت بعيد لصورته القوية المقنعة في العمل ، أنهم يدركون شذوذه لكنهم لا يشعرون به في تعاملهم اليومي

معه أبدا لأنه جاد وصارم ربما أكثر مما يجب ، وهو يقضي معهم أكثر ساعات اليوم فلا تبدر منه أدنى حركة أو لفظة تنم عن ميوله وإن لم يخل الأمر بالطبع من حوادث سوقية وقعت أثناء رئاسته للجريدة : كان هناك مرة صحفي كسول وفاشل فمنحه حاتم عدة تقارير سينة تمهيدا لنقله نهائيا من الجريدة ، وعرف الصحفي بنية رئيس التحرير فقرر أن ينتقم واستغل وجود الصحفيين جميعا في اجتماع التحرير الأسبوعي وطلب الكلمة فلما أذن له حاتم بادره قائلا بنبرة ساخرة :

- أريد أن أعرض على سيادتك فكرة تحقيق صحفي عن ظاهرة الشذوذ الجنسي في مصر ..

ساد صمت متوتر بين الحاضرين ولم يخف المحرر ابتسامته إمعانا في إهانة حاتم الذي سكت وأطرق ومسح بيده على شعره الناعم (وهذه عادته عندما يفاجأ أو يتوتر) ثم رجع بظهره في المقعد وقال بهدوء :

- لا أظن هذا الموضوع يهم القراء ..

- بل يهمهم جدا لأن هناك تزايدا كبيرا في عدد الشواذ وبعضهم يحتل الآن مناصب قيادية في البلد والدراسات العلمية تؤكد أن الشاذ لا يصلح نفسيا لقيادة العمل في أية مؤسسة نتيجة للشبهات النفسية التي يسببها الشذوذ الجنسي ..

كان الهجوم قاسيا وكاسحا ، وقرر حاتم أن يرد بعنف فقال بثبات :

- تفكيرك التقليدي أحد أسباب فشلك الصحفي ..

- وهل صار الشذوذ سلوكا تقدما ؟!

- ولا هو أيضا المشكلة القومية في بلادنا .. يا

استاذ يا معلم مصر لم تتخلف بسبب الشذوذ الجنسي بل بسبب الفساد والديكتاتورية والظلم الاجتماعي .. كما أن للتخصص على حياة الناس الخاصة سلوك مبتذل لا يليق بجريدة عريقة مثل لو كير

وحاول الصحفي أن يعترض فقاطعه حاتم بحدة :

- المناقشة انتهت .. أرجوك تسكت حتى نتمكن من

مناقشة الموضوعات الأخرى ..

وهكذا كسب حاتم الجولة بجدارة وأكد للجميع قوة

شخصيته وعدم خضوعه للابتزاز وفي المرة الأخرى الحرجة ، الأكثر سوقية ، تحرش به محرر تحت التمرين ، كان حاتم واقفا بين عمال المطبعة يشرف على تنفيذ الجريدة عندما تظاهر المحرر بمناقشته واقترب منه وأشار إلى شيء في الورق على المنضدة والتصق من الخلف بجسده ، وأحس حاتم فورا بمعنى الحركة فابتعد بهدوء واستأنف جولته في المطبعة بطريقة عادية وأما عاد إلى مكتبه بعث في طلب المحرر وصرف الموجودين في

الحجرة ثم تركه واقفا لبضع دقائق واخذ يراجع أوراقا أمامه بغير أن يسمح له بالجلوس أو يلتفت إليه وأخيرا رفع رأسه ونظر إليه مليا وقال ببطء :
- اسمع .. إما أن تحترم نفسك أو أطردك فورا من الجريدة .. فاهم ؟!

وحاول المحرر أن يتظاهر بالدهشة والبراءة لكن حاتما قال بلهجة حاسمة قبل أن يعود إلي مطالعة الأوراق :
- دا إنذار نهائي . بدون تفاصيل .. تفضل ..
المقابلة انتهت .



ليس حاتم رشيد إذن مجرد مخنث بل هو شخص موهوب مجتهد أحنكته التجارب ووصل بكفاءته ونكاية إلى قمة نجاحه المهني ، وهو إلى ذلك متقف من طراز رفيع يجيد عدة لغات بطلاقة (الإنجليزية والأسبانية والفرنسية بالإضافة إلى العربية) وقد قادت قراءاته الواسعة العميقة إلى الأفكار الاشتراكية فتأثر بها كثيرا وسعى إلى صداقة كبار الاشتراكيين المصريين ، وبسبب هذه الصداقة استدعي مرة واحدة في أواخر السبعينيات إلى مباحث أمن الدولة حيث حققوا معه لكنهم أطلقوا سراحه بعد ساعات قليلة بعد

ما سجلوا في ملفه أنه "عنصر متعاطف وغير
 منظم" وقد رشحته ثقافته الاشتراكية أكثر من مرة للتجنيد
 في التنظيمات الشيوعية السرية (حزب العمال والحزب
 الشيوعي المصري) لكن شذوذه المعروف كان ينشئ
 المسنولين عن تجنيده .. هذه شخصية حاتم رشيد الحقيقية
 المعلنة أما حياته السرية الشاذة فهي أقرب إلى صندوق
 مغلق مليء بالألعاب الممنوعة الأثمة الممتعة ، يفتحها كل
 ليلة ليستمع به ثم يغلقه ويحاول أن ينسأه وهو يسعى إلى
 تقليص المساحة الشاذة في حياته لأضيق نطاق ، يعيش
 يومه العادي كصحفي ومسئول قيادي وفي الليل يمارس
 لذته لبضع ساعات في الفراش و يقول لنفسه إن معظم
 الرجال في الدنيا لهم مزاج معين يتخفون به من ضغوط
 الحياة وقد عرف شخصيات في أرفع المناصب : أطباء
 ومستشارين وأساتذة جامعة ، مولعين بالخمر أو الحشيش أو
 النساء أو القمار ولم يقل ذلك من نجاحهم أو احترامهم
 لأنفسهم ، وهو يقنع نفسه بأن شذوذه شيء من هذا القبيل ،
 مجرد مزاج مختلف ، يحب هذه الفكرة كثيرا لأنها تريحه
 وتعيد إليه التوازن وتمنحه الاحترام ، من هنا يتطلع دائما
 إلى علاقة مستقرة مع عشيق دائم حتى يشبع حاجته بطريقة
 آمنة وينحصر شذوذه في ساعة الفراش الليلية لأنه عندما
 يكون وحيدا بلا عشاق تستبد به الغواية وتدفعه شهوته

الملح إلى أوضاع مهينة ، وقد مرت به أيام حزنه
 مؤلمة اندفع فيها إلى تلويث نفسه فأخذ يتردد على أماكن
 الشواذ ويبذل نفسه مع المشبوهين والحقالة لينتقط من
 بينهم عشيقا يقضي معه حاجته ليلية واحدة ولا يراه بعد
 ذلك ولكم تعرض إلى السرقة والإهانة والابتزاز وضربوه
 مرة بطريقة وحشية في حمام شعبي بحي الحسين واستولوا
 على ساعته الذهبية ومحفظته .. في أعقاب تلك الليالي
 الجنونية كان حاتم رشيد يعتكف في البيت عدة أيام لا يرى
 أحدا ولا يكلم أحدا ، يشرب كثيرا ويتأمل حياته كلها
 ويسترجع ذكرى أبيه وأمه بحنق وكراهية .. يقول لنفسه لو
 أنهما خصصا بعض الوقت لرعايته لما انحدر إلى هذه
 الحال ، لكنهما كانا مشغولين بطموحهما المهني فانصرفا
 إلى تحقيق الثروة والمجد وتركاه للخدم يعبتون بجسده ، انه
 لا يلوم إدريس أبدا ولا يشك لحظة في أنه أحبه بصدق ،
 لكنه يتمنى لو يبعث أبوه الدكتور حسن رشيد من قبره مرة
 واحدة حتى يسمعه رايه فيه سيقف أمامه ويواجه نظراته
 القوية وقامته الضخمة وجليونه المهيّب .. لن يخاف منه
 سيقول له : " .. أيها العلامة الكبير إذا كنت قد وهبت
 حياتك للقانون المدني فلماذا تزوجت وأنجبتني ؟! .. قد
 تكون نابغة في القانون لكنك بالتأكيد لاتعرف كيف تكون أبا
 حقيقيا .. كم مرة قبلتني طوال حياتك .. كم مرة جلست معي

لأحدثك عن مشاكلي.. لقد عاملتني دائما وكأنني تحفة أو
 لوحة نادرة أعجبتك فافتتيتها ثم نسيتها ومن حين لآخر ،
 فقط عندما يسمح جدول أعمالك المزدحم ، تتذكرها فتأملها
 قليلا وتساها من جديد .." ، أما أمه جانبت فسوف يواجهها
 هي الأخرى بحقيقتها : " لقد كنت مجرد ساقية في بار
 صغير في الحي اللاتيني ، كنت فقيرة وغير متعلمة وكان
 زواجك من أبي نقلة اجتماعية كبيرة لم تكوني تحلمين بها
 نكنك ظلمت بعد ذلك لمدة ثلاثين عاما تحقيرين أبي وتبترينه
 لأنه مصري وأنت فرنسية ، لعبت دور الأوروبية
 المتحضرة وسط الهمج ، ظلمت تتأففين من مصر
 والمصريين وتعاملين الجميع بجفاء وتعال .. وقد كان
 إهمالك لي جزءا من كراهيتك لمصر ، وأظنك قد خنت أبي
 أكثر من مرة ، بل أنا واثق من ذلك ، على الأقل مع
 المسيو بينار سكرتير السفارة الذي كنت تتحدثين إليه في
 التليفون بالساعات تستلقين على الفراش وتحضنين السماعة
 وتهسين ويربد وجهك بالشهوة وترسليني بعيدا ألعب مع
 الخدم .. أنت في الواقع ساقطة يكفي المرء أن يفتح كفه في
 بارات باريس ليلاحظ عشرة من أمثالك .." في تلك اللحظات
 السوداء يستبد اليأس بحاتم ويمزقه إحساسه بالمهانة
 ويستسلم للبكاء كالأطفال ويفكر أحيانا في الانتحار لكنه
 يفكر إلى الشجاعة اللازمة للإقدام عليه .. على أنه الآن في

أحسن أحواله : امتدت علاقته بعبد ربه واستقرت
ونجح في ربط حياته به عن طريق الكشك والحجرة التي
استأجرها له فوق السطح ، وضمن الإشباع الجسدي فانقطع
نهائيا عن التردد على بار شينو وأماكن الشواذ الأخرى ،
وهو يلح على عبده لكي يكمل دراسته ليصير رجلا محترما
متعلما قادرا على تفهم مشاعره وأفكاره وجديرا بصداقته
الدائمة ..

- يا عبده ، أنت ذكي وحساس وتقدر تحسن
ظروفك باجتهدك أنت حاليا تكسب وأسررتك مبسطة
وحياتك مستقرة ، لكن الفلوس مش كل حاجة .. لازم تتعلم
وتبقي رجل محترم ..

كانا قد فرغا من نوبة غرام صباحية ونزل حاتم
عاريا من الفراش ومشى بخطوة راقصة حاملة على
أطراف أصابعه وقد بدا على وجهه الرضا والانتعاش
كعادته عندما يشبع من الحب ، وأخذ يصب لنفسه كأسا
بينما ظل عبده مستلقيا على الفراش وضحك وقال مداعبا :

- عاوزني أتعلم ليه ؟!

- عشان تبقى محترم ..

- يعني أنا مش محترم ؟!

- طبعا محترم .. بس لازم تتعلم وتأخذ شهادة

- شهادة لاله إلا الله

استغرق عبده في الضحك فنظر حاتم إليه لانما
وقال :

- أنا أتكلم جد لازم تجتهد ..تذاكر وتأخذ الإعدادية
والثانوية وتدخل كلية كبيرة ..الحقوق مثلا

- بعد ما شاب راح الكتاب

- لا يا عبده .. إياك تفكر كده .. أنت عندك ٢٤
سنة .. الحياة أمامك ..

- كل شيء قسمة ونصيب..

- رجعنا للكلام المتخلف ..!.. نصيبك في الدنيا
أنت وحدك تقدر تعمله .. لو كان فيه عدل في البلد كان لازم
واحد زيك يتعلم على حساب الدولة .. التعليم والعلاج
والعمل حقوق طبيعية لأي مواطن في العالم كله لكن النظام
في مصر متعمد يترك الفقراء أمثالك جهلة عشان يعرف
يسرقهم .. لاحظ أن الحكومة تختار عساكر الأمن
المركزي من أفقر المجندين وأجهلهم .. لو كنت متعلم يا
عبده عمرك ما كنت تقبل تشتغل في الأمن المركزي في
أسوأ الظروف مقابل ملايين .. بينما الناس الكبيرة يسرقوا
كل يوم ملايين من قوت الشعب..

- وأنت عاوزني أمنع الكبار من السرقة .. هو أنا
كنت قدرت على الرائد قائد المعسكر لما أحاسب الكبار
- ابدأ بنفسك يا عبده .. اجتهد و علم نفسك بنفسك..

دي أول خطوة تحصل بها على حقوقك ..

ثم نظر حاتم إليه مليا وقال بحنان :

- .. ومن عارف ١٢ .. يمكن تبقى يوم من الأيام

الأستاذ عبد ربه السحامي ١٣ ..

نهض عبده من الفراش ولقرب منه وأمسك بكتفيه

وقبله على وجنته وقال :

- ومن يدفع لي مصاريف التعليم ١٤ .. ومن يفتح

لي مكتب لما أخرج ١٥ ..

اضطربت مشاعر حاتم فجأة فدنا بوجهه من عبده

وقال بصوت هامس :

- أنا يا حبيبي عمري ما أسيبك ولا عمري أبخل

عليك أبدا ..

واحتضنه عبده وغاب الاثنان في قبلات طويلة

محمومة لكن صوتا تراسى إليهما من بعيد وشينا فشيئا

سمعا دقات عذيفة متواصلة على الباب ، نظر حاتم إلي

عبده بقلق وهرعا إلى ارتداء ثيابهما على عجب كيفما اتفق

ومسقه حاتم ناحية الباب وقد رسم على وجهه تعبيراً متكبِراً

منزعجا استعد به لما سوف يلقاه ثم تطلع من العين

السحرية وقال بدهشة :

- دى مراتك يا عبده

وتقدم عبده بسرعة وفتح الباب وصاح غاضبا :

- خبر إيه يا هديّة .. إيه اللي جابك الساعة دي .. عاوزه إيه .. ؟!

فصاحت مولولة وهي تشير إلى طفلها النائم على نراعيها:

- الحقني يا عبده .. الولد سخن نار وبيستفرغ على طول .. طول الليل على صرخة واحدة.. يا حاتم بك أنا في عرضك .. هات لنا دكتور.. وألا ننقله على مستشفى ..

• • •

عندما فتحت بثينة باب الحمام وجدت زكي الدسوقي ممددا على الأرض وقد تلوّث ثيابه بالقيء وعجز عن الحركة.. انحنت وأمسكت بيده فوجدتها باردة كالثلج - زكي بك .. أنت تعبان .. ؟!

همهم بكلمات غامضة وظل محذقا في الفراغ فأحضرت مقعدا واحتضنته وأجلسته (واكتشفت في تلك اللحظة أن جسمه خفيف للغاية) ثم خلعت عنه ثيابه المتسخة وغسلت له وجهه ويديه وصدره بالماء الساخن ولم يلبث أن أفاق قليلا وتمكن بصعوبة من الوقوف والسير مستندا إليها، أدخلته إلى الفراش وصعدت إلى حجرتها فوق السطح وعادت بسرعة ومعها كوب كبير من النعناع المغلي شربه

زكي واستسلم إلى النوم العميق .. قضت الليلة بجواره على الأريكة وتفقدته أكثر من مرة .. جست بيدها حرارة جبينه ووضعت إصبعها أمام أنفه لتتأكد من انتظام النفس .. ظلت مستيقظة وعزمت على استدعاء طبيب إذا ساءت الحالة وتأملت وجهه العجوز وهو نائم فبدأ لها لأول مرة حقيقيا وبسيطا ، مجرد رجل عجوز طيب سكران ، ضئيل ووديع ومثير للشفقة كالأطفال ، وفي الصباح أعدت له إفطارا خفيفا مع لبن دافئ وكان أبسخرون قد وصل وعرف بما حدث فوقف مطرقا حزينا أمام سيده المريض وأخذ يردد بصوت ملنّاع :

- ألف سلامة سيادتك

فتح زكي عينيه وأشار له أن يخرج ثم نهض بصعوبة وأسند ظهره إلى الحائط وأمسك رأسه بيديه وهو يدمدم بصوت خافت :

- عندي صداع رهيب ومعدتي توجعني جدا

- تحب أنأدى دكتور

- لا .. بسيطة .. أنا شربت زيادة عن اللزوم ..

إلحكاية دى ياما حصلت لي .. أشرب فنجان قهوة سادة وأبقى تمام

كان يتظاهر بالتماسك والصلابة فضحكت وقالت :

- اسمع بقة .. كفاية مكابرة .. أنت بقيت عجوز

وصحبتك ضعيفة .. وخلص ما تقدرش على
الشرب والسهر .. المفروض تمام بدري زي العواجيز في
منك ابتسم زكي ونظر إليها بامتنان قائلا :
- أشكرك يا بئينة .. أنت انسانة طيبة ومخلصة ..
مش عارف من غيرك كنت أعمل إيه ..

وضعت كفها على وجهه وقبلت جبينه ..
قبلته كثيرا قبل ذلك لكنها أحست هذه المرة بلمس
وجهه مختلفا ، شعرت وهي تلتصق شفثيها بجبينه أنها
تعرفه جيدا وأنها تحب رائحته الخشنة العتيقة وأنه لم يعد
ذلك البك البعيد عنها الذي يحكي لها عن زمان ولم يعد
حتى ذلك العشيئ الذكر المائل المختلف عنها ، بل هو الآن
قريب منها وكأنها تعرفه من زمان ، وكأنه أبوها أو خالها
أو عمها ، وكأنه يحمل رائحتها ودمها ، تمنّت لو تضمه
إليها بقوة لتحتوي جسده الهش الضعيف بين ذراعيها وتملا
أنفها برائحته الخشنة العتيقة التي تحبها .. فكرت أن ما
يحدث بينهما غريب ومفاجئ ، وتذكرت أنها بالأمس فقط
حاولت أن تخدعه وتحصل على توقيعه فأحست بالخزي
وخطر لها أن خدعتها له بالأمس كانت محاولتها الأخيرة
لمقاومة شعورها الحقيقي ناحيته ، كانت بداخلها تريد أن
تهرب من حبها له ، كانت تستريح أكثر على نحو ما لو
أنها حصرت علاقتها به في حدود الجنس والمال ، هو

يطلب الجنس وهي تريد المال ، هكذا تصورت حدود العلاقة لكنها جاوزت الحدود ، إنها الآن تواجه شعورها الحقيقي وتفهمه بوضوح ، تتمنى لو تظل معه دائما ، تطمنن إليه وتحترمه وتحسن ناحيته بامتنان عميق ، وثق في أنه سيفهم أي شيء تقوله له .. تحكي له عن حياتها ، أبيها وأماها وحبها القديم لطفه حتى تفاصيلها القذرة مع طلال تذكرها له ولا تخل منه .. تشعر براحة عندما تحكي له وكأنها تزيل عنها عبئا ثقيلا وكم تحب وجهه العجوز وهو ينصت إليها باهتمام ويستوضحها عن التفاصيل ثم يعلق على حكاياتها ..

ظل شعورها ناحيته يزداد قوة حتى اكتشفت ذلك الصباح أنها تحبه ، لا يمكن أن تصف إحساسها بغير هذه الكلمة ، ليس الحب الحار المضطرب الذي كانت تحمله لطفه لكنه حب آخر مختلف ، هادئ وراسخ ، أقرب إلى الراحة والثقة والاحترام ، إنها تحبه وقد أدركت ذلك فتحررت إلى الأبد من تردداتها واندفعت إليه بقوة ، عاشت معه أوقاتا سعيدة صافية ، صارت تمضي معه معظم النهار وجزءا كبيرا من الليل وتسترجع قبل أن تنام كل ما حدث بينهما فتبتسم ويغمرها حنان جارف ، على أن شيئا صغيرا مشيئا شأنكا ينخرها كلما فكرت أنها تخونه ، لقد تواطأت عليه لتأخذ توقيعه على العقد حتى يستولي ملك على شقته ، إنها

تستغل ثقته فيها لتؤذيه ، أليس هذا ما حدث ..؟! ألم يكن هذا هدفها ..؟! أن تغافله وتأخذ توقيعه وهو سكران وتقبض من ملاك خمسة آلاف جنيه ، ثم الخيانة .. كلما رنت هذه الكلمة في ذهنها تذكرت ابتسامته الطيبة واهتمامه بها وحرصه على مشاعرها ، تذكرت أنه عاملها دائما برقة وأنه منحها ثقته الكاملة ، عندئذ تشعر بأنها دنيئة وخائنة وتحقر نفسها وتدخل في دوامة من تأنيب النفس ، وقد عذبت هذا الشعور طويلا حتى اندفعت ذات صباح وذهبت إلى ملاك ، كان الوقت مبكرا وقد فتح المحل لتوه وأمامه كوب شاي بحليب يرشف منه على مهل ، وقفت أمامه وحيته وبادرتة قائلة قبل أن تتسرب شجاعتهما :

- يا عم ملاك أنا متأسفة .. مش حاقدر أعمل اللي
لثقتنا عليه

- مش فاهم

- موضوع الإمضاء اللي حاخدها من زكي بك ..

أنا مش حاعملها

- ليه ١٩

- كده

- دارأيك النهائي ؟

- آه

- طيب خلاص .. شكرا

.. هكذا قال ملاك بهدوء وجذب رشفة من الشاي وأشاح بوجهه عنها وشعرت وهي تتصرف من عنده أنها تحررت من هم ثقيل لكنها استغربت مع ذلك لأنه تقبل اعتذارها ببساطة ، توقعت أن يغضب ويثور لكنه ظل هادئا وكأنه كان يتوقع أو كأنه يضمن أمرا ما ، وأقلقها هذا الخاطر أياما لكنها لم تلبث أن تخلصت من الهواجس وأحست لأول مرة براحة عميقة لأنها توقفت عن خيانة زكي ولم يعد لديها ما تخفيه عنه ..



في الثامنة صباحا ، استقل الشيخ شاكز وطه الشاذلي مترو الأنفاق في اتجاه حلوان ، كان قد خاضا على مدى أيام مناقشات طويلة حاول الشيخ خلالها إقناع طه بأن ينسي ما حدث ويستأنف حياته من جديد لكنه ظل ناقما وغازبيا لدرجة بدا معها أكثر من مرة على وشك الانهيار وأخيرا على أثر جدل عنيف صاح الشيخ في وجهه :

- ماذا تريد إذن ؟ لا تريد الدراسة ولا العمل ولا تريد أن ترى أحدا من زملائك ولا حتى من أهلِكَ .. ماذا تريد يا طه ؟!

- أريد أن أنتقم من الذين اعتدوا على وأثقلوني

- وكيف ستعرفهم وأنت لم تر وجوههم ..؟!
- عن طريق أصواتهم .. أستطيع أن أتعرف علي
أصواتهم من بين مائة صوت .. أرجوك يا مولانا أن
تخبرني باسم الضابط الكبير الذي أشرف على تعذيبني ..
قلت لي من قبل أنك تعرف اسمه ..

صمت الشيخ شاكر مفكرا ...

- أرجوك يا مولانا.. لن أهدأ حتى أعرف اسمه..
- لا أستطيع أن أقطع بشخصيته .. لكن التعذيب في
أمن الدولة عموما يتم بإشراف اثنين : العقيد صالح رشوان
والعميد فتحي الوكيل .. وكلاهما مجرم كافر مصيره جهنم
وبئس المصير .. كن ماذا يفيدك أن تعرف اسم الضابط ..؟!
- سأنتقم منه ..

- .. كلام تخريف .. هل ستقضي عمرك تبحث عن
واحد لم تره بعينك ..؟!

- صراع جنوني ومحكوم عليه بالفشل

- ساخوضه للنهائية

- .. هل ستحارب وحدك نظاما كاملا يملك جيشا
وشرطة وعشرات الأسلحة الجبارة ..؟!

- أنت الذي تقول هذا وقد علمتنا أن المسلم الصادق
أمة وحده .. ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ' وكم من فئة
قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ' .. صدق الله العظيم

- ونعم بالله لكن صراعك مع النظام سيكلفك حياتك .. ستموت يا ولدي .. سيقتلونك في أول مواجهة معهم سكت طه ونظر إلى وجه الشيخ وقد ترك ذكر الموت أثرا في نفسه ثم قال :

- أنا الآن ميت .. قتلوني في المعتقل .. عندما يعتدون على عرضك وهم يضحكون .. عندما يطلقون عليك اسم امرأة ويجبرونك على أن تجيب باسمك الجديد فتضطر إلى الإجابة من قسوة التعذيب .. كانوا يسمونني فوزية .. وكانوا كل يوم يضربونني حتى أقول أمامهم : أنا امرأة واسمي فوزية .. تريدني أن أنسى كل ذلك وأعيش..!!

كان يتكلم بمرارة وهو يجز بأسنانه على شفته السفلي فقال الشيخ :

- اسمع يا طه .. هذه كلمة أخيرة أبرئ بها نفسي أمام ربنا سبحانه وتعالى : التورط في محاربه هذا النظام معناه الموت للمحقق

- لم أعد أخاف الموت .. لقد وطننت نفسي على الشهادة وأتمنى من قلبي أن أمتشهد وأدخل الجنة .. ساد الصمت، بينهما وفجأة نهض الشيخ من مكانه واقترب من طه وتأمل وجهه قليلا ثم احتضنه بقوة وابتمسم قائلا :

- بارت الله فيك يا ولدي ... هكذا يفعل الإيمان

الصحيح بأصحابه.. اسمع .. ارجع الآن إلى بيتك
وجهاز حقيبتك وكأنك مسافر .. وغدا في الصباح نلتقي
لأصطحبك

- إلى أين ؟؟

اتسعت ابتسامة الشيخ وهمس :

- لا تسألني ونفذ ما أقوله وسوف تعرف كل شيء

في أوانه

• • •

جری بينهما هذا الحوار بالأمس وفهم طه أن
معارضة الشيخ له في البداية كانت حيلة لاختبار قوة
عزمه وهما الآن جالسان في عربة المترو المزدحمة
متجاوران وصامتان . يتأمل الشيخ المنظر من النافذة بينما
يحدق طه في الركاب ولا يراهم وفي ذهنه يتردد سؤال
قلق: إلى أين يصطحبه الشيخ ..؟؟ انه طبعا يثق فيه لكنه
برغم ذلك تتنابه الرهبة والهواجس ويحس بأنه مقدم على
موقف خطير ، فاصل وجوهري في حياته وقد شعر برجفة
والشيخ يهمس إليه :

- استعد ستنزل في طره الأسمنت .. المحطة

القادمة

• • •

تحميل محطة طره اسم شركة الأسمنت التي

أنشأها السويسريون في العشرينيات ثم أممتها الثورة
وضاعفت من قدرتها الإنتاجية حتى صارت من أكبر
شركات الأسمنت في العالم العربي وقد خضعت بعد ذلك
كبقيّة الشركات الكبرى إلى الانفتاح والخصخصة فقامت
شركات أجنبية بشراء أسهم كثيرة فيها ، ويخترق خط
المترو أرض الشركة في منتصفها : إلى اليمين تقع
مجموعة المباني الإدارية والأفران العملاقة وإلى اليسار
تمتد صحراء شاسعة تحوطها جبال وتنتشر المحاجر حيث
تسف الأحجار الجبلية الضخمة باستعمال الديناميت ثم تنقل
في ناقلات كبيرة ليتم حرقها في أفران الأسمنت ..

نزل الشيخ شاكر ومعه طه وعبرا محطة المترو
إلى ناحية الجبال وسارا في الصحراء ، كانت الشمس
حامية والجو ملبدًا بالغبار الذي يغطي المنطقة كلها ، وشعر
طه بجفاف حلقه وألم خافت مستمر في أعلى بطنه ثم انتابه
غثيان وسعل فقال الشيخ مداعبا :

- صبرا جميلا يا بطل .. الجو هنا ملوث من
غبار الأسمنت .. بكرة تتعود عليه .. وعموما قربنا
نوصل ..

توقفا أمام تل حجري صغير وانتظرا بضع دقائق
ثم نهادا إلى سمعهما هدير محرك وظهرت سيارة كبيرة
لنقل الأحجار اقتربت وتوقفت أمامهما ، كان السائق شابا

يرتدي بذلة عمال زرقاء اهترأت وحيل لونها من القدم، تبادل سلاما سريعا مع الشيخ الذي نظر إليه متفحصا وقال:

- الله والجنة ..

فرد السائق مبتسما :

- الصبر والنصر ..

كانت هذه كلمة السر وأمسك الشيخ بيد طه وصعد معه إلى كابينة القيادة وظل الثلاثة صامتين والسيارة تشق طريقها في الطريق الجبلي ومرت أمامهم سيارات نقل أخرى تابعة للشركة ثم انحرف السائق إلى طريق فرعي ضيق غير ممهد ، قادهم فيه لأكثر من نصف ساعة وكاد طه أن يصارح الشيخ بقلقه لكنه رآه مستغرقا في تلاوة القرآن من مصحف صغير في يده ، وأخيرا لاحظت من بعيد أطياف أخذت تتضح شيئا فشيئا فإذا هي مجموعة بيوت صغيرة مبنية بالطوب الأحمر ، توقفت السيارة ونزل طه مع الشيخ وحياهما السائق قبل أن يستدير راجعا .. كان المنظر أشبه بشوارع المناطق العشوائية ، الفقر الواضح وبرك المياه في الطرقات الترابية ودجاج وبعط يتراكم حول البيوت وأطفال يلعبون حفاة وبعض النسوة المنقبات يجلسن أمام الأبواب .. مد الشيخ خطوته بثقة من يعرف المكان ودخل وطه وراءه إلى أحد البيوت ، عبرا الباب

المفتوح إلى حجرة متسعة خاوية تعاما إلا من مكتب صغير وسبورة سوداء معلقة على الحائط وعلى الأرض فرشت حصيرة صفراء كبيرة جلس عليها مجموعة من الشباب الملتحى بجلابيبهم البيضاء وقد هبوا جميعا لتحية الشيخ شاكراً ، عانقوه وقبلوه واحداً واحداً وقد تأخر عنهم قليلاً أكبرهم سناً، رجل ضخم طويل في نحو الأربعين لحيته سوداء كبيرة ويرتدي فوق جلابيه الأبيض إزاراً أخضر داكناً وثمة أدبة تمتد من جفنه الأيسر إلى أعلى جبينه وكأنها أثر لجرح كبير قديم مما يجعله عاجزاً عن إغلاق عينه تماماً ، تهلل الرجل لرؤية الشيخ شاكراً وقال بضوته الأجلش :

- السلام عليكم أين أنت يا مولانا ؟! أسبوعين كاملين ونحن ننتظرك

- لم يمنعني عنكم يا بلال إلا الضرورة القصوى.. كيف حالك أنت وإخوانك...؟!

- الحمد لله نحن على خير إن شاء الله

- وكيف عملكم ؟!

- كما قرأت في الجرائد .. من نجاح إلى نجاح

بفضل الله

مد الشيخ شاكراً ذراعه حول طه وقال للرجل وهو

يبسّم :

- هاهو طه الشاذلي الذي حدثك عنه يا بلال .. نموذج للشباب الملتزم النقي الشجاع ولا نزكي على الله أحدا وتقدم طه ليصافح الرجل فأحس بقبضته القوية وتأمل وجهه المشوه وكلمات الشيخ تتردد في سمعه :

- يا طه .. أعرفك بإذن الله إلى أخيك في الله الشيخ بلال .. أمير المعسكر .. هنا ياطه مع الشيخ بلال سوف تتعلم بإذن الله كيف تأخذ حقك وتتقم من الظالمين جميعا ..



أفاقت سعاد وفُتحت عينيها بصعوبة ، كانت تشعر بمغص وغثيان وصداع وحلقها جاف يؤولها وشيئا فشيئا أدركت أنها في مستشفى ، الحجرة متسعة والسقف شاهق وثمة مقاعد قديمة ومنضدة صغيرة في الركن والباب المزدوج ذي الكوتين الزجاجيتين المستديرتين يشبه أبواب حجلات العمليات في أفلام الأربعينيات المصرية .. بجوار الفراش وقفت ممرضة بدينة لها أنف مفلطح انحنت على سعاد ووضعت يدها على وجهها ثم ابتسمت وقالت :

- حمد لله على السلامة .. ربنا أكرمك . كان عندك نزيف جامد

- كذابة ..

صاحت سعاد بصوت مختلق ودفعت
المرضة بعيدا عنها
- أنتم سقطتوني غصبا عني .. أنا أودىكم في
ستين داهية

.. خرجت الممرضة من الحجرة و استبد بسعاد
غضب جنوني وأخذت ترفس بقدميها و تصيح بصوت عال
يا مجرمين سقطتوني .. اطلبوا الي بوليس النجدة .. أنا
أحبسكم كلكم " ولم يلبث الباب أن انفتح وظهر طبيب شاب
تقدم إليها ومن خلفه الممرضة فصاحت سعاد

- أنا كنت حامل وأنتم سقطتوني غصبا عني
وابسّم الطبيب فيان أنه كاذب وخائف وقال
بصوت مرتبك:

- حضرتك كان عندك نزيف يامدام .. هدى
أعصابك لأن الانفعال ممكن يؤذيك ..

وانفجرت سعاد من جديد .. أخذت تصيح
وتشتهم وتبكي فخرج الطبيب والممرضة ثم انفتح الباب
من جديد وظهر حميدو أخوها ومعه فوزي ابن الحاج
عزام، واندفع إليها حميدو وقبلها فاناخرطت في بكاء حار
وهي تحتضنه..

تقلص وجه حميدو وزم شفّيته ولم يتكلم.. وفي
هذوء جذب فوزي المقعد من آخر الغرفة وجلس بجوار

الفراش ثم أرجع رأسه للوراء وقال بلهجة رصينة
وهو يشدد على مخارج الألفاظ وكأنه يلقي درسا على
أطفال

- اسمعي يا سعاد .. كل شيء قسمة ونصيب ..
الحاج عزام اتفق معك على حاجة وأنت خالفت الاتفاق
والبادئ أظلم ..
- ربنا ينتقم منك أنت وأبوك .. يا مجرمين يا ولاد الكلب
- اخرسي

هكذا صاح بحدة وقد عبس وجهه فبدا صارما
وقاسيا ثم صمت قليلا وتهد واستأنف حديثه التعليمي :
- برغم قلة أدبك الحاج عاملك بما يرضي الله ..
جالك نزيه وكنت هتموتي فنقلناك المستشفى والدكتور
اضطر يعمل إجهاض .. أوراق المستشفى موجودة وتقرير
الدكتور موجود .. قل لها يا حميدو
نكس حميدو رأسه في صمت وعلا صوت فوزي
من جديد

- والدي الحاج عزام يعرف ربنا. طلقك وأعطاك أكثر من
حقوقك وربنا يعرض عليه .. المؤخر والنفقة حسبناهم بما
يرضى الله وعليهم زيادة من عندنا وأخوك حميدو معه
شيك بعشرين ألف .. وحساب المستشفى مدفوع وكل
حاجاتك أخذناها من البيت ونبعثها لك إسكندرية ..

ساد صمت عميق وأخذت سعاد ، وقد انكسرت
الآن ، تبكي بصوت خافت .. ونهض فوزي فبدا في تلك
اللحظة قويا وحاسما وكان كل شيء في الدنيا يتوقف على
ما سوف ينطق به وتقدم خطوتين في اتجاه الباب ثم استدار
كأنما تذكر شيئا وقال:

- ياريس حميدو عقل أختك لأن دماغها خفيفة.. الحكاية
كلها صفحة وانطوت وحقها أخذته لأخر ملهم وزى ما دخلنا
بالمعروف نخرج بالمعروف.. ولو حاولت أنت وأختك
تعملوا مشاكل أو شوشرة إحنا نعرف نؤدبكم .. البلد بلدنا
ياحميدو وايدينا طائلة وعندنا الألوان كلها.. اختار اللون
اللي يعجبك

ثم مشى بتؤدة حتى خرج من الحجرة و ارتجت ضلعا
الباب وراءه

• • •

كما ينفض المرء بإصبعين بعض ذرات التراب التي
علقت بصدر بدلتة الأنيقة ويستأنف المشي كأن شيئا لم
يكن .. تخلص الحاج عزام من سعاد جابر واستطاع أن
يسحق حنينه إليها ، كانت ذكرى جسدها اللين الحار اللذيذ
تعاوده فيبذل مجهودا جبارا ومؤلما حتى ينساها ، يستحضر

عامدا وجهها الشرس الكريه في المشاهد الأخير
ويتخيل المشاكل والفضائح التي كانت ستلحق به لو لم
يتخلص منها ويعزي نفسه بأن زواجه منها على ما منحه
من أوقات رائعة لم يكلفه كثيرا ويفكر أن تجربته معها قابلة
للتكرار فالجميلات الفقيرات كثيرات والزواج حلال لا
يعيب أحدا ، كل هذه الخواطر يحاول بها أن يطمس صورة
سعاد من ذاكرته فينجح أحيانا ويخفق أحيانا وقد ألقى بنفسه
في خضم العمل لينسى ، كان افتتاح توكيل تاسو للسيارات
بحين موعده بعد أيام فأقام مع ابنه فوزي ومؤمن حجرة
عمليات في مكتبه وكأنه يخوض حربا ، أشرف على
تجهيزات الحفل الضخم في فندق سميراميس ودعا بنفسه
كل الكبار في البلد وقد جاءوا جميعا ، وزراء ، حاليون
وسابقون ومسؤولون حكوميون كبار ورؤساء تحرير
الصحف القومية الرئيسية ، وكلفته صداقة هؤلاء عشرات
السيارات التي منحت كهدايا مجانية أو بأسعار رمزية . ثم
ذلك بموافقة المسؤولين اليابانيين وأحيانا بناء على اقتراحهم ،
واستمر الحفل حتى ساعة متأخرة وأذاع التليفزيون أجزاء
منه كإعلانات مدفوعة الأجر ونشرت معظم الصحف
تغطية وافية له وكتب محرر اقتصادي كبير في جريدة
الأخبار يقدم افتتاح توكيل تاسو على أنه خطوة وطنية
شجاعة أقدم عليها رجل الأعمال المصري الأصيل محمد

عزام بغرض كسر احتكار السيارات الغربية وناسد
 المحرر جميع رجال الأعمال المصريين بأن يختاروا
 الطريق الصحيح الصعب كما فعل الحاج عزام من أجل
 نهضة مصر وسلامة اقتصادها ، وعلى مدى أسبوعين
 كاملين امتلأت الصحف بصور الحاج عزام وتصريحاته
 وكانت الصورة المنشورة لتوقيع عقد التوكيل فريدة
 ومعبرة ، يظهر فيها الحاج عزام بقامته الضخمة ووجهه
 السوقي ونظراته الثعلبية المراوغة وبجواره يجلس المستر
 ين كي رئيس مجلس إدارة شركة تاسو بقامته اليابانية
 الضئيلة ونظراته المستقيمة ووجهه المهنذب الجاد .. وكان
 المفارقة بين مظهر الرجلين تلخص المسافة الشاسعة بين ما
 يحدث في مصر وما يحدث في اليابان .. وقد حقق التوكيل
 منذ الشهور الأولى مبيعات خرافية تجاوزت كل توقع .
 وانهمرت الأرباح على الحاج عزام الذي تلقى نعمة الله
 شاكرًا وأخرج عنها صدقات بعشرات الآلاف ، وقدم
 الجانب الياباني لعزام مشروعات إضافية لمحطات صيانة
 في القاهرة والإسكندرية ، وعاش الحاج عزام أبهى أيامه
 على الإطلاق إلا من سبب واحد للكدر حاول أن يتجاهله
 لكن عبثا .. فقد طارده الفولي ليلتقي به وظل عزام يسوف
 حتى لم يعد للتسويق مجال فاستجاب أخيرا وذهب للقاء
 الفولي في الشيراتون وقد أعد نفسه للمتعاب .

بدت القاعة المظلمة في عز النهار المزدحمة عن
 آخرها أقرب إلى عربة الدرجة الثالثة في قطار الصعيد
 منها إلى قاعة استقبال مستشفى ، النساء واقفات متكديات
 بأطفالهن المرضى ورائحة العرق خائفة والأرض والحوائط
 في منتهى القذارة وبضعة ممرضين ينظمون الدخول إلى
 حجرة الكشف فيستمن النسوة ويدفعوهن بالأيدي
 ومشاجرات وصراخ وجلبة لا تنتهى وقد وصل حاتم رشيد
 وعبدّه ومعهما هدية تحمل الطفل الذي لم ينقطع عن البكاء
 وظلوا واقفين فترة في الزحام ثم اقترب حاتم من أحد
 الممرضين وطلب مقابلة مدير المستشفى فنظر إليه
 الممرض باستياء وقال إن المدير ليس موجودا وكاد عبده
 أن يتشاجر عندما أخبروه أن عليه ينتظر الدور حتى يكشف
 على الطفل .. خرج حاتم إلى أقرب تليفون عمومي وأجرى
 عدة اتصالات من المفكرة الصغيرة التي لا تفارق جيبه ،
 كانت نتيجةها أن خرج إليهم نائب مدير المستشفى واستقبلهم
 بحفاوة معتذرا لغياب المدير ، كان النائب رجلا أبيض في
 نحو الأربعين أبيض وسمين يودي وجهه بالطيبة والبساطة ،
 وقد كشف بعناية على الطفل ثم قال بصوت قلق :
 - للأسف الحالة متأخرة وحرارة .. الولد عنده جفاف

وحمى

ثم كتب أوراقا وأعطاهما إلى عبده الذي كان فاقدا

لأعصابه لا ينقطع عن التدخين والصياح ناهرا
زوجته وقد حمل الطفل بين ذراعيه وركض مع الممرضة
التي انتقل إليها اهتمام الدكتور بالحالة ، وضعوا الطفل في
غبر الحالات الحرجة وتم تركيب أنابيب الجلوكوز في
ذراعه الصغيرة ، كان وجهه شاحبا للغاية وعيناه غائرتين
وقد بدأ صوت بكائه يخفت وأحسن الجميع بكأبة ثقيلة وسأل
عبده الممرضة فأجابت :

- نتيجة العلاج تظهر بعد ساعتين على الأقل ..
ربنا كبير

وران الصمت من جديد وأخذت هدية تبكي بصوت
خافت ولم يلبث حاتم أن انتحى جانبا بعبدده ودس في جيبه
رزمة من الأوراق المالية وربت على كتفه قائلا:

- خذ يا عبده عشان مصاريف المستشفى ، ولو
احتجت أي حاجة أرجوك قل لي .. أنا مضطر أروح
الجريدة وهأطمئن عليك بالليل

• • •

- نفسي كنت أقابلك من زمان !؟..

- ليه !؟..

- كانت حياتي كلها تغيرت ..

- إحنا فيها .. بالله غير حياتك

- أغير إيه يا بئينة .. أنا عندي خمسة وستين سنة .. يعني حسن الختام ..

- من قال لك .. ممكن نعيش عشرين وثلاثين سنة .. الأعمار بيد الله

- باريت .. الواحد نفسه فعلا يعيش ثلاثين سنة كمان .. على الأقل

ضحكا معا .. هو بصوته الأجلش وهي بزقزقاتها المنغمة المتلاحقة .. استلقيا عاريين في الفراش وهو يحتضنها، يستشعر ملمس شعرها الناعم الكثيف على ذراعه .. كانا قد تخلصنا تماما من إحساسهما بخصوصية جسديهما، يقضيان الساعات عاريين تماما ، تصنع له القهوة وتعد له كنوس الويسكي والمزة ومن حين لحين ينامان معا، قد يضاجعها وكثيرا ما يستلقيان هكذا فقط ، يخلق نور الحجرة ويتأمل وجهها في الضوء الخافت المبهتز القادم من الشارع ، تبدو له في تلك اللحظة وكأنها غير حقيقية ، خيال جميل ، كأنن ليلي سوف يختفي كما جاء فجأة مع أول ضوء للفجر ، يتكلمان ، ينبعث في الظلام صوتها عميقا وعذبا وحميما .. قالت بلهجة جادة وهي تحرق في السقف :

- امتى حنساقر ..؟!

- تسافر فين ..؟!

- أنت وعدتني نسافر مع بعض

.. سألها وهو يتأمل وجهها

- أنت لسه كارهة البلد ..!؟

أومات برأسها وهي تنتظر إلى السقف

- أنا مش قادر أفهم الجيل بتاعكم أبدا.. على أيامي

حب الوطن كان زي الدين.. شباب كثير ماتوا في الكفاح

ضد الإنجليز

اعتذلت بثينة جالسة وقالت :

- كنتم بتعملوا مظاهرات عشان تطردوا

الإنجليز؟! .. أهم خرجوا .. يعني البلد حالها انصلح؟!؟

- السبب في تدهور البلد انعدام الديمقراطية.. لو

فيه نظام ديمقراطي حقيقي مصر تبقى قوة عظمى ..مصر

بلوتها الديكتاتورية والديكتاتورية نهايتها المحترمة فقر

وفساد وفشل في كل المجالات

- دا كلام كبير .. أنا بأحلم على قدي.. نفسي أعيش

مرتاحة ويبقى عندي أسرة .. زوج يحبني وأولاد أربيهم

وبيت صغير جميل ومريح بدل السكن فوق السطح ، نفسي

أروح بلد نظيفة ، مافيهاش وساخة ولا فقر ولا ظلم ..تعرف

.. آخر واحدة صاحبتني سقطت ثلاث سنين في الثانوية العامة

قام سافر هولندا واتجوز واحدة هولندية وقعد هناك .. بيقول

لنا في بلاد بره ما فيش ظلم ولا افترا زي عندنا.. هناك كل

واحد يأخذ حقه والناس تحترم بعض حتى الكناس في
الشارع الناس تحترمه.. عشان كده نفسي أسافر بره ،
أعيش هناك وأشتغل وأبقى محترمة بجد : اكسب من شغلي
بدل ما أروح المخزن مع واحد زي طلال عشان يديني
عشرة جنيه .. تصور .. كان بيديني في المرة عشرة جنيه
.. ثمن علبتين مارلبورو .. دا أنا كنت عبيطة بشكل..

- أنت كنت محتاجة والمحتاج ما يفكرش .. بيثينة
أنا مش عاوزك تعيشي في اللي فات .. كل اللي حصل لك
صفحة وانطوت خلاص .. فكري في المستقبل .. إحنا
نلوقت مع بعض ومبسوطين وأنا مش حاسيك أبدا..
ساد الصمت لحظة ثم استطرده زكي بمرح ليطرده
الحزن :

- .. أنا قدامي شهر أو شهرين على الأكثر وأقبض
مبلغ كبير وأخذك ونسافر
- بجد ..؟!

- بجد ..

- نروح فين ..؟!

- فرنسا..

صرخت وصرخت بيديها كالأطفال ثم قالت تداعبه
بخبيث :

- بس أنت شد حيلك وخللي بالك من صحتك لحسن
تعب مني هناك تبقى حكاية ..

عندما تضحك تنقلص عضلات وجهها
وينفر عرق في جبينها ويبدو شكلها وحشيا وغريبا على
نحو ما وكأنها فوجئت بالسعادة فقررت أن تقبض عليها
بقوة لنلا نفلت منها.. احتضنها زكي وهمس:

- خلاص .. اتفقنا ..؟!

- اتفقنا

بدأ من يديها .. أخذ يقبل أصابعها واحدا واحدا ثم
انتقل إلى كفها وذراعها وصدرها المكتنز الناعم وعندما
وصل إلى رقبتها ورفع شعرها الكثيف ليلتهم أذنها الصغيرة
الرائعة في فمه كان يشعر بجسدها تحته يضطرم بالرغبة

بدأ الأمر بهسة ، هسة الكلمة الصحيحة ، صوت
خافت للغاية انبعث فجأة وانقطع بينما زكي يلتهم شفني
بثينة في قبلة حارة ومررت ثوان وهما متعانقان ثم تكرر
الصوت ، واضحا هذه المرة ، كان باب الغرفة التي ينمان
فيها مفتوحا وخطر في ذهن زكي كومة أن أحدا ما
يتحرك في الصالة فانتفض عاريا من الفراش و أطلقت
بثينة صرخة حادة وهي تقفز لتضع ملابسها كيفما اتفق
على جسدها العاري ثم توالى المشاهد المفزعة وكأنها
كابوس ، لحظات حادة مرعبة لن ينساها زكي وبثينة أبدا :
أضيء النور في الغرفة وظاهر ضابط شرطة بالبذلة

الرسمية ، ومن ورائه وقف بعض المخبرين وتقدمت من
بينهم دولت وعلى وجهها ابتسامة شامخة خبيثة وسرعان ما
علا صوتها حادا كريها كالموت :

- مسخرة وقلة حيا .. كل يوم جايب مومس وبأيت
معها .. كفاية نجاسة يا أخي حرام عليك..
- اخرسي

هكذا صاح زكي في أول رد فعل وقد تخلص من
ذهوله وبدا منفعلًا للغاية ، كان جسده العاري يرتعش
وجحظت عيناه من الغضب وبطريقة لاشعورية امتدت يده
إلى البنطلون وصاح وهو يرتديه :

- جرى إيه .. إيه المهزلة دي ؟!.. من أذن لك
تدخل مكتبي .. معك إذن من النيابة ؟!

هكذا صاح في وجه الضابط الشاب الذي كانت
ملامحه عدائية من البداية فرد بنبرة هائلة متحدية :

- أنت بتعلمني شغلي .. ؟! .. أنا لا أحتاج إذن نيابة
.. المدام أخذك ومقيمة معك وتقدمت ببلاغ ضدك لأنك
تعارض الفحشاء في بيتها وطلبت إثبات الحالة لأنها رافعة
عليك قضية جبر ..

- كلام فارغ .. دا مكتبي الخاص وهي لا تقيم معي

هنا

- لكنها فتحت بمفتاحها وأدخلتنا

- حتى لومعها مفتاح .. دا مكتبي .. باسمي
 - ابقى اثبت الكلام ده في المحضر ..
 - اثبت ايه .. دا أنا حاوديكم في ستين داهية ..
 لازم تدفعوا ثمن الاعتداء على حرمة الناس
 - حرمة المواس وأنت الصادق
 هكذا صاحت دولت وقد اتسعت عيناها واقتربت منه
 متحفزة

- قلت اخرسي
 - اخرس أنت يا شايب يا عايب
 - اسكتي يا مدام من فضلك
 هكذا صاح الضابط في دولت وهو يصطنع الغضب
 ليغطي انحيازه لها ثم التفت إلي زكي قائلا:
 - اسمع يا حضرة .. أنت رجل كبير و ما فيش
 داعي للبهلة :

- أنت عاوز ايه بالضبط ..؟!
 - نثبت الحالة وناخذ منكم كلمتين
 - حالة ايه اللي تثبتها .. قل انك متوصي ..
 موصياك الحرباية دي
 - أنت باين عليك قليل الأدب .. اسمع أنا باقرتك
 لآخر مرة .. خللي ليلتك تعدي على خير
 - أنت تهددني .. أنا أتكلم في التليفون واعرفك
 مقامك

- كده ..؟! .. طيب حقا على .. هكذا ردد الضابط بغضب ثم قال ..
- تعال يا روح أمك على القسم أنت والمومنين بتاعتك

- أنا أحذرك من استعمال ألفاظ ستحاسب عليها بشدة وليس من حقك أن تقبض علينا
- أنا أعرفك حقى ولا لا ..

ثم استدأر الضابط وقال للمخبرين : هاتوهم ..
وكان المخبرون ينتظرون الكلمة كإشارة سحرية فانقضوا على زكى وبثينة ، قارم زكى وأخذ يهدد ويصيح محتجا لكن المخبرين أمسكوا به بقوة ، أما بثينة فظللت تصرخ وتلطم وجهها وتسعطفهم وهم يجذبونها إلى الخارج ..

في البداية أحس طه بضيق لم يلبث أن زال مع
 الأيام عندما تعود على نظام المعسكر الصارم : الاستيقاظ
 قبل الفجر وأداء الصلاة وقراءة القرآن والإفطار ثم ثلاث
 ساعات من التدريبات البدنية العنيفة المتصلة (لياقة وفنون
 قتالية) .. بعد ذلك يجتمع الاخوة لتلقي الدروس (فقه
 وتفسير وعلوم قرآن وحديث) يليها عليهم الشيخ بلال
 وعلماء آخرون ، أما بعد الظهر فيخصص يوماً لتدريبات
 السلاح ، يستقل الاخوة أتوبيسا كبيرا (مكتوبا عليه شركة
 أسمنت طره المصرية) ويذهبون إلى قلب الجبل حيث
 يتمرنون على إطلاق النار وصناعة القنابل واستعمالها ،
 كان الإيقاع في المعسكر سريعا لاهنا ولم يكن لديه فرصة
 للتفكير حتى في ساعة السمر بعد صلاة العشاء كان الحديث
 بين الاخوة يتحول عادة إلى مناقشات دينية تقدم خلالها
 الحجج الشرعية على كفر النظام ووجوب قتاله والقضاء
 عليه ، وعندما تحين ساعة النوم يتفرق الاخوة فيذهب
 المتزوجون إلى مساكن الأسر في سفح الجبل بينما ينام
 العزاب في العيني الصغير المخصص لهم، عندئذ فقط،
 بعدما تحلوا الأنوار ويسود السكون يستلقي طه الشاذلي
 على فراشه في الظلام ويسترجع بصفاء كامل أحداث حياته
 وكان طاقة مضيفة مذهشة تنفتح فجأة من ذاكرته فيرى
 بثينة السيد ويجرفه الحنين حتى يبتسم أحيانا وهو يسترجع

أوقاتهما الحلوة ثم يجتاحه الغضب عندما يطالعه وجهها
آخر مرة وهي تقول باستهانة : 'حكايتنا خلصت ياطه وكل
واحد من طريق ' وفجأة .. تنهال على رأسه كالضربات
المتلاحقة ذكريات الاعتقال : الضرب والإهانة وشعوره
بأنه ضعيف ومنهك ومنكسر بعد كل مرة يهتكون عرضه
فيها ، انخراطه في البكاء واستعطافه للجنود حتى يكفوا عن
إبخال العصا الغليظة في جسده ، صوته الخافت المنقطع
عندما يأمرونه فيقول :.. ' أنا امرأة ..' فيضربونه من
جديد ويسألونه عن اسمه فيقول بصوت ميت : ' فوزية ..'
عندئذ تعلو ضحكاتهم وكأنهم يشاهدون فيلما ساخرا .. يتذكر
طه كل ذلك فيفقد قدرته على النوم ، يظل ساهرا و ينكأ
جروحه فينقلص وجهه في الظلام وتتلاحق أنفاسه ، يلهث
وكانه يعدو ويتملكه حقد عارم ولا يهدأ حتى يسترجع
أصوات الضباط ، يصنفها ويميزها ويخترنها بعناية في
ذاكرته وتجتاحه بعد ذلك رغبة حارقة يكاد جسده يرتعش
من وطأتها ، يتوق إلى الانتقام ويتخيل نفسه وهو ينكل بكل
الذين عذبوه وانتهكوه .. ذلك التعطش للانتقام استبد به
ودفعه دفعا حتى أحرز تقدما مذهشا في تدريبات المعسكر ،
برغم صغر سنه صار يتغلب على كثيرين يكبرونه في
القتال الجسدي وخلال بضعة أشهر برع في إطلاق النار
من البنادق العادية والنصف آلية والآلية وأصبح بإمكانه

صناعة القنابل اليدوية بسهولة وإتقان ولقد أدهش تقدمه السريع جميع الاخوة حتى أنه ذات مرة بعد ما أنجز تمريننا لتصويب النار لم يخطئ فيه سوى مرة واحدة من عشرين ، اقترب منه الشيخ بلال وربت على كتفه وقال والندبة تَخْلُج على حاجبه كعادته عندما يفعل :

- بارك الله فيك ياطه .. صرت أستاذًا في الرماية ..

- ومتى تسمح لي بالجهاد ؟!..

هكذا رد طه بجرأة وقد تحين الفرصة لسؤال كان يعمل بنفسه وصمت الشيخ بلال قليلا ثم هس بود :

- لا تتعجل يا ولدي .. كل شيء بميعاد

ثم أنصرف بسرعة كأنما ليقطع الحديث ولم يسترح طه لإجابته الغامضة .. كان يتعطش لشأره ويشعر بأنه جاهز تماما للعمليات فلماذا كل هذا التأخير ؟!.. انه ليس أقل من زملائه الذين يخرجون للجهاد ثم يعودون إلى المعسكر مزهوين بما فعلوا و يتلقون التهاني من إخوانهم .. وقد ذهب طه بعد ذلك أكثر من مرة إلى الشيخ بلال ليستحثه على إرساله في عمليات لكنه ظل يستمهله بإجابات غامضة حتى غضب طه في المرة الأخيرة وصاح بحدة :

- قريبا .. قريبا.. متى يحين هذا القريب ؟!.. إذا

كنت تراني لا أصلح للجهاد لماذا لا تخبرني حتى أنصرف من المعسكر

واتسعت ابتسامة الشيخ بلال كأنما أسعده
حفاس طه وقال :

- توكل على الله ياطه وسوف تسمع خيرا إن شاء
الله ..

وفعلا .. لم يمض أسبوع حتى أخبره بعض الاخوة
بان الشيخ بلال يطلبه وما أن فرغ من صلاة الظهر حتى
هرع إلى مكتب الشيخ : حجرة ضيقة بها مكتب عتيق
وعدة مقاعد متهرئة وحصيرة من الخوص جلس عليها
الشيخ يقرأ القرآن وقد استغرق في التلاوة فلم يشعر بوجود
طه بجواره إلا بعد لحظات فابتسم مرحبا به وأجلسه
بجواره ..

- بعثت إليك في أمر مهم

- تحت أمرك

- الأمر لله وحده .. اسمع يا سيدي .. قررنا أن

نزوجك

هكذا قال الشيخ فجأة وضحك لكن طه لم يضحك ..

أربد وجهه الأسمر وقال بتحفظ :

- لأفهم

- نتزوج يا ولدي .. ألا تفهم معنى الزواج ؟!

وهنا علا صوت طه :

- لا يا مولانا لا أفهم .. لا أفهم أن أتوسل إليك لكي

تأذن لي بالجهاد فتحدثني عن الزواج.. هل جئت هنا
لكي أتزوج ؟! لا أفهم ذلك أبدا إلا أن تكون تريد أن
تسخر مني ..

والأول مرة انقبض وجه الشيخ من الغضب وصاح:
- لا يليق بك ياطه أن تحدثني بهذه الطريقة وأرجو
أن تتمالك نفسك في المستقبل لأنني سأغضب منك .. أنت
تريد أن تنتقم من ظالميك وأقول لك : لست الوحيد الذي
عذبوه في أمن الدولة ، لقد عذبوا آلاف الاخوة.. أنا نفسي
أحمل أثر التعذيب في وجهي كما ترى لكنني لا أفقد
صوابي وأصرخ كل يوم في وجه شيوخي.. تظنني أمنعك
من الخروج إلى الجهاد ويعلم الله يا ولدي أن الأمر ليس
بيدي .. أنا لأملك اتخاذ قرار العمليات بل ولا أعرف بها
إلا في اللحظات الأخيرة .. أنا أمير معسكر ياطه ولست
الأمير العام ولست حتى عضوا في مجلس شورى
الجماعة.. أرجو أن تفهم ذلك فتستريح وتريحني .. لست
صاحب القرار ، كل ما أستطيعه ترشيح اسمك للاخوة في
شورى الجماعة وقد ألححت عليهم في ذلك وكتببت تقارير
عديدة عن شجاعتك وتقدمك في التدريب لكنهم لم يقرروا
إرسالك بعد فالذنب ليس نذبي كما ترى .. وإن كنت أعتقد
بخبرتي أنهم سيكلفونك قريبا بإذن الله

صمت طه وأطرق قليلا ثم قال بصوت خافت :

- اعتذر يا مولانا عن طريقتي المنفعلة .. يعلم
الله كم أحبك واحترمك يا شيخ بلال ..
- لا عليك يا ولدي

هكذا تمت الشيخ بلال وظل يسبح بمسبحته
واستطرد طه بلهجة ودية كأنما ليزيل أثر المشادة :
- ... لكنني فعلا مستغرب مسألة الزواج ..

- وما الغريب في ذلك ..!؟.. الزواج سنة من سنن
الله في خلقه ، شرعه سبحانه وتعالى من أجل صلاح الفرد
والمجتمع في الإسلام .. أنت شاب ولك احتياجات طبيعية
وزواجك طاعة لله ورسوله تثاب عليها بإذن الله .. قال
المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح " من
استطاع منكم الباءة فليتزوج " وقد أمرنا صلى الله عليه
وسلم بتيسير الزواج والتعجيل به درءا للفاحشة عن
المسلمين .. ونحن هنا نعيش ونموت على نهج الله
ورسوله لا نحيد عنه قيد أنملة بإذن الله .. ولقد رشحت لك
أختا فاضلة صالحة ولا أزكي على الله أحدا ..

- أتزوج واحدة لا أعرفها..!!؟

هكذا ردد طه بغير تفكير فابتسم الشيخ بلال وقال :
- ستعرفها بإذن الله .. هي الأخت رضوى أبو
العلا ، خير نموذج للمرأة المسلمة ، تزوجت من الأخ حسن
نور الدين من أسبوط وعندما فاز بالشهادة رحمه الله حملت

معها ابنها الصغير وجاءت إلينا لتحمي معنا حياة الإسلام
سكت طه وبان عليه التردد فاستطرد الشيخ :

- معاذ الله يا ولدي أن أفرض عليك شيئا .. سوف
تقابل رضوى وترى وجهها وتتحدث معها كما يقضي
الشرع الحنيف ثم تتخذ قرارك بمطلق الحرية أرجو ياطه
أن تراجع كتاب الزواج في الإسلام الذي وزعناه عليكم في
الدرس واعلم يا ولدي أن الزواج من أرملة شهيد ورعاية
ابنه اليتيم يضاعف من ثوابك بإذن الله ..

قرب منتصف الليل ، ساءت حالة الطفل وبدأت
مؤشرات الشائعات في العناية المركزة تسجل اضطرابات
في التنفس والنبض ، واستدعت الطبيبة المقيمة فجاءت
على عجل وأوصت بحقنة في الوريد أعطتها الممرضة
للطفل فتحسن حالته قليلا لكنه بعد أقل من ساعة تدهور
من جديد ولم يلبث في النهاية أن فارق الحياة.. أجهشت
الممرضة بالبكاء وغطت وجهه الصغير بالملاءة ثم خرجت
من الحجرة وما أن لمحتها هدية حتى أطلقت صرخة حادة
ملانة ترددت في أنحاء المستشفى ثم أقعت على الأرض
وغطت رأسها بيديها وأخذت تولول أما عبد ربه فقد تقلص
وجهه الأسود وكز على أسنانه بشدة حتى أصدرت صريحا
وسحق بيديه علبة السجائر فمزقها وتناثر الدخان بين
أصابعه كالتراب ، كان يبذل مجهودا خارقا ليمنع البكاء
لكنه رغما عنه فرت من عينيه الدموع ثم استسلم تماما
وعلا نحيبه.. بكى الحاضرون جميعا : عمال النظافة
والممرضات وأهل المرضى حتى الطبيبة خلعت نظارتها
لتمسح دموعها ، كان على عبد ربه وزوجته هدية أن
يحفظا جثة الطفل في ثلاجة المستشفى حتى يحين وقت
الدفن في الصباح ، وكان هذا مشهدا ألما آخر فعندما وضع
الجسد الصغير وسط الجثث الكبيرة لم يستطع عامل الثلاجة
العجوز (المعتاد على مشاهدة الموت بحكم عمله) أن

يتمالك نفسه فأخذ يردد بصوت منفعول متهدج " لا إله إلا الله " أنا لله وأنا إليه راجعون " ... أما سكان السطح في عمارة يعقوبيان فقد عرفوا الخبر بطريقة ما وظلوا ساهرين جميعا ، فتحوا أبواب حجراتهم وانتظروا صامتين مطرقين وكأنهم في سراق العزاء وأدار بعضهم (الذين يملكون أجهزة تسجيل) تسجيلات القرآن الكريم بصوت عال تردد في أنحاء السطح .. وقبل الفجر بقليل ظهر عبره وهدية في السطح وقد أنهكهما الألم والإرهاق ، تدافع سكان السطح جميعا إليهما معزين فالتفت الأحران من جديد ، عائق الرجال عبده وشدوا على يديه (وكانوا جميعا صادقين في تأثرهم حتى أكثرهم شراسة وعدوانية مثل على السواق الذي كانت رائحة الخمر الرخيصة تفوح من فمه كالعادة لكنه بكى بحرارة كطفل ضائع) أما الشاذلي البواب العجوز بشواربه البيضاء وقامتة الطويلة الجافة فما أن دنا من الأب المكلوم وصافحه (وكان بينهما ود خاص) حتى احتضنه عبده بشدة ودفن وجهه في جلاببه الأبيض وهو ينوح ولكنته الصعيدة :

- .. ولدي راح يا خال ..

أما النساء فكن يعرفن كيف يعبرن عن الفجيعة : انطلقت صرخاتهن الحادة تمزق السكون ولطمت كثيرات خدودهن بقوة حتى سقطن على الأرض ، وشينا فسينا

هذات فورة الأحزان وكما يحدث عادة في مثل هذه
المواقف الحرج الرجال على عبده حتى يأخذ زوجته
ويستريحان قليلا في حجرتهما لأن أمامهما في الغد يوما
ثاقا واستجاب الزوجان في النهاية ودخلا إلى الحجرة ،
لكن الضوء ظل مضاءا حتى الصباح لأنهما لم يناما بل
استبكا في حديث طويل لم يلبث أن احتد حتى صار
مشاجرة مريرة وعنيفة سمعت أصداؤها في السطح .. كان
صوت هدية يعلو ناقما متحديا بينما يخفت صوت عبده شيئا
فشيئا حتى سكّت تماما، وفي اليوم التالي بعد أن تمت
إجراءات الدفن والعزاء فوجئ أهل السطح بسيارة نقل
كبيرة تقف بالليل أمام باب العمارة ثم رأوا عبده يساعد
العمال على نقل الأثاث من الحجرة ، واستفسر السكان
بانزعاج فأخبرهم عبده أنهم سينقلون إلى حجرة أخرى
في امبابة .. كان وجهه منقبضا وطريقته جافة لدرجة
منعتهم من إبداء دهشتهم أو حتى توديعه بالحرارة
المناسبة..

- .. أنت بدأت بالغلط يا عزام
- أعوذ بالله يا كمال بك ... أنا كلمتي على رقبتي
لكن الموضوع محتاج وقت ..

كانا يجلسان في مطعم الشيراتون وقد تكهرب الجو
وبدا عزام يتحدث في موضوع آخر فارتد وجه كمال الفولي
وقال بحدة :

- ما تتوهنيش في موضوعات ثانية .. أنا مش
صغير ... أنت اتفقت ورجعت في اتفاقك. أنا أعطيتك العقد
من ثلاثة شهور لأجل توقعه مع الرجل الكبير وأنت بتماطل
- يا كمال بك عيب تقول بتماطل .. الموضوع
لازم أعرضه على الشريك الياباني وأنا منتظر الوقت
المناسب

- ومال اليابانيين ومالنا .. العقد بينك وبين الرجل
الكبير على نسبة أرباح بينكم ..

- يا باشا اليابانيين لازم يعرفوا كل حاجة ولو
عملت حاجة من ورائهم ممكن يفسخوا التوكيل

نفث كمال الفولي نفسا كبيرا من الشيشة ثم وضع
المبسم الكبير على المنضدة ونهض فجأة فنهض معه ابنه
وأفراد الحراسة في المائدة المجاورة ، وقال بحسم وهو
يصلح من هندامه تاهبا للانصراف :

- أنت بتلعب بالنار يا عزام .. وأنا مندهش لأنك

رجل ذكي .. لازم تفهم إن اللي دخلك مجلس الشعب
يقدر يخرجك منه

- بتهددني يا كمال بك ١٢٠٠

- افهم زي ما تفهم

نهض الحاج عزام ومد ذراعه إلى كتف الفولي
محاو لا احتضانه وقال :

- يا باشا أرجوك ما تكبرش الموضوع

- .. السلام عليكم ..

استدار الفولي لينصرف لكن الحاج عزام تشبث
بذراعه قائلا:

- يا باشا الكلام أخذ وعطا .. والله العظيم ثلاثة أنا

عند وعدي

وانتزع الفولي ذراعه غاضبا لكن عزام اقترب منه
وهمس بما يشبه التوسل

- يا كمال بك اسمعني أرجوك .. أنا طالب منك

طلب يريحني ويريحك

تطلع إليه الفولي متسائلا والغضب لم يفارق وجهه
فقال عزام :

- عاوز أقابل الرجل الكبير

- الكبير ما بيقابلش حد

- يا كمال بك أرجوك تساعدني .. نفسي أقابل

مبادئه و أشرح له الوضع بنفسي .. و حياة العيش والملح
يا شيخ ما ترفض طلبي
و حذجه الفولي بنظرة عميقة متفحصة وكأنما يسبر
غوره لمرة أخيرة ثم قال وهو ينصرف :
- نشوف ...

• • •

لم يكن سهلا على الحاج عزام أن يتنازل ببساطة
عن ربع أرباح التوكيل و لم يكن بمقدوره أيضا أن يرفض
بوضوح ، كان تقديره أنهم لن يبدأوا في محاربته مادام
عندهم أمل ولو قليل في أنه سيدفع ، وقد طلب لقاء الرجل
الكبير وألح في ذلك أولا حتى يكسب الوقت وثانيا لأنه لديه
شعورا غامضا مؤكدا أنه إذا التقى بالكبير وجهها لوجه
سينجح في إقناعه بتخفيض النسبة وكان له غرض أخير
مهم : أن يتأكد من وجود الرجل الكبير أساسا .. ليس
محتملا أن يكون الفولي يستعمل اسم الكبير بغير
علمه ..! ؟ .. احتمال ضئيل طبعاً لكنه قائم .. واستغرق
الأمر بضعة أسابيع وعدة مكالمات تليفونية ألح فيها عزام
على الفولي حتى يدبر له موعداً مع الكبير ، وذات صباح
دق جرس التليفون في مكتب عزام وسمع صوت
السكرتيرة الناعم :

- الحاج عزام .. السلام عليكم .. كمال بك
حيكلم سيادتك

وجاءه صوت الفولي قائلا باقتضاب :

- ميعادك مع الكبير يوم الخميس .. الساعة ١٠
صباحا تكون جاهز في مكتبك ونبعث لك سيارة تأخذك

• • •

أعدت دولت خطتها بعناية واستطاعت بالواسطة
والرشوة أن تجذب الضباط جميعا إلى صفها فعاملوا زكي
الدسوقي بمنتهى الفظاظة والوقاحة ومنعوه من استعمال
التليفون وتبادلوا التعليقات الهازنة به :

- عامل لي فالنتينو

- أنت بقه الشيخ الشريب ..

- تلاقي الماكينة عطلت وبقيت مشغال يدوي

أخذوا يطلقون ضحكات عالية تتبعتها نحنحات

ونوبات مسعال وشاركتهم دولت في الضحك بغرض
المجاملة والتشجيع والشماتة وظل زكي صامتا ، لم يرد
عليهم ، كان الحاجز الذي جهد ليحتفظ به حول نفسه قد
سقط وانتهى الأمر وأدرك أن مقاومته ستزيد من سفالتهم
وشعر بإشفاق بالغ على بثينة التي لم تنقطع عن النحيب أما

الضابط الذي قبض عليهما فقد قال ضاحكا بثشف:

- إيه رأيك ياخواجه ؟! .. عرفت أن الله حق ؟!

فأجابه زكى بصوت خافت:

- تصرفاتك غير قانونية وأنا سأقدم شكوى ضدك

وصاح الضابط :

- لسه بتكابر .. ؟! .. أما انك فعلا نطع وبجح .. يا

رجل اختشي دا أنت خلاص .. قدم في الدنيا وقدم في

الأخرة .. واحد في سك المفروض يعتكف في الجامع مش

نجيبك عريان من على موسم ولك عين تتكلم

وحاولت بثينة أن تستعطف الضابط فنهرها بحدة :

- اخرسي يا بنت القعبة يالما أعمل لك قضية آداب

حالا .. ؟!

استسلما تماما وأجابا على أسئلة الضابط وأكد زكى في

أقواله أن الشكوى كيدية وأن دولت لا تقم معه في المكتب

وفسر وجود بثينة معه بأنها ابنة صديق له تشاجرت مع

أسرتها واستضافها في مكتبه حتى يصلحها عليهم ، ثم وقع

على المحضر ووقعت بثينة و دولت (الشاكية) التي

انصرفت بعدما شكرت الضباط واطمأنت على سير

الموضوع وابتلع زكى كرامته بعد كل هذه الإهانات وأخذ

يتوسل إلى الضابط حتى سمح له أخيرا ، على مضض ،

باستعمال التليفون فاتصل مستجدا بصديق له مستشار سابق

جاء على عجل وأثار النوم على وجهه ودخل إلى مكتب رئيس النقطة الذي استدعى زكي ودعاه إلى الجلوس وأصر أن يطلب له فنجان قهوة وأعطاه سيجارة (وكان قد نسي علبة السيجار في مكتبه أثناء المعمة) نظر رئيس النقطة إليه وقال مبتسما بصوت هادئ :

- طبعاً .. أنا اعتذر عن أي إهانات حدثت من زملائي لكن أنت عارف الواقعة أخلاقية والموضوع شأنك والضباط هنا غيورين على التقاليد وكلنا متدينين والحمد لله ..

لم ينطق زكي بكلمة .. أخذ يدخل وهو يحدق في الضابط بينما انبرى المستشار قانلاً :

- .. ياريت يا باشا نلزم الموضوع يبقى كثر خيرك ..

- طلبات سعادتك أوامر لكن للأسف المحضر تم تسجيله برقم مسلسل ولا يمكن إلغاؤه ، سيادتكم أسنادنا وعارف الإجراءات ، الممكن نعمله إننا نسيبه هو والبنت يمشوا الليلة ويحضروا الصبح للعرض على النيابة وأنا أكلّم وكيل النيابة يحفظها بإذن الله

وقع زكي وبثينة على تعهد بالحضور للنيابة وعندما خرجا من النقطة صافح زكي صديقه المستشار شاكراً فقال :

- يا زكي بك إحنا أخوات ما فيش بيننا شكر ..

على فكرة واضح إن أخنك دولت واصلة والضبط كلهم
في جيبيها .. رئيس النقطة كان ممكن يقطع المحضر قدامنا
لو كان عاوز ..

وابتسم زكي في حزن فقال المستشار يواسيه :
- ولا يهملك .. أول ما النهار يطلع حاتصل
بالمديرية وربنا يسهل

شكره زكي من جديد ومشى بجوار بثينة في اتجاه
عمارة يعقوبيان ، كان نور الصباح قد بدأ يتسرب إلي
شارع سليمان باشا الخالي تماما إلا من عمال البلدية الذين
يكنسون يتناقل وبعض المارة القلائل المبكرين لسبب ما أو
العائدين من سهرة ممتدة وشعر زكي بتعب بالغ ودوار
وغثيان ، لم يكن ثائرا ولا غاضبا ، كان فقط يحس بمعدته
تؤلمه وذنه فارغ وأفكاره مشتتة وشينا فшина بدأ يستشعر
أحزانا ثقيلة تكدنو منه كالحسابات المسرعة قبل العاصفة ،
سيسترجع مائة مرة الإهانات والشتم التي وجهوها إليه ،
لن يغتفر لنفسه أبدا أنه انكسر واستسلم لهم ، سيقارن -
ليؤلم نفسه بقسوة - بين الاحترام الذي عرفه طيلة حياته
وتلك المهانة التي سحقتها حقا في النقطة ، عاملوه وكأنه
نشال أو قواد وما يعتصر قلبه حقا أنه استسلم تماما ، لو
ضربوه لما اعترض .. لماذا أذعن وتحول إلى خرقة بالية
في أيديهم ..؟! كيف ضاعت إرادته وهانت كرامته إلى هذا

الحد ..؟! كان يجب أن يقاومهم إلى النهاية وليكن ما يكون ، إن لم يكن دفاعا عن شرفه فعن كرامة بثينة التي أجهزوا عليها ، ماذا تقول عنه الآن وكيف يواجه عينيها وقد عجز عن حمايتها أو حتى الدفاع عنها بكلمة..؟! النفث إليها ، كانت تمشي صامتة بجواره وسمع نفسه يقول فجأة بصوت مبحوح:

- تعالي نطفر في الاكسليور .. أنت أكيد جعانة لم ترد بكلمة ، تبعته صامتة إلى المطعم الكبير المواجه لعمارة يعقوبيان الذي خلا تماما في تلك الساعة المبكرة إلا من عمال النظافة المنهمكين في غسيل الأرضية بالماء والصابون وزبون واحد أجنبي عجوز في أقصى المكان يحسني القهوة ويطالع جريدة فرنسية ، .. جلسا متواجهين إلى منضدة بجوار الزجاج في الركن الذي يكشف تقاطع شارعي سليمان باشا وعذلي ، طلب زكي كوبين من الشاي "كومبليه" (مع الجاتوه) واحتواهما صمت ثقيل مزلم حتى رشف من فنجان الشاي وتكلم ببطء وكأنه يتلمس طريقه :

- بثينة.. أرجوك ما تضايقيش نفسك .. الإنسان معرض في حياته لمواقف سخيفة كثيرة ولو توقف عندها يبقى غلطان .. ضبطا البوليس في مصر زي الكلاب المسعورة وللأسف صلاحياتهم كبيرة بشأن قانون الطوارئ..

بدا ما يقوله سخيفاً وغير ملائم وظلت بثينة مطرقة، أمامها فتجان الشاي والجائوه لم تمسسهما وأدرك زكي كم هي حزينة فقال : ..

- أنا بس نفسي أعرف دولت جابت مفتاح المكتب منين ؟! .. هي دبرت الحركة القذرة بفرض أنها تحجر على لكنها تخسر القضية.. المحامي أكد لي إنها حتخر كان يقاوم انفعاله بالثرثرة ، يسعى إلى تحويل الموقف المولم إلى مجرد كلام.. احتمالات وافتراضات ، وكانت هذه طريقة ربما تتجح للخروج من البؤس الجاثم عليهما .. - المحامي شرح لي الشروط القانونية للحجر .. الحجر موضوع معقد والمحكمة لا تأخذ القرار بسهولة .. دولت لأنها جاهلة فاهمة المسألة بسيطة

... فشلت محاولته وظلت بثينة صامتة ، لم تتطرق بكلمة، وكأنها فقدت قدرتها على السمع والكلام واقترب زكي منها عبر المائدة ولاحظ لأول مرة في الضوء لونها الممتنع الشاحب وعينيها المحترقتين وتلك الخدوش المتناثرة على وجهها ورقبتها من أثر مقاومة المخبرين فابتسم بعطف واحتضن يديها بين يديه وهمس :

- بثينة لو بتحبيني انسي الموضوع البايخ ده كانت رفته فوق احتمالها ، وكأنها اللسة الواحدة الهينة التي ينظرها الجبل المتصدع المتماسك بالكاد حتى

ينهار .. أخذت تبكي وقالت بصوت خافت:
- طول عمري حظي قليل .. في كل حاجة ...

• • •

النقي طه برضوى في حضور الأخوات ، رآها
مكشوفة الوجه وتحدث معها طويلا ، عرف أنها تكبره
بثلاث سنوات وأعجبته معرفتها العميقة بالدين وطريقتها
الهادئة الدمثة في الحديث ، حكّت له عن نفسها وزوجها
السابق حسن نور الدين و كيف قتلوه .. قالت:

- كتبوا في الصحف أنه أطلق النار على الضباط
فاضطروا إلى قتله ويعلم الله أنه تلك الليلة لم يطلق طلقة
واحدة من سلاحه .. طرّقوا عليه الباب وبمجرد أن فتح
أطلقوا عدة دفعات من الآلي فاستشهد فوراً وثلاثة أخوة معه
.. قتلوه متعمدين وكان بوسعهم لو أرادوا أن يعتقلوهم
أحياء

بان الحزن في وجه طه وعقب بمرارة :
- التعليمات الجديدة أن يقتلوا أكبر قدر من
الإسلاميين .. يسمونها سياسة الضرب في سويداء القلب
.... لو تعامل النظام الكافر بهذه الوحشية مع اليهود
لكانت القدس تحررت من زمان ..

أطرقَت رضوى وساد صمت ثقيل ثم
استطردت وكأنها تود لو تحكي بصراحة كل ما حدث في
حياتها :

- بعد استشهاد المرحوم سعى أهلي لتزويجي وعرفت أن
العريس المنتظر مهندس ثري لكنه تارك صلاة وحاول
أهلي إقناعي بأنه سيلتزم بعد الزواج لكنني رفضت ..
شرحت لهم أن تارك الصلاة كافر شرعا ولا يجوز أن
يتزوج مسلمة لكنهم ضغطوا على بشدة حتى صارت حياتي
جحيما ، المشكلة أن أهلي غير ملتزمين ، هم ناس طيبون
لكنهم للأسف لازلوا على الجاهلية وقد خفت على نفسي من
الفئة في ديني وأردت لعبد الرحمن ابني أن ينشأ في طاعة
الله فاتصلت بالشيخ بلال وزوجته أن يسمح لي بالمعيشة
في المعسكر ..

- وماذا فعل أهلك .. ؟!

- بعثت إليهم من يطمئنهم علي وسوف أزورهم
بإذن الله في أقرب فرصة وأدعو الله أن يغفر لي إن كنت
أسأت إليهم ..

كان يشعر وهو يستمع إليها أنها صادقة وأعجبه
ذلك التعبير الجاد المخلص الذي يرسم على وجهها الجميل
وهي تتكلم وكأنها طفل مذنب يعترف بصراحة ، ولاحظ
أيضا أن جسدها ممثلي متناسق وصدرها مكتنز راسخ

(ولام نفسه بعد ذلك على هذا الخاطر واستغفر الله)..
بعد أيام استدعاه الشيخ بلال إلى مكتبه وصافحه بترحاب ثم
نظر إليه ملياً وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى وقال
بصوت عميق وكأنه يستأنف حديثاً بينهما :

- هه .. ما رأيك ؟!

- في أي موضوع ؟؟

.. أطلق الشيخ ضحكة عالية وقال :

- ألا تعرف الموضوع يا شيخ طه ؟! .. موضوع

رضوى يا سيدي ؟!

سكت طه وابتسم بحرج فربت الشيخ على كتفه

وقال :

- مبارك يا ولدي ..

... وما أن انتهت صلاة العشاء يوم الخميس حتى

تَحلّق الاخوة حول طه يهنئونه بينما لعلعت الزغاريد من

الحجرة الداخلية المخصصة للحريم ، كانت الأخوات على

مدى يومين قد انهمكن في إعداد العروس وتجهيزها ، وبعد

ربع ساعة من الزغاريد والتهاني جلس الشيخ بلال لعقد

القران .. وكلت رضوى عنها في عقد الزواج الأخ أبو

حمزة (قريبها وبلدياتها من أسبوط) وتطوع أخوان آخران

للسهادة على العقد وبدأ الشيخ بلال بكلمة معتادة عن الزواج

في شرع الله ثم جمع يد طه إلي يد أبي حمزة وردد صيغة

العقد فردداها وراءه ولما فرغوا تمّم الشيخ :
- اللهم اجعل قرانكما مباركا واهدكما إلى طاعتك
وارزقهما الثرية الصالحة .. ثم وضع يده على رأس طه
قائلا :

- بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما أنت
وزوجتك في الخير

تدافع الأخوة جميعا إلى معانقة العريس وتهنئته
وانطلقت الزغاريد بقوة وأخذت الأخوات ينشدن وهن
يضربن على الدفوف :

| | |
|----------------------|-----------------|
| أتيناكم .. أتيناكم | فحيونا نحبيكم |
| ولولا الذهب الأحمر | ما حلت بواديكم |
| ولولا الحنطة السمراء | ما سمنت عذارىكم |

.. كان طه يرى طريقة الزفاف الإسلامية لأول مرة
وتأثر من فرح الأخوات وغنائهن وحماس الأخوة في تهنئته
ثم اصطحبت الأخوات العروس إلى بيتها الجديد : حجرة
واحدة متسعة تقضي إلى حمام صغير منفصل في المبنى
الكبير المخصص للمتزوجين (الذي كان في الأصل مسكنا
لعمال المحاجر في شركة الأسمنت أيام السويسريين ظل
مهجورا ومنسيا تماما حتى أخذه بعض الإسلاميين العاملين
في الشركة وأعدوه كمعسكر سري للجماعة) .. انصرفت
النساء وساد السكون في المسجد وجلس الأخوة مع العريس

ودار حديث مرح تعالت خلاله ضحكاتهم ثم نهض
الشيخ بلال قائلا :

- هيا بنا يا اخوان..

وحاول طه أن يستبقه فضحك الشيخ وقال :

- في ليلة العرس يجب ألا تبدد طاقتك في الحديث

وانهمرت التعليقات الضاحكة من الاخوة وهم

خارجون من المسجد وودعوا طه وانصرفوا فمضى وحيدا

وبدا يشعر برهبة .. كان قد تخيل ما سيفعله ليلة الزفاف

بأشكال عديدة مختلفة ، ثم توكل على الله في النهاية وقرر

أن يترك كل شيء يمضي كما قدر الله وان ظلت تقلقه

فكرة أنه بلا تجارب مع النساء بينما زوجته لها خبرة سابقة

ربما تجعل إرضاءها صعبا ، وكانما قرأ الشيخ بلال أفكاره

فاتفرد به في اليوم السابق على الزفاف وحدثه عن الزواج

وحقوق زوجته الشرعية عليه وأكد على عدم تخرج المسلم

من زواج المرأة النيب وأن الزواج السابق للمرأة المسلمة لا

ينبغي أن يكون نقطة ضعف يستغلها ضدها زوجها الجديد

وقال ساخرا:

- العلمانيون يتهموننا بالتزمت والجمود بينما

يعانون هم من عقد نفسية لا حصر لها .. ترى الواحد منهم

إذا تزوج من امرأة سبق لها الزواج ظلت ذكرى زوجها

الأول تلاحقه وقد يسيء معاملتها وكأنه يعاقبها على

زواجها الحلال .. الإسلام لا يعرف هذه العقد النفسية .. كانت كلها رسائل غير مباشرة فهمها طه عن كيفية معاملة رضوى و استعرض الشيخ معه ما يكون بين الرجل والمرأة وشرح له الآية من سورة البقرة " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم " واستفاض في شرح التعبير القرآني " وقدموا لأنفسكم " الذي يعلمنا من خلاله المولى عز وجل كيف نأتي النساء بطريقة إنسانية رقيقة وكانت للشيخ قدرة على الحديث في أدق التفاصيل الجنسية بطريقة جادة ومحترمة لا تخدش الحياء وقد أفاد طه من كلامه وعرف أشياء كثيرة كان يجهلها وازداد حبا له وقال لنفسه لو أن أبي نفسه كان معي لما فعل أكثر مما فعله الشيخ بلال .. وهاهي طقوس الزفاف تنتهي ويتركه الاخوة وحده ليواجه اللحظة الحاسمة .. صعد الدرج وطرق الباب ثم دخل إلى حجرة العروس فوجدها جالسة على حافة الفراش وقد كشفت الحجاب عن رأسها ، كان شعرها أسود ناعما منسدلا على كتفيها وبدا سواده بجوار بياض بشرتها المتوردة خلايا ولاحظ طه لأول مرة عنقها الجميل ويديها الصغيرتين وأناملها الرقيقة فحقق قلبه بشدة وتحنج ثم قال بصوت مرتبك:

- السلام عليكم ..

فابتسمت رضوى وأطرقت وهمست برقة وقد تضرع وجهها: - و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ...

عرف حاتم رشيد بالخبر في اليوم التالي ، سهر في الجريدة حتى صدور الطبعة الأولى وعاد منهكا إلي البيت حوالي الرابعة صباحا فقال لنفسه " أنام والصبح أظمن على عبده " .. ثم استيقظ متأخرا واستحم وارتدى ثيابه وخرج متوجها إلي المستشفى وفي مدخل العمارة لقيه الشاذلي البواب فقال بأقتضاب:

- عبد ربه سايب لك مفاتيح الحجرة والكشك ..

- إيه ١٩

هكذا هتف حاتم مأخوذا وأخبره البواب ب وفاة الطفل وما حدث بعد ذلك فاشعل سيجارة وسأل وهو يجهد ليبدو متماسكا :

- قال لك رايح فين ١٩.

- قال انه حيسكن في امبابة ورفض يسيب عنوانه الجديد ..

عاد حاتم وصعد إلى السطح وأخذ يسأل السكان عن عنوان عبده الجديد وتحمل نظراتهم الوقحة وإجاباتهم العدوانية (كان لسان حالهم اترك عبده في حاله وكفاية ما جرى له) لكنه في النهاية لم يتوصل إلى شيء ، وفي المساء ، لمدة ساعتين ، وقف بسيارته أمام الكشك المغلق لعل عبده يكون نسي شيئا فيعود لياخذه بالمفتاح الإضافي الذي يحتفظ به ، ذهب إلى الكشك ثلاثة أيام متوالية لكن عبده لم

يظهر ولم يبينس حاتم ، أخذ يبحث عنه في كل مكان وعند كل من يعرفه لكن عبثا .. وبعد أسبوع طويل من البحث تأكد له أن عبده قد ذهب الى الأبد فجرفته موجة عاتية من الحزن واليأس ، انتابته مشاعر مزلمة ومختلطة : كان يفقد عبده .. وجوده الحار وجسده القوى الصلب وطيبته ونقائه وصوته الأجرس ولكنته الصعديّة ، كان أيضا يفيض بالإشفاق عليه لأنه يعرف كم يحب ابنه وكم يحزنه أن يموت وأحس بالندم لأنه تركه ذلك اليوم في المستشفى وذهب الى الجريدة ، قال لنفسه : كان من الممكن أن أوجل العمل لأظل معه في هذا الوقت الصعب .. كان يحتاج إلي وجودي بجواره لكنه خجل من أن يطلب ذلك ..

يوما بعد يوم ازدادت لوعة حاتم وتملكه إحساس بأنه سيئ الحظ حقاً : أعواما طويلة قضاها في بؤس ومعاناة حتى يجد رفيقا وديعا وحساسا لا يثير المشاكل وما أن بدأت حياته تستقر إذا بالطفل يموت وعبد ربه يختفي ليستأنف حاتم من جديد رحلته الضائعة .. سيكون عليه أن يجوب شوارع وسط البلد كل ليلة لينتقط جنديا من الأمن المركزي ، قد يكون لصا أو مجرما يضربه أو يسرقه كما حدث كثيرا من قبل ، سيعود مرة أخرى إلى بار شينو بحثا عن برغل وإلى حمام الجبلأوي في الحسين لينتقط صبيا مراحمًا يشبع معه شهوته ويتحمل في المقابل سوقيته

وجشعه ، لماذا ضاع منه عبد ربه بعد ما أحبه واطمنن إليه وخطط لحياتهما معا..؟!.. هل كان من الصعب حقاً أن يهنا بعشيقه طويلاً ؟!.. لو أنه يؤمن بالله لا اعتقد أن محنته عقاب الهي على اللواط لكنه يعرف عشرة لوطيين على الأقل يهناون بحياة وادعة مطمئنة مع عشاقهم ، فلماذا هو بالذات يضيع منه عبده..؟!.. شينا فشينا تدهورت نفسيته ، فقد شهيته للطعام وأخذ يسرف في الشراب ولزم البيت ، لم يعد يذهب إلي الجريدة إلا لضرورات العمل القصوى ، يقضيها بسرعة ويهرع عائداً إلى بيته حيث الصمت والحزن والذكريات .. هنا كان يجلس عبده وهنا كان يأكل وهنا كان يطفى سجائره وهنا .. هنا كان يستلقي بجواره فيمسح حاتم بيديه على جسده الأسود ويقبل كل مكان فيه ويهمس بصوت متهدج من وهج الشهوة :

- أنت ملكي وحدي يا عبده .. أنت حصاني الأسود الجميل ..

ليالي كاملة قضاها حاتم في اجتراح الذكريات ، واسترجع علاقته بعبده دقيقة بدقيقة ، ووسط غيوم السكر والياس بزغت ذات ليلة فكرة ، ومضت في ذهنه كالبرق ، استعاد جملة قالها عبده مرة بدعابة :

- الصعيدي عمره ما يستغنى عن الصعايدة ...بالك أنا لورحت أي مكان ؟!.. لازم أسأل عن قهوة الصعايدة وأقعد فيها.

انتبه حاتم ونظر بلهفة إلى الساعة فوجدها
جاوزت الواحدة صباحا ، ارتدى ثيابه على عجل وبعد
نصف ساعة كان يسأل المارة في امبابة عن قهوة الصعيدة
وبعد نصف ساعة أخرى وجدها .. وفي المسافة الصغيرة
التي قطعها من السيارة إلى مدخل القهوة أحس بالعرق
يتصبب على جبهته وقلبه يكاد يتوقف من شدة الخفقان ..
كان المقهى ضيقا وقذرا للغاية ودخل حاتم بسرعة وأخذ
يتلفت حوله بلهفة (ونكر بعد ذلك في العلاقة بين رغبنا
الشديدة في شيء ما وإمكانية تحققه ، هل يتحقق ما نريده
حتمًا إذا رغبنا فيه بالقوة الكافية ؟!) .. كان يتوق لأن يجد
عبده لدرجة أنه وجده فعلا ، لمح جالسا في أقصى المقهى
يدخن المعسل وقد ارتدى جلبابا فضفاضًا داكنا ووضع على
رأسه عمامته الصعيدية الكبيرة ، بدا ضخما ومهيبا في تلك
اللحظة وكأنه مارد سحري أسمر تجسد من الخيال ، بدا
أيضا وكأنه قد عاد إلني نفسه ، إلى أصله وجذوره ، وكأنه
خلع مع ثيابه الإفرنجية كل تاريخه الاستثنائي الطارئ مع
حاتم رشيد الذي وقف أمامه صامتا للحظة ، أخذ يتفحصه
مليا وكأنه يتأكد ، يستوثق ، يتمسك بوجوده لنلا يخنقي من
جنيد ولم يلبث أن اندفع ناحيته وهتف بصوت لاهث جعل
الرواد يلتفتون إليه:

- عبده .. أخيرا ..

في الليلة الأولى تم لقاءهما ببساطة وعفوية
 وكأنها زوجته من سنوات ، تفتحت الوردية بين أصابعه
 وسقاها أكثر من مرة حتى ارتوت ، وأدهشه ذلك وأخذ
 يتساءل وهو يسترجع تفاصيل الزفاف : كيف نجح مع
 رضوى بسهولة وهو الذي لم يلمس امرأة من قبل ؟!.. أين
 ذهب توجسه وتردده وخوفه من الفشل ؟ إربما لأنه استراح
 نفسيا لرضوى أولاً لأنه نفذ نصائح الشيخ بلال كلها أو لأن
 زوجته شجعت به خبرتها وأطلعت على مكان الأسرار ،
 فعلت ذلك ببراعة ولباقة وبغير أن تتخلى عن حيائها
 الطبيعي كأمراة مسلمة .. فكر طه في كل ذلك واستقر رأيه
 على أن زواجه بهذه المرأة نعمة كبيرة من ربنا سبحانه
 وتعالى لأنها أنثاة مهذبة أمينة صابغة الإسلام ، وقد أحبها
 واستقرت حياته معها واستراح لنظامهما اليومي : يتركها
 في الصباح ويقضي النهار كله في المعسكر ثم يعود بعد
 صلاة العشاء فيجد الحجرة نظيفة مرتبة والطعام الساخن
 الشهي ينتظره وكم يحب جلوسه معها إلى الطبلية ليتناول
 العشاء : يحكي لها عن وقائع اليوم ، وتروي له أحاديثها
 مع الأخوات وملخص ما قرأته في الصحف (إذ لم يكن
 يجد وقتاً لقراءتها) ويضحكان معاً من طرائف عبد
 الرحمن الصغير وشفاقته التي لا تنتهي إلا بسقوطه
 المفاجئ في برائن النعاس .. عندئذ تحمله رضوى إلى

فراشه الذي أعدته له على أرض الحجرة ثم تعود لترفع
بقايا الطعام وتغسل الصحون بعناية ، بعد ذلك تستأذن إلى
الحمام فيسبقها طه إلى سريرهما المعدني القديم ، ينتظرها
مستلقيا على ظهره ، يحملق في سقف الحجرة وقلبه يفيض
بذلك الشغف المتوتر اللذيذ الذي صار يعرفه ويحبه وينتظر
حدوثه كل ليلة ، شوقه العارم إليها ، جسدها الفاتن
المنتعش من أثر الماء الساخن ، العاري تماما إلا من فوطة
كبيرة تتدثر بها وهي خارجة من الحمام ، اللحظات
الصامتة الشيقة المتوترة المفعمة بالرغبة بينهما وقد أعطته
ظهرها وأخذت تستزين أمام المرأة ، تلك الجمل المرتبكة
الفارغة من المعنى التي تنطق بها بصوت خافت لاهث ،
تتظاهر بالحديث في أي موضوع وكأنها تداري شوقها إليه
فيلتقط الإشارة ولا يمهلها ، يضم إليه جسدها الغارع اللين
ويدغدغه بقبلاته وأنفاسه الملتهبة حتى تفيض عذوبته ثم
يفرغ في أحضانها مشاعره جميعا : أحزانه وذكرياته
وأحلامه المحبطة ورغبته التي لا تهدأ في الانتقام وكرهيته
الوحشية لمعذبيه ، حتى تلك الأسواق الجنسية الغامضة
المضطربة التي كثيرا ما اجتاحتها وألمته في غرفته فوق
السطح ، يفرغها في جسد رضوى فيتحرق ويرتاح وتخدم
النار لتخلف محبة هادئة مستقرة تزداد رسوخا كل ليلة ،
يتأملها بعد الغرام بامتنان صادق ويغرق يديها ووجهها

وشعرها بالقبلات ، وقد صار خبيراً بشايات جندها
وتفاصيله وأتقن لغته حتى ليمتد بهما الحب ساعات يتألق
خلالها وجه رضوى بالنشوة مرات ، وقد مرت شهور على
حياته الجديدة معها تذوق فيها السعادة حتى كانت ليلة
التقى بها في الفراش فتعثر أداؤه على غير العادة وارْتَبَكَ ثم
انقطع .. ساد الصمت بينهما وفجأة هب ناهضاً بعنف فارتج
الفراش تحتهما واندفع فأوقد النور ولملمت هي ثوبها لتغطي
جسدها العاري وسألت بقلق :

- فيه إيه ؟..!

ظل صامتاً وجلس ببطء على الأريكة ثم انحنى
ببطء ووضع رأسه بين يديه وتقلص وجهه وكان شيئاً ما
يؤلمه فهرعت إليه وقد اشتد جزعها :

- مالك ياطله ؟....!

ولعله تأثر من لهفها الصادق عليه فتملل وزفر بقوة ثم قال
متحاشياً النظر إلى عينيها :

- أرجوك يارضوى ما تفهميني غلط .. أنا طبعاً
سعيد بزواجنا وأحمد ربنا ألف مرة لأنه وفقني لزوجـة
صالحة زيك .. لكنني لم أنضم إلى المعسكر بغرض الزواج
.. أنا جئت مع الشيخ شاكر لهدف محدد .. الجهاد في سبيل
الله .. بقي لي هنا سنة كاملة . خلصت كل أنواع التدريب
وحتى الآن لم يكلفوني بأي مهمة .. أنا خايف نفسيتي

تضعف مع الوقت..

كان يتكلم بصوت حزين خافت ثم خبط بيده على ساقه وصاح بمرارة :

- إن كان على الزواج كنت تزوجتك في أي مكان غير المعسكر .. أنا أسأل نفسي مائة مرة كل يوم أنا موجود هنا ليه .. ليه يارضوى ..؟! أنا متأكد إن الشيخ بلال زوجني بك حتى يصرفني عن الجهاد..
ابتسمت رضوى كام حكيمة متفهمة وأحاطت كتفه بذراعها وقالت بصوت حان :

- استعذ بالله واطرد هذه الأفكار عن رأسك لأنها وسوسة شيطان .. الشيخ بلال رجل صدق وهو لا يكذب أبدا ولو أنه يراك غير جدير بالجهاد لأخرجك من المعسكر .. كما أنه لم يزوجك من امرأة فاسدة تلهيك عن دينك (وهنا اكتسى صوتها بنبرة لانمة) .. أنا زوجتك ياطه وأول من يحبك على الجهاد وأول من يفخر بك لو نلت الشهادة وأدعو الله أن أنالها معك.. لكنني بخبرتي مع المرحوم الشهيد حسن أعرف أن العمليات العسكرية ليست نزهة أو لعبة وهي محكومة باعتبارات دقيقة لا يعرفها إلا الاخوة في شوري الجماعة

وفتح طه فمه ليعترض فأسرعت ووضعت يدها بلطف على فمه كأنما تمنعه من الحديث وهمست :

- اصبر ياطه . اصبر . إن الله مع الصابرين :

• • •

في تمام العاشرة ، صباح الخميس ، توقفت أمام
عمارة يعقوبيان سيارة مرسيدس شبح سوداء نزل منها
رجل أربعيني أنيق وسال حتى أوصلوه إلى مكتب الحاج
عزام فحياه وقدم نفسه بخيلاء :

- جمال بركات .. من سكرتارية الباشا

ركب الحاج عزام بجواره في السيارة ولم يتبادلا طوال
الطريق سوى بضع كلمات مجاملة استغرق بعدها عزام في
التسبيح وترديد الأدعية ، كان يعرف أن الرجل الكبير
يسكن على ترعة المريوطية لكنه لم يتخيل بيته أبدا بهذا
الشكل : قصر ضخّم ذكره بالقصور الملكية التي كان يراها
في طفولته مقام على ربوة عالية تجعله أشبه بقلعة حصينة
تحوطها مساحة لا تقل عن مائة فدان مزروعة عن آخرها ،
قطعت السيارة المسافة من البوابة الخارجية حتى باب
القصر في حوالي نصف ساعة عبرت خلالها طريقا طويلا
وسط الحدائق والأشجار وتوقفت أمام ثلاث حواجز أمنية
ليفحصها رجال الأمن ، كانوا ضخاما يرتدون بدلا كاملة
وأربطة عنق متشابهة وتتدلى من أحزماتهم طبنجات كبيرة

ويعسكون في أيديهم بأجهزة إلكترونية على هيئة عصي تصدر أزيزا يفحصون بها السيارة بعناية وبعد ذلك يطلعون على بطاقة الحاج و يطابقون بياناتها بالتصريح الذي يقدمه لهم السكرتير ، حدث ذلك ثلاث مرات مما ضايق الحاج عزام حتى كاد يعترض في المرة الأخيرة لكنه كظم غيظه وأثر الصمت وأخيرا صعدت السيارة ممرا عريضا ملتويا حتى وصلت إلى باب القصر وهناك تكررت إجراءات الأمن بنفس العناية والحزم وفتحوا هذه المرة حقيبة الحاج عزام وفتشوها ثم طلبوا إليه أن يجتاز بوابة إلكترونية .. وقد بدا الضيق على وجهه فاقترب منه السكرتير وقال بوقاحة:

- إجراءات الأمن أساسية..

ثم طلب إليه أن ينتظر في البهو وانصرف وظل عزام منتظرا فترة راح خلالها يتأمل الأعمدة الرخامية المستديرة والنقوش الفارسية على السجاجيد الفخمة والثريات الكريستال العملاقة المتدلية من السقف الشاهق وشينا فشنا أحس بالضيق والمهانة وفكر في أنهم يتعمدون إذلاله بالانتظار الطويل وإجراءات الأمن المبالغ فيها " انهم يهينونني وفي نفس الوقت يتهبون أموالى .. يريدون أن يأخذوا ربع الأرباح على الجاهز ولا ينطقون بكلمة شكر واحدة .. بلطجة وقلة أدب " امتلأ عزام بالحقد وامتعض

وجهه وراودته نفسه بالانسحاب من هذه المقابلة ،
 تمنى لو ينهض الآن ويطلب السكرتير ويخبره بأنه
 سينصرف وليكن ما يكون لكنه في داخله كان يعلم استحالة
 ذلك ، لو تركوه ينتظر حتى الصباح لما تجرأ على
 الاعتراض بكلمة .. انه الآن في دائرة الكبار وغلطة واحدة
 تعني نهايته وعليه أن يستحضر حيلته ويستجمع خبراته
 حتى يستعطف الكبير ويقنعه بتخفيض النسبة إلي أقل من
 الربع .. هذا أقصى ما يستطيعه وأية حماقة يرتكبها سوف
 يدفع ثمنها غاليا وفورا .. أخيرا سمع وقع خطوات يتردد
 من خلفه وتملكته الرهبة لدرجة لم يقو معها على الالتفات
 وسرعان ما ظهر أحد أفراد الحراسة وأشار له أن يتبعه ،
 مشيا في ممر طويل وخطواتهما تقعقع على رخام الأرضية
 المصقول حتى وصلا إلي قاعة فسيحة يتصدرها مكتب
 كبير من خشب الأرو ومائدة اجتماعات كبيرة اصطفت
 حولها عشرة مقاعد .. أشار فرد الحراسة إلي عزاء أن
 يجلس وقال ببرود وهو ينصرف:

- انتظر هنا لغاية الباشا ما يكلمك ..

استراب عزاء من كلمة " يكلمك " وتسائل هل يعنى
 ذلك أن الرجل الكبير غير موجود ..؟! .. لماذا لم يتصل به
 ليعتذر عن الموعد ويوفر عليه هذا العناء وتركوه ينتظر
 فترة طويلة وفجأة سمع صوتا يتردد عاليا في أنحاء

- أهلا يا عزام ..

هـب واقفا وقد تملكه الفزع وأخذ يلتفت حوله بحثا عن مصدر الصوت الذي أطلق ضحكة خفيفة واستطرد :

- ما تخافش .. أنا موجود في مكان ثاني لكني باكلّمك وشايفك .. للأسف ما عنديش وقت كثير .. خلينا نتكلم في الموضوع .. ليه طلبت مقابلتي..؟!

استجمع الحاج ذهنه وبذل مجهودا حتى يرفع صوته بالكلام الذي كان أعده على مدى أسبوعين لكن الأفكار تبخرت من رأسه من فرط الخوف واستطاع بعد لحظات أن ينطق بصعوبة :

- يافندم أنا خدامك وتحت أمر سيادتك .. جميلكم مغرقني وخيركم على البلاد كلها .. ربنا يخليكم ويحفظكم لمصر . كلي أمل إن سيادتك تنظر لموضوعي برحمة يافندم .. أنا عندي مسئوليات كبيرة وورايا بيوت مفتوحة ربنا يعلم ..نسبة الربع تتعبني يافندم جدا

ظل الكبير صامتا فتشجع عزام واستطرد متوسلا :

- أنا طمعان في كرم سيادتك .. سابق عليك النبي ما ترجعني مكسور خاطر لو سيادتك تخفض النسبة إلى الثمن مثلا يبقى سيادتك كثر خيرك

مرت لحظة أخرى من الصمت ثم علا صوت

الكبير منفعلا:

- اسمع يا عزام .. أنا ما عنديش وقت أضيعه معك .. النسبة دي ثابتة عليك وعلى غيرك .. أي بزنس كبير زي التوكيل بتاعك ندخل فيه شركاء بالربع .. والنسبة دي نحصل عليها مقابل شغل .. إحنا بنحميك من الضرائب والتأمينات والأمن الصناعي والرقابة الإدارية والـ ألف جهة تقدر توقف مشروعك وتضيعك في لحظة .. وبعدين أنت بالذات احمد ربنا .. إننا قبلنا نشتغل معك أصلا لأن شغلك ومسح ..

- مسح ١٢..

هكذا ردد عزام بصوت عال وتعلمل وأفلتت منه نعمة مستكرة استغزت الكبير فأرتفع صوته منفرا :
- أنت عبيط وإلا بتستعبط ؟! .. أنت مكسبك الأصلي من شغل ومسح غير التوكيل الياباني .. من الآخر أنت شغال في البودرة وإحنا عارفين كل حاجة .. . أقعد على المكتب وافتح الملف المكتوب عليه اسمك .. تلاقي صور من التقارير عن نشاطك .. تحريات أمن دولة ومكافحة مخدرات ومباحث عامة .. كلها عندنا وإحنا اللي موقفينها وإحنا برضه في لحظة واحدة نقدر نشتغل بها ونضيعك . أقعد يا عزام واعقل واقرا الملف ، ذاكره واحفظه كويس ، وفي آخر الملف حتلاقي نسخة من عقد

الشركة بيننا لو تحب توقع عليه وقع .. على راحتك ..
ثم أطلق الكبير ضحكة متهمكة وانقطع الصوت ...

• • •

لقيه عبده بجفاء .. صافحه ببرود وهو جالس ثم أشاح
بوجهه واستغرق في تدخين الشيعة فابتسم حاتم وقال
متوددا :

- إيه المقابلة الوحشة دي .. اطلب لي شاي على
الأقل ؟!

وبغير أن يلتفت إليه ، صفق عبده وطلب من النادل
كوبا من الشاي وبدأ حاتم حديثه قائلا ::

- البقية في حياتك يا عبده .. أنت مؤمن بربنا وقدره
.. لكن كونك حزين على ابنك هل يمنعك تشوفي...؟! ..
فانفعل عبده فجأة :

- يا حاتم بك كفاية .. ربنا يتوب علينا. أنا ولدي
مات على ذراعي ..
- يعني إيه...؟! ..

- يعني ربنا عاقبني على ذنبي معك ..

- هوكل واحد ابنه يموت يبقى ربنا عاقبه

- أيوه .. ربنا سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل وأنا

غلطت معك كثير واستأهل العقاب ..

- من أقنعك بالكلام ده ؟! .. هدية مرانك ؟
- هدية ولا غيرها مالك أنت .. أقولك حكايتنا
خلصت .. كل واحد من سكة .. لا تشوفني ولا أشوفك بعد
كده أبدا ..

كان صوته مختلفا مضطربا وهو يصيح ويصيح
بيديه كأنما ليقطع على نفسه خط الرجعة وصمت حاتم قليلا
ثم بدأ يتكلم بصوت هادئ وقد غير من خطته:

- طيب يا سيدي .. اتفقنا .. أنت تركت السطح
والكشك وعاوز تقطع علاقتنا وأنا موافق .. لكن حتصرف
على نفسك ومرانك منين ؟!

- الأرزاق على الله ..

- طبعا على الله .. لكن واجبي اني أساعدك حتى لو
انتهت علاقتنا .. برغم معاملتك الوحشة يا عبده أنا حامل
همك ..

...

- اسمع .. أنا شفت لك شغلة حلوة لأجل تفكرني
بالخير ..

ظل عبده صامتا وبان عليه بعض التردد وجذب
نفسا طويلا من الشيشة كأنما يداري ارتبأكه
- ما سالتش شغلة إيه ؟!

....

- أنا وصيت عليك تشتغل بواب في المركز
الثقافي الفرنسي في المنيرة .. مشغلة نظيفة ومريحة ومرتبها
خمسمائة جنيه شهري

ظل عبده صامتا ، لم يرد ولم يعترض واستطرد
حاتم وقد أحس نجاحه

- أنت تستاهل كل خير يا عبده .. خذ
.. أخرج من حقيبة يده القلم ودفتر الشيكات وارتيدي
نظارته الطبية وكتب شيكا وابتسم قائلا

- دا شيك بآلف جنيه لزوم مصاريفك لغاية ما تستلم
الشغل ظلت يده ممدودة لحظة حتى حرك عبده يده ببطء
وأخذ الشيك قائلا بصوت خافت :

- شكرا ..

- عبده .. أنا عمري ما فرضت عليك علاقتنا .. إذا
قررت تسينني سييني .. لكن لي عندك طلب واحد أخير ..
- طلب إيه ..؟

اقترب منه حاتم حتى النصق به ثم وضع يده على
ساقه وهمس بصوت مضطرم

- تبيت معي الليلة .. الليلة بس وتبقى آخر ليلة
بيننا .. أو عدك يا عبده لو جئت معي الليلة أو عدك انك ما
تشوفني أبدا بعد كده .. أرجوك

جلسا متجاورين في السيارة واحتواهما صمت
متوتر ، كان حاتم ينفذ خطته بدقة وقدر أنه سيحتفظ في

النهاية بعبدہ الذي لن يصمد لإغراء المال والعمل الجديد
 كما أنه ما أن يتذوق اللذة من جديد حتى يستأنف العلاقة ..
 أما عبده فقد برر استجابته لدعوة حاتم بأنها ضرورة
 فرضتها الظروف ، منذ أن ترك الكشك وهو لا يجد ما ينفقه
 على نفسه وزوجته حتى الشاي والمعدل يأخذهما على
 الحساب من صاحب القهوة بليدياته وقد استدان من معارفه
 الصعايدة ثلاثمائة جنيه في أقل من شهرين وأعياء البحث
 عن عمل مناسب بلا جدوى ولشتغل في الفاعل فلم يتحمل
 وتركه بعد أيام قليلة ، لم يعد بمقدوره تحمل هذه الأعمال
 الشاقة : يحمل القصة الثقيلة على ظهره ويصعد ويهبط
 بها طوال النهار من أجل بضعة جنيهات يسرق المقاول
 نصفها ناهيك عن الشتائم والإهانة ، ماذا يفعل إذن ؟! إن
 الشغلة التي يعرضها حاتم عليه محترمة ونظيفة وسوف
 تقيه شر الفقر إلى الأبد ، فليضاجعه الليلة فقط ، يرضيه
 مرة واحدة ثم يصرف الشيك ويسدد ديونه واحتياجاته
 وبمجرد أن يستلم عمله الجديد يقطع علاقتهما ويطوي هذه
 الصفحة القذرة .. انه واثق أن الله سيثوب عليه ويتقبل
 توبته وسوف يذهب بعد ذلك في أول فرصة لأداء الحج
 ليعود نقيا من الذنوب كما ولدته أمه ، ستكون آخر ليلة
 يرتكب فيها الذنب ومن الغد سوف يعلن توبته ويستقيم ..
 وقرر عبده في نفسه ألا يخبر هدية بأنه رأى حاتم لأنها لو
 عرفت ستحيل حياته إلى جحيم ، والحق أنها لم تتركه يوما

واحدا منذ وفاة الطفل بغير أن تتشاجر معه وتستمر
وتدعو الله عليه ، أفقدها الحزن عقلها وصارت عبثا ثقيل
على أعصابه وحياته كلها ، تعامله وكأنه قتل ابنه بيديه ،
والمحزن أن الإحساس بالذنب تسرب إليه وتمكن منه
وكثيرا ما يمنعه من النوم ، لكن كل ذلك سينتهي الليلة ،
سوف يشبع جسد حاتم لمرّة أخيرة ويحصل على الوظيفة
ويتوب..

دخلا إلى الشقة في صمت واضاء حاتم الأنوار قائلا
بمرح :

- البيت من غيرك وحش ..

فاقترب منه عبده فجأة واحتضنه وحاول أن يخلع
ملابسه ليضاجعه ، كان متعجلا لإنهاء المهمة وفهم حاتم
تعجله كدليل على اشتياقه فضحك بسعادة أنثوية وهمس
بدلال :

- صبرك يا عبده ..

وهرع إلى الداخل بينما فتح عبده الباب وأخرج
زجاجة الويسكي وصب لنفسه كأسا كبيرة تجرعها دفعة
واحدة بلا ماء ولا تلعج ، شعر بحاجة شديدة لأن يسكر وفي
الفترة القصيرة التي استغرقها حاتم في التخزين أفرغ في
جوفه عدة كنوس فسرى إليه مفعول الخمر وشعر بالدم
يتدفق حارا ساخنا في عروقه وتملكه إحساس بأنه قوي

قادر لا يمنعه شيء عن تنفيذ ما يريد خرج حاتم من الحمام وهو يرتدى البيجاما الحريرية الوردية على اللحم ومشى متأودا إلى المطبخ وعاد بطعام ساخن وضعه على المائدة وصب لنفسه كأسا بدأ يحسبها ببطء وهو يلحس طرف الكأس بلسانه بطريقة مثيرة ثم وضع يده على ذراع عبده القوية وتهدد وهمس :

- وحشتني جدا..

فأبعد عبده يده وقال بصوت مخمور :

- يا حاتم بك إحنا اتفقنا .. الليلة آخر ما بيننا ..

من باكر كل واحد يروح لحاله .. صبح..؟!

فابتسم حاتم ومر بأصابعه على شفثيه الغليظتين
وقلد لكنته مداعبا :

- صبح يا صعيدي

هذه المرة لم يطق عبده فانقض على حاتم وحمله كالطفل بين ذراعيه برغم اعتراضه الضاحك وصيحاته المثيرة ، ألقي به على الفراش وخلع بنطلونه وألقى بنفسه عليه ، ضاجعه بقوة، افترسه كما لم يفعل من قبل حتى أن حاتما صرخ بصوت عال أكثر من مرة من فرط اللذة والألم، أطفأ شهوته في جسده ثلاث مرات في أقل من ساعة، فعل ذلك بغير أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه يؤدي المهمة الثقيلة بحماس ليخلص منها ولما فرغا استلقى حاتم

عاريا على بطنه وأغمض عينيه في غيبوبة النشوة
وكانه مخدر أو نائم لا يريد أن يصحو أبدا من حلمه الرائع
الذي بينما ظل عبده مستلقيا يحدق في السقف ودخن
سيجارتين بغير أن ينطق بكلمة ثم هب ناهضا وشرع في
ارتداء ملابسه فانتبه حاتم إليه ، اعتدل جالسا على الفراش
وسأله بقلق :

- على فين؟..!

- ماشي

هكذا قال بعدم اكتراث وكان الأمر منته فنهض حاتم
ورقف أمامه

- خليك بايت الليلة والصبح تمشي

- ولا أستى ولا دقيقة واحدة ..

احتضنه حاتم بجسده العاري وهمس :

- عشان خاطري تبات

فجأة .. دفعه عبده بقوة لدرجة أنه سقط على المقعد

المجاور للفراش فتضرج وجهه وصاح غاضبا:

- أنت تجننت؟.. ازاى ترقني؟..!

ورد عبده متحديا :

- .. بلوقت كل واحد يروح لحاله

- واغتاظ حاتم من جملة عبده الواضحة التي أكدت

قفل خطته فقال :

- اتفقنا تبين الليلة

- اللي اتفقنا عليه أنا عملته ومالكش حاجة عندي

- أنت فاهم نفسك مين بالضبط .. ؟!

لم يرد عبده وأكمل ارتداء ثيابه في صمت فاستطرد
حاتم وقد ازداد حنقه :

- رد علي .. أنت فاهم نفسك مين .. ؟!

- بني آدم زبي زيك

- أنت مجرد صعيدي جاهل حافي .. أنا لميتك من
الشوارع ونظفنتك وعملتك بني آدم ..

.. تقدم منه عبده بخطوة بطينة ونظر إليه مليا
بعينه المحمرتين من أثر الشراب وقال محذرا:

- بص .. إياك تغلط معي .. فاهم .. ؟!

لكن حاتما فقد السيطرة على نفسه وكأنما مسته لعنة
شيطانية تدفع به إلى النهاية فتفحص عبده بنظرة مستهزئة
وقال :

- أنت نسييت نفسك يا عبده .. ؟! .. أنا بتليفون
واحد أوديك في ستين داهية

- ماتقدرش ..

- حاوريك أقدر ولا لا .. لو نزلت دلوقت حابغ
البوليس انك سرقتني

كاد عبده أن يرد عليه لكنه هز رأسه وخطا ناحية

الباب لينصرف ، كان يحس بأنه الأقوى وأن حاتم لا يمكن أن ينفذ تهديده ، مد يده ليفتح باب الشقة لكن حاتم أمسك بجلبابه وصاح :

- مش حتمشي

- أقولك سيبي

- لما أقولك تعستى يعني تعستى..

هكذا هتف حاتم وهو يتشبث برقبتة من الخلف فاستدار عبده ونزع يديه بسهولة ثم صفعه بعنف على وجهه فحلق لحظة وجحظت عيناه وكأنه جن ثم صاح :

- بتضرب سيدك يا خدام يابن الكلب .. وحياة أمك ولا فيه شغل ولا فلوس .. أنا الصبح أتصل بالبنك وأوقف صرف الشيك .. أبقي بله واشرب ميته ..

ظل عبده واقفا في وسط الحجرة حتى استجمع الأمر في ذهنه ثم أصدر صوتا غليظا أشبه بحسرة حيوان متوحش غاضب وانقض على حاتم يركله ويلكمه بيديه وقدميه ثم أمسك به من رقبتة وأخذ يضرب رأسه في الجدار بكل قوته حتى أحس بدمه ينبثق حارا لزجا على يديه وقد ذكر الجيران بعد ذلك ، في المحضر ، أنهم سمعوا في حوالي الرابعة صباحا صياحا وصرخات تنبعث من شقة حاتم لكنهم لم يتدخلوا لمعرفة بطبيعة حياته الخاصة

....

بسم الله الرحمن الرحيم ...

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا .."

قرأ الشيخ بلال من سورة النساء بصوت رخيم عذب أثر في الأخوة المصلين خلفه فتملكتهم الرهبة ورددوا خلفه دعاء القنوت خاشعين .. انتهت صلاة الصبح و جلس الشيخ بلال يسبح وتقدم إليه الأخوة واحدا واحدا يصفحونه بحب واحترام ولما انحنى عليه طه الشاذلي جذبته الشيخ ناحيته برفق وهمس : "انتظرنى في المكتب .. سألق بك حالا بإذن الله .."

انطلق طه إلى المكتب وهو يسأل نفسه : لماذا يريدني الشيخ ؟.. هل نقلت له رضوى ما قاله عليه ؟!.. إنها تؤكد دائما أنها تحب الشيخ بلال كأبيها ولكن هل تحبه لدرجة أن تنقل له كلام زوجها عنه ؟!.. لو أنها فعلت ذلك سيكون حسابها معه عسيرا ، لن يغفر لها أبدا لأن الزوجة يجب أن تكون أمينة على أسرار زوجها ، ولو سأله الشيخ عن كلامه لرضوى لن يكذب ، سيكرر الكلام أمامه وليكن ما يكون..

ماذا سيفعل به الشيخ ؟.. أقصى ما يفعله أن يطرده من المعسكر ، فليكن ، ما قيمة بقائه في المعسكر ليأكل ويشرب وينام ولا يفعل شيئا ؟! إذا كان الشيخ لن يسمح له بالجهاد فالأفضل أن يخرج من المعسكر ليعود من حيث أتى ..أخذ طه يفكر على هذا النحو حتى أنه دفع بيده باب المكتب ودخل متخفزا وهناك وجد اثنين من الاخوة ينتظران : الأخ الدكتور محبوب وهو طبيب بيطري جاوز الأربعين ، من جيل الرواد الذين أسسوا الجماعة الإسلامية في السبعينيات والأخ عبد الشافي من الفيوم كان طالبا في حقوق القاهرة ثم تكرر اعتقاله وطرده الأمن حتى هجر الدراسة وعاش في المعسكر ، صافحهما طه بود وجلس الثلاثة يتبادلون حديثا عاما لكنهم كانوا يشعرون داخلهم بقلق وتوجس ثم وصل الشيخ بلال فصافحهم وعانقهم بحرارة وقال وهو يتأملهم مبتسما :

" يا شباب الإسلام هذا يومكم.. لقد اختاركم مجلس شورى الجماعة للخروج في عملية مهمة .."
مرت لحظة من الصمت ثم اندفع الاخوة يهللون ويكبرون واحتضنوا بعضهم البعض مهنئين وكان أكثرهم فرحا طه الذي أخذ يصيح "الحمد لله.. الله أكبر" واتسعت ابتسامة الشيخ وقال :

" ما شاء الله .. بارك الله فيكم وزادكم إيماننا ، لهذا

يرتعد أعداء الإسلام خوفاً منكم لأنكم تحبون الموت كما
يحبون الحياة ..؟

ثم ارتسم على وجهه الجد وجلس إلى المكتب وبسط
أمامه ورقة كبيرة وقال وهو يبحث في جيب جلبابه عن
قلم:

- ليس أمامنا وقت .. يجب تنفيذ العملية الساعة
واحدة ظهر اليوم . وإلا سيكون علينا أن ننتظر شهراً كاملاً
على الأقل .. اجلسوا يا أبنائي وركزوا انتباهكم معي إلي
أقصى حد ..؟

• • •

بعد ساعتين كانت سيارة نقل صغيرة ممثلة عن
آخرها بأنابيب البوتاجاز تشق طريقها إلى منطقة فيصل
بالهرم وقد جلس إلى مقعد القيادة الدكتور محبوب وبجواره
طه الشاذلي أما الأخ عبد الشافي فقد وقف بين الأنابيب
المتكدسة في خلفية السيارة ، كانوا قد حلّقوا لحيمهم وارتدوا
ملابس موزعي البوتاجاز ، وكانت الخطة تقضي بمعاينة
الموقع قبل العملية بساعة على الأقل ثم التواجد في الشارع
بطريقة طبيعية حتى ينزل ضابط أمن الدولة من بيته وفي
الفترة منذ خروجه من باب العمارة حتى يستقل سيارته ،
يكون عليهم أن يعطلوه بأية طريقة ثم يفتحوا النار عليه من

البنادق الآلية الثلاث المخبوءة تحت مقعد القيادة .. كانوا أيضا مزودين بتعليمات إضافية صارمة :... إذا استطاع الضابط دخول سيارته قبل التنفيذ يكون عليهم أن يعترضوه بسيارتهم ثم يلقوا عليه بحمولتهم من القنابل اليدوية نفعة واحدة وبعد ذلك يتركون السيارة ويركضون كل واحد في اتجاه وهم يطلقون النار لأعلى لنلا يتعقبهم احد وإذا ساورهم الشك في أنهم مراقبون فإن الدكتور محبوب (باعتباره أمير المجموعة) يملك صلاحية إلغاء العملية فوراً وعندئذ يجب عليهم أن يتركوا السيارة في أي شارع جانبي ويعودوا إلى المعسكر متفرقين بالمواصلات العامة ..

ما أن دخلت السيارة إلى منطقة فيصل حتى قلت من سرعتها وأخذ الأخ عبد الشافي يرن بالمفتاح على أنابيب البوتاجاز معلنا للسكان عن وصولها ، وخرجت بعض النسوة من الشرفات والنوافذ نادوا على السيارة فتوقفت أكثر من مرة وحمل عبد الشافي عدة أنابيب إلى السكان وقبض بثمنها وعاد بالفوارغ إلى السيارة ، كانت هذه تعليمات الشيخ بلال إمعانا في التمويه ، ثم وصلت السيارة إلى شارع عاكف حيث يسكن الضابط وطلبت امرأة أنبوبة من شرفتها فحملها إليها عبد الشافي وكانت هذه فرصة لمحبوب وطه لكي يتفقدوا الموقع على مهل .. كانت سيارة

الضابط مرسيدس زرقاء طراز أواخر السبعينيات
تنتظر أمام مدخل العمارة ودرس محجوب جيدا المسافات
والمحلات المجاورة والمداخل والمخارج ولما عاد عبد
الشافي انطلقت السيارة بعيدا عن الموقع ونظر الدكتور
محجوب إلي ساعته وقال :

- أمانا ساعة كاملة .. ما رأيكم في كوب شاي...؟
كان يتكلم بصوت مرح كأنما ليث في نفوسهم الطمأنينة
ووقفت السيارة أمام مقهى صغير في شارع مجاور حيث
جلس الثلاثة يحسون الشاي بالنعناع ، كان مظهرهم عاديا
تماما لا يمكن أن يثير الريبة ورشف محجوب من الكوب
بصوت مسفوح وقال :

- الحمد لله .. كل شيء تمام
وردد طه وعبد الشافي بصوت خلفت الحمد لله
- هل تعلمان أن الأخوة في شورى الجماعة ظلوا
يراقبون الهدف لمدة عام كامل...؟

- عام كامل ...؟

هكذا سال طه ..

- والله العظيم عام بحاله .. التحريات صعبة لأن
الضباط الكبار في أمن الدولة يبالغون في التخفي ،
يستعملون أكثر من اسم ويقيمون في أكثر من مسكن وأحيانا
ينتقلون مع أسرهم بين الشقق المفروشة وكل ذلك يجعل

الوصول إليهم شبه مستحيل..

- ما اسم الضابط يا أخ محبوب ؟

- المقروض ألا تعرفه ؟..

- فاهم انه ممنوع لكنني أحب أن أعرف ..

- يفرق معك اسمه ؟..

وسكت طه ثم نظر مليا إلى محبوب وقال بانفعال :
... يا أخ محبوب لقد بدأنا الجهاد بالفعل وربما يكرمنا الله
بالشهادة فتصعد أرواحنا معا إلى خالقها .. أولا تثق بي
ونحن على حافة الموت ؟..

وتأثر محبوب من كلمة طه وكان يحبه فقال
بصوت خافت:

- صالح رشوان ..

- العقيد صالح رشوان ؟؟

- مجرم وكافر وسفاح.. كان يتلذذ بالإشراف على
تعذيب الإسلاميين وهو المستول المباشر عن مقتل أخوة
كثيرين في المعتقل ، بل أنه قتل بمسدسه الخاص اثنين من
خيرة شباب الإسلام الأخ حسن الشرباصي أمير الفيوم ،
والأخ الدكتور محمد رافع المتحدث باسم الجماعة . وكان
يتباهى بقتلها أمام الأخوة المعتقلين في سجن العقرب ..
رحم الله جميع شهدائنا الأبرار وأسكنهم فسيح جناته
وجمعنا بهم على خير بإذن الله

قبل الواحدة بخمس دقائق توقفت سيارة البوتاجاز
 على الناحية المقابلة لمدخل العمارة ونزل عبد الشافي
 واقترب من كابينة القيادة وأخرج من جيبه دفترًا صغيرًا
 وتظاهر بمراجعة الحسابات مع محجوب السائق ، انهمك
 الاثنان بصوت معسوم في مناقشة عدد الأنابيب المباعة ،
 كان منظرهما طبيعيا وأمسك طه بمقبض الباب متحفزا كان
 مدخل العمارة مكشوبا أمامه وشعر بقلبه يكاد يتمزق من
 قوة الخفقان ، وجهد لكي يركز ذهنه في نقطة واحدة لكن
 شلالا هادرا من الصور اجتاح مخيلته ، مرت دقيقة رأى
 خلالها حياته كلها مشهدا مشهدا : حجرته فوق سطح عمارة
 يعقوبيان وذكريات طفولته وأمه وأباه الطبيين وحبيبته
 القديمة بثينة السيد وزوجته رضوى واللواء قائد كلية
 الشرطة يعيره بمهنة أبيه ، والجنود في المعتقل يضربونه
 ويهتكون جسده ، كان يتحرق شوقا لأن يعرف هل هذا
 الضابط الذي أشرف على تعذيبه في المعتقل ولم يفتح
 محجوب برغبته لنلا يقلق منه فيستبعده من العملية ، ظل
 طه يحدق في مدخل العمارة والذكريات تتسارع أمامه ثم
 ظهر الضابط ، بدا كما وصفوه له ، بدين أبيض البشرة
 لازالت آثار النوم والحمام الساخن على وجهه ، يمشي
 بهدوء وثقة والسيجارة تتدلى من زاوية فمه .. أسرع طه
 ففتح الباب ونزل إلى الشارع متوجها ناحيته ، كان عليه أن

يعطله بأية طريقة حتى يطلق عليه الأخوان النار عندئذ يركض طه ويقفز إلى السيارة ويلقي بقنبلة يدوية لتغطية الهروب ، تقدم طه من الضابط وساله بصوت جهد ليبدو طبيعياً:

- من فضلك يا أستاذ..؟ رقم ١٠ شارع عاكف من اي ناحية ؟!؟

لم يتوقف الضابط ، أشار إليه بتعال وتمتم هو يتقدم ناحية السيارة :

- الناحية دي ..

كان هو .. هو الذي أشرف على تعذيبه ، الذي طالما أمر الجنود بضربه وتمزيق جلده بالسياط وإدخال العصا في جسده ، هو بلا أدنى شك ، نفس الصوت الأجش والنبرة اللامبالية وذلك اللهات الخفيف من أثر التدخين .. خرج طه عن شعوره وقفز ناحيته وأطلق صيحة حادة مبهمه وكأنها زمجرة غاضبة فالتفت إليه الضابط بعينين خائفتين وتقلص وجهه من الرعب وكأنه أدرك الموقف وفتح فمه ليقول شيئاً لكنه عجز فقد انطلقت فجأة زخات متتابعة من البنادق الآلية أصابت كلها جسد الضابط فسقط على الأرض والدم يسيل منه بغزارة و خالف طه الخطأ وظل واقفاً حتى يرى الضابط بعينه وهو يموت ثم صاح : الله أكبر .. الله أكبر وقفز عاتداً إلى السيارة لكن مفاجأة حدثت ، فقد سمعت

أصوات زجاج ينكسر بشدة في الدور الأول وبرز رجلان
أخذوا يطلقان النار في اتجاه السيارة ، وأدرك طه ما يحدث
فحاول أن يخفض من رأسه ويجري في اتجاه متعرج كما
تعلم في التدريب حتى يتفادى مرمى النيران ، وأخذ يقترب
من السيارة والطلقات تنهمر حوله كالْمَطَر و لما صار على
بعد مترين أحس فجأة ببرودة في كتفه وصدره ، برودة
قارصة كالثلج أدهشته ونظر إلى جسده فرأى الدم يغطي
ويتدفق وتحولت البرودة إلى ألم حاد ينهشه فسقط على
الأرض بجوار الإطار الخلفي للسيارة وصرخ متألماً ثم
خيل إليه أن الألم الرهيب يتلاشى شيئاً فشيئاً وأحس براحة
غريبة غامرة تحويه وتحمله في طياتها وتناهت إلى سمعه
أصوات بعيدة مفعمة : أجراس وترانيم وهمهمات منشدة
تتردد وتقترب منه وكأنها تستقبله في عالم جديد ..

منذ العصر ، انقلب مطعم مكسيم رأسا على عقب..

بالإضافة إلي العاملين في المطعم تم الاستعانة بعشرة عمال إضافيين وانهمك الجميع في تنظيف الأرضية والجدران والحمام بالماء والصابون والسوائل المطهرة ثم قاموا بنقل المناضد والمقاعد إلي جانبي المكان بحيث تركوا ممرا متسعا يصل بين المدخل والبار ومساحة واسعة في الوسط تصلح كحلبة رقص ، ظلوا يعملون بدأب تحت إشراف كريستين التي ارتدت زيا رياضيا فضفاضاً وأخذت تساعدهم بنفسها في حمل الأشياء (وكانت هذه طريقتها في حثهم على العمل بحماس) ومن حين لحين يعلو صوتها بعربية مكسورة ثونث كل من تكلمه :

- انتي شيللي كله هنا .. نظفي كريس .. انتي ايه تعبتي والاياه ؟!

في الساعة السابعة صار المكان متألقا وبسطت على الموائد مفارش بيضاء ناصعة جديدة أخرجت خصيصا للمناسبة ثم جاءت سلال الزهور فأشرفت كريستين على وضعها في أماكنها ، فكت الباقات الصغيرة ووزعت الأزهار على الأصص وأمرت العمال بوضع السلال الكبيرة على مدخل المحل من الخارج وبطول الممر ، ثم أخرجت من درج مكتبها لافتة قديمة أنيقة مكتوب عليها

بالفرنسية والعربية : المطعم محجوز الليلة لحفل خاص ، علقتها كريستين على الباب الخارجي ثم أطلقت برأسها لتلقي نظرة أخيرة اطمأنت بها على شكل المطعم وأسرعت إلى بيتها القريب لتغير ملابسها ولما عادت بعد ساعة ، بثوبها الأزرق الأنيق وماكياجها المتقن الهادئ وشعرها المصفف "مسينيون" إلى أعلى على طريقة الخمسينيات ، كانت الفرقة الموسيقية قد وصلت وعكف أعضاؤها على ضبط آلاتهم : المزمار والساكسفون والكممان وآلات الإيقاع المختلفة وتعالّت أنغام الضبط المتناغمة وكأنها مهمة كائن موسيقي عملاق ، كان المدعوون قد بدءوا في الظهور ، جاء بضعة عجائز من أصدقاء زكي الدسوقي ، كانت كريستين تعرف بعضهم وصافحتهم جميعا ودعتهم إلى البار حيث تقدم البيرة والويسكي مجانا ، وازداد توافد المدعوين فجاءت صديقات لبثينة من مدرسة التجارة مع أسرهم وجاء على السواق (الذي شق طريقة إلى البار مباشرة) وصابر الكواء وزوجته وأولاده ، وآخرون كثيرون من السطح ، كانت النسوة يرتدين ثيابا لامعة موشاة بالقصب والترتر ، والبنات في سن الزواج جئن على أتم زينة وأناقاة تحسبا لفرصة زواج كامنة في الفرج وقد داخلت أهل السطح رهبة من فخامة المطعم وطرازه الأوروبي العريق إلا أن النسوة شيئا فشيئا بدأن بكسر هذه

الرغبة بأحاديث جانبية مرحة وضحكات عالية أقرب إلى الخلاعة من وحي المناسبة وفي نحو التاسعة فتح الباب ودخل بعض الأشخاص بسرعة ثم تبعهم بتزودة زكي للسوقى ، ببذلته السوداء الأنيقة وقمصاه الأبيض والبايون الأحمر الكبير على عنقه وشعره المصبوغ المصنف إلى الخلف في تسريحة جديدة اقترحها الحلاق وآتت ثمرتها فبان أصغر عشرة أعوام من عمره الحقيقي ، كانت خطواته متصلبة قليلا وعيناه محققتين من أثر كاسين دوبل من الويسكي أثر أن يبدأ بهما الليلة وما أن ظهر في الحفل حتى تعالى التهاتف والصفير والتصفيق من كل صوب .. " مبروك " ألف مبروك " وانطلقت بضغ زغاريد على استحياء ، وبينما الناس يصافحونه مهنئين اندفعت كريستين ناحيته وعانقته وقبلته بطريقتهما الحميمة

- " تبدو كنجوم السينما "

هكذا هتفت بحماس ثم تنهدت ونظرت له مليا قائلة:

- " كم أنا سعيدة من أجلك يا زكي !!.. لقد فعلت ما

كان عليك أن تفعله من زمان .. "

كان هذا حفل زواج زكي بك السوقى من بثينة

السيد ، التي تأخرت قليلا عند مصفف الشعر كعادة

العرائس ثم جاءت بفستان العرس الأبيض يحمل أطراف

ذيله الطويل اخوتها البنات وأخوها الصغير مصطفى ، ما

أن ظهرت العروس حتى تأثر الحاضرون جميعاً
لمراها وانطلقت بوضوح وصراحة عاصفة من الزغاريد
المتتالية المنغمة ، كان الجميع سعداء وبعد أن فرغت الفرقة
الموسيقية من الزفة وتم افتتاح البوفيه حاولت كريستين أن
تحافظ على الطابع الأوروبي للاحتفال فعزفت على البيانو
أغنية الحياة بلون الورد لاديت بياف ورددت بصوتها
العذب الكلمات :

عندما ياخذني بين ذراعيه ويهمس لي .. أرى
الحياة بلون الورد

يقول لي كلمات حب .. كلمات كل يوم .. لكنها
تصنع في قلبي شيئاً

رقص العروسان وحدهما واضطربت بثينة قليلاً
وكادت تتعثر في الرقصة لكن العريس أرشدها للخطوة
الصحيحة وانتهاز الفرصة ليضمها إليه ولم تغت الحركة
على الحاضرين فأطلقوا التعليقات الضاحكة وفكر زكي أن
بثينة تبدو في ثوب العرس مخلوقاً نقياً رائعاً وكأنها ولدت
اليوم وقد تخلصت إلى الأبد من ة وائب الماضي التي لوئتها
بغير ذنب ، ولما انتهت الأغنية حاولت كريستين بلباقة أن
تقترح أغاني فرنسية أخرى ولكن عبثاً فقد ضغط الرأي
العام بقوة حتى استجيب له في النهاية وبدأت الفرقة
الموسيقية تعزف مقطوعات الرقص الشرقي .. كانت هذه

اللحظة السحرية فانطلقت - النسوة والبنات - وكانهن
وجدن أنفسهن أخيرا - يصفقن ويغنيّن ويتمايلن على
الإيقاع وتحزمت أكثر من واحدة ورقصت والحن على
العروس حتى استجابت وسمحت لهن بتحزيمها ثم اندمجت
في الرقص وزكى بك الدسوقي يتأملها بنظرة محبة معجبة
ويصفق على الإيقاع بحماس وثينا فثينا رفع ذراعيه
لأعلى وبدأ يشاركها الرقص وسط تهليل الحاضرين
وضحكاتهم ..

تَمَّتْ